كل الحقيقة للجماهير

الهدف AL-HADAF

فلسطينية عربية ديمقراطية بهوية يسارية

الذكرى الرابعة والعشرون على
استشهاد الرفيق القائد الأمين العام

أبو علي مصطفى

خذ مكاني يا رفيقي في الكفاح

الهدف - فلسطين - العدد 74 (1548) - آب / أغسطس 2025

الجبهـة الشّعبية لتحرير فلسطين

تنعي بكل فخر واعتزاز

الشهيد الرفيق القائد البطل

محمد خليل وشاح

«أبو خليل وشاح»

الشهيد الرفيق البطل

مفيد حسن

«أبو أحمد»

شهداء على طريق القدس وفلسطين

الذين ترجلوا يوم الخميس الموافق 2025/08/07 إثر استهداف غادر لهم من قبل الطيران الحربي الصهيوني على طريق المصنع بالقرب من الحدود اللبنانية السورية

الافتتاحية

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين
P. F. L. P.

في ذكرى فارس الشهداء
أبوعلي مصطفى
وعندما يتحدث الشهداء

تمرُّ ذكرى استشهاد الرفيق القائد أبوعلي مصطفى، فارس الشهداء، وقطاعُ غزةَ بأهله ومقاوميه يواجه حربَ الإبادةِ والتطهير العرقيّ بكلِّ أشكال الأسلحة والتقنيات الأمريكية والغربية القاتلة والمدمرة، وظلَّ صامداً ثابتاً يقاومُ ويقاتل... يواصلُ العدوُّ الصهيونيُّ عدوانَه وجرائمَه بالقتلِ والتدميرِ والحصارِ والتجويعِ، بهدف الإبادةِ والتهجيرِ، متوهِّمًا بقدرتِه على فرضِ الاستسلامِ وإخضاعِ الشعبِ والأهلِ هناك.

إن ما تتعرض له الضفةِ الغربيةِ والقدسِ ليس أقلَّ خطورةً مما يجري في غزةَ، فالتّهويدُ والاستيطانُ وقرارُ الضمِّ لأراضي الضفةِ وتدميرُ المخيماتِ والشروعُ بتسجيلِ الأراضي في المنطقة (ج) لصالحِ المستوطنين، ما هو إلا استكمالٌ لمخطَّطِ التهجيرِ والتصفيةِ وقطعِ الطريقِ على فكرةِ إقامةِ دولةٍ فلسطينية.

من أقوالِ الشهيدِ أبوعلي مصطفى: «عُدْنَا لِنُقَاوِمَ، وعلى الثوابت لا نُسَاوِمَ»، وخيارنا؛ بالوحدةِ والمقاومةِ ننتصرُ».

وبعد فشلِ خيارِ المفاوضاتِ واتفاقياتِ أوسلو البائسةِ، بات الرهانُ على العمليةِ السياسيةِ شيئًا من الوهمِ والخيالِ والتضليلِ، ولم يعدْ أمامَ الشعبِ الفلسطينيِّ إلا خيارُ المقاومةِ بكلِّ أشكالها. وما يجري على الأرضِ الفلسطينيةِ من جرائمَ وإبادةٍ وتهجيرٍ يؤكد أن الصراعَ تناحريٌّ وجوديٌّ، ولا إمكانيةَ للتعايشِ مع الصهيونيةِ الفاشيةِ والعنصريةِ. فالمقاومةُ خيارٌ موضوعيٌّ تقومُ به الشعوبُ لحمايةِ نفسها وتحريرِ أرضها، وهذا حقٌّ كفلتْه كلُّ الشرائعِ والقوانين. وهذا ما يمارسُه شعبُنا في فلسطينَ المحتلةِ، خاصةً في غزةَ والضفة. وها هي عملياتُ المقاومةِ بالاستنزافِ وحربِ العصاباتِ تتواصلُ بضرباتٍ وكمائنَ نوعيةٍ تصطادُ دباباتِ وآلياتِ وأفرادَ العدوِّ كلَّ يومٍ، رغم جبروتِه وإجرامِه وما يملكُه من إمكانياتٍ وقدراتٍ عسكريةٍ بريةٍ وبحريةٍ وجوٍّفضائيةٍ وسيبرانية.

وما الكمائنُ التي أعدَّها أبطالُ المقاومةِ في بيت حانون ورفح، وليس آخرُها كمينُ خان يونسَ الذي اشتركتْ به ثلاثُ مجموعاتٍ فدائيةٍ واستمرَّ بمعركةٍ لعدةِ ساعاتٍ وكبَّد العدوَّ خسائرَ كبيرةً بالأفرادِ والآلياتِ، إلا دليلٌ على رباطةِ جأشِ أبطالِ المقاومةِ الثابتينَ الصامدينَ، وقدرتِهم على ممارسةِ كلِّ فنونِ القتالِ بإرادةٍ وعزيمةٍ وتخطيطٍ وتحضيرٍ وتجهيزٍ ودقةٍ عاليةٍ بالتنفيذِ ضدَّ مواقعِ العدوِّ الصهيونيِّ وعلى امتدادِ مساحةِ القطاع.

يعترفُ ضباطُ العدوِّ بالقول: «لا نعرفُ من أين يخرجون ولا متى سيضربون، نطلقُ عليهم النارَ دون أن نراهم» «ويطالبون بوقف فوري للحرب التي باتت عبثية».

ويقولُ الحاخامُ مائير هيرش، رئيسُ حركةِ «ناتوري كارتا» المناهضةِ للصهيونية: «إن ما يجري في غزةَ ما هو إلا جريمةٌ مروعةٌ ضدَّ الإنسانيةِ، وهذا الجيشُ الصهيونيُّ يرتكبُ الجرائمَ في غزةَ والضفةِ، وهو الأكثرُ تعطشًا للدماءِ».

رغم ما يدَّعيه الكيانُ الصهيونيُّ وفرقُه العسكريةُ وعصاباتُ المستوطنينَ من إنجازاتٍ على الأرضِ والميدانِ في فلسطينَ أو لبنانَ أو اليمنَ أو سورياً أو إيرانَ، إلا أنه يواجهُ أزماتٍ داخليةٍ عميقةٍ، بنيويةٍ وسياسيةٍ واقتصاديةٍ، وعلى كلِّ المستوياتِ، تشيرُ إلى بدايةٍ جديّةٍ لتآكلِ وتفككِ الكيانِ من الداخل.

إن عمليةَ الثباتِ والصمودِ للشعبِ الفلسطينيِّ، وللمقاومةِ في فلسطينَ والمنطقةِ، تستنزفُ العدوَّ وتُربكُه وتُعمقُ الخطرَ الوجوديَّ الذي يهددُه، وتُفاقمُ أزماتِه البنيويةِ والقومية» والاجتماعيةِ، مما يزيدُ من تسارعِ الانقساماتِ الحادةِ على خلفيةٍ دينيةٍ أو قوميةٍ (إعلاء الهوية الفرعية على حساب الهوية الموحدة)، وربما يكون ذلك دافعاً إلى المغادرة أو الهروب الجماعي للمستوطنين والمستجلبين.

ما يفتقده الفلسطينيونَ اليومَ في مواجهةِ حربِ الإبادةِ وأخطارِ السيطرةِ على الأرضِ الفلسطينيةِ بأكملها وفرضِ السيادةِ عليها ومشاريعِ التهجيرِ القسريِّ أو الطوعيِّ أو الاقتلاعِ، هو القرارُ الواحدُ الموحدُ، المتمثلُ بالوحدةِ والمقاومةِ، تحت مظلةِ منظمةِ التحريرِ الفلسطينيةِ، الممثلِ الشرعيِّ والوحيدِ، وهي الإطارُ الجامعُ الذي يضمُّ الجميعَ بدون استثناءٍ، ما دامت رايتُه فلسطينَ وأهدافُ الشعبِ الفلسطينيِّ بالتحريرِ والعودةِ.

هذا هو النهجُ الوطنيُّ والثوريُّ الذي خطَّه الحكيمُ، وتمسك به فارسُ الشهداءِ أبو علي مصطفى، وهو ذاتُ النهجِ الذي تتبناه الجبهةُ بقيادةِ الرفيقِ أحمد سعدات ورفاقِه في هيئاتِ الجبهةِ على كافةِ المستوياتِ وفي جميعِ الساحاتِ، فالوحدةِ الوطنيةِ ضرورةٌ ملحةٌ، وتتعاظمُ أهميتُها كلما اشتدت الأخطارُ، فهي شرطُ الصمودِ والانتصارِ. وهذا ما يلتقي عليه ويؤكدُه الأحرارُ من شعبنا، بغضِّ النظرِ عن انتماءاتِهم ومواقفِهم وأيديولوجياتِهم. وهذا ما نقرأُه أيضاً في مدوّناتِ الكثيرِ الكثيرِ من كوادرِ وقياداتِ حركةِ فتح، والتي تطالبُ القيادةَ الرسميةَ والهيئاتِ القياديةَ لمنظمةِ التحريرِ باتخاذِ خطواتٍ صادقةٍ وعمليةٍ باتجاهِ الوحدةِ الوطنيةِ الفلسطينيةِ، ولمِّ الشملِ الفلسطينيِّ والشراكةِ الحقيقيةِ، وإعادةِ الاعتبارِ لمكانةِ ودورِ المنظمةِ كقائدةٍ للمشروعِ الوطنيِّ الفلسطينيّ، فالوقتِ من دمُ وطاقاتُ شعبنا لا تنضبُ، وشرطَ انتصارِها هو الوحدةُ والمقاومةُ فقط لا غير.

كل الحقيقة للجماهير

الهدف AL-HADAF

كل الحقيقة للجماهير

فلسطينية عربية ديمقراطية بهوية يسارية

العدد رقم (74) - (1548) - آب (أغسطس) 2025

أسسها عام 1969

الأديب الشهيد

غسان كنفاني

رئيس التحرير

كايد الغول

مدير التحرير

محمد أبو شريفة

المدير الفني

منير الرفاعي

تصميم الغلاف

جيفارا عبد القادر

المدقق اللغوي

أيمن الحسن

متابعة إدارية

حسن شتيوي

المقالات المنشورة لا تتطابق بالضرورة مع وجهة نظر الهدف

يسمح بالنقل وإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر

عناوين مجلة وبوابة الهدف:

غزة بجوار مشفى الشفاء ـ نهاية شارع الثورة

الهاتف: 082836472

البريد الإلكتروني:

hadafmagazinenew@gmail.com

تصدر عن

دائرة الإعلام المركزي

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

الافتتاحية

- في ذكرى فارس الشهداء أبوعلي مصطفى وعندما يتحدث الشهداء — 1

شؤون فلسطينية

- بيان: في الذكرى 24 لاستشهاد الأمين العام القائد أبو علي مصطفى — 3
- في الهدف: غزة.. ما بعد الموت بقليل — 7
- الذكرى ال(24) لاستشهاد أبو علي مصطفى — عليان عليان — 8
- أزمة المياه في قطاع غزة: تهديد خطير للإنسانية — صفي الله الحسيني — 10
- الأسرى الفلسطينيون بين مطرقة الاحتلال وسندان الصمت الدولي — د. سعيد سلّام — 11
- غزة: من الحصار البانوبتيكي إلى النيكرو-سياسة — لمى الشطلي — 14
- فلسطين وإسرائيل في السياسة الأمريكية — بسام عليان — 16

شؤون عربية

- حملات التضامن العالمية مع غزة..أين العرب؟! — رضي الموسوي — 17
- من صبرا وشاتيلا إلى تموز: دروس في معنى السلاح — د. انتصار الدّنّان — 20

شؤون دولية

- غزة تنزف .... ماذا بعد الاستنكار والإدانة الأوروبية؟ — أحمد عويدات — 21
- هل ينجح الرئيس ترامب بإنهاء الصراع الروسي –الأوكراني؟! — محمد صوان — 23
- الإبادة الجماعية والتطهير العرقي سياسة استعمارية متوارثة — إلهام الحكيم — 25

شؤون العدو

- حرب الإبادة في غزة جوهر الإيديولوجيا الصهيونية العنصرية — علي زيدان — 27
- نتنياهو والتكليف الإلهي "لوسيفر" القرن الواحد والعشرين — د. محمد عياش — 29
- من العقد الاجتماعي إلى الفوضى: إسرائيل تسقط في فراغها — نبال عمر — 31
- سياسات التصفية: عقيدة الاحتلال لقمع الصوت المقاوم — وسيم السلطي — 32
- الاغتصاب الصهيوني للفكر — سلام شما — 33
- حرب نتنياهو أم حرب المشروع الصهيوني؟ — موسى جرادات — 34
- وهم (إسرائيل) الكبرى والصغرى وأحلام نتنياهو — حمزة البشتاوي — 35

- **دراسات الهدف:** القاموس اللغوي للإبادة الجماعية تحليل اجتماعي- سياسي للخطاب الغربي — **أنمار رفيدي ووسام رفيدي** — 36
- **ترجمات الهدف:** كيف تضع وحدة إسرائيلية سرية صحفيي غزة في مرمى النيران — **ترجمة: نور نوارة** — 44
- **تحقيق الهدف:** مشكلات (نهب الممتلكات) في مخيم اليرموك — **وفاء حميد** — 46

شؤون ثقافية

- حوار الهدف: مع الروائي الفلسطيني صبحي فحماوي — حوار: أمينة عباس — 48
- حوار افتراضي بين حنظلة وناجي العلي — أحمد طنيش — 52
- الفلسطيني وفلسطين في رواية (عن أفياء والعهن) لأيمن الحسن — بسام سفر — 54
- محمود درويش: الحاضر الذي لا يغيب — د. ثائر يوسف عودة — 56
- صباح الخير يا غسان صباح الخير يا إبراهيم — حاتم استانبولي — 58
- الثالوث الفلسطيني المقدس (1-2) — غرز الدين جازي — 60
- فيلم ناجي العلي - رحلة في عوالم شهيد الموقف والكلمة — موسى مراغة — 63
- «كأني هنا» لإيمان زيّاد لغة قاسية وغياب لذاكرة المكان — محمود أبو حامد — 65
- السينما العربية: من وجع الأسئلة إلى استسهال الإجابات — تماضر سعيد عودة — 67
- في ذكرى وفاة الشاعر الكبير محمود درويش — محمود علي السعيد — 68
- «مصائد الرياح» لإبراهيم نصر الله مقاربة نفسية فلسفية — د. محمد عبد القادر — 69
- صور من ثقب باب موصد — جهاد الرنتيسي — 71
- راية بطولة وزي عز وكرامة — د. نجلاء الخضراء — 72
- هو الممتشق دمه.. ودمه الطريق لماذا غسان كنفاني؟ — أحمد علي هلال — 74
- ناجي العلي الحضور الدائم — محمد أبو شريفة — 75

بيان صادر عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين
في الذكرى الرابعة والعشرين لاستشهاد الأمين العام
القائد أبو علي مصطفى

«بوحدة شعبنا ومقاومتنا واستثمار طاقات الأمة العربية نوقف الإبادة ونحبط مخطط إسرائيل الكبرى»
«أنا إن سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح»

يا جماهير شعبنا الباسلة في الوطن والشتات،
أبناء أمتنا العربية وأحرار الأمة والعالم،

تحلّ علينا الذكرى الرابعة والعشرون لاستشهاد الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، القائد الوطني والقومي الكبير «أبو علي مصطفى»، الذي اغتالته طائرات الغدر الصهيونية أثناء أداءه لعمله الوطني في مكتبه بمدينة رام الله المحتلة، في جريمة صهيونية غادرة، تاركاً وراءه إرثاً مشرفاً من التضحيات والعطاء، مُخلّداً حضوره في سجل العظماء الخالدين.

حاول العدو أن يغتال الفكرة باغتيال صاحبها، لكن دماء أبو علي تحوّلت إلى شعلة تنير دروب المقاومة والمناضلين، ولتظل وصيته الخالدة «عدنا لنقاوم، وعلى الثوابت لا نساوم» حية بين أجيال شعبنا.

لقد كرّس القائد الوطني حياته من أجل فلسطين، وعاد إلى أرض الوطن المحتل، مؤمناً بأن المقاومة والوحدة هما السبيل الوحيد للحرية والعودة، وكان رمزاً حيّاً لفلسطين المقاومة، وصوتاً للفقراء والكادحين، وضميراً لوحدة شعبنا، ومثالاً على الصلابة والثبات الثوري الذي لا يعرف المساومة.

وفي هذه المناسبة، نتوجّه بالتحية والوفاء إلى حامل الراية من بعده القائد الوطني الكبير والأسير البطل أحمد سعدات، وإلى رفاقه الذين جسّدوا معنى الوفاء لدماء الشهداء بانتقامهم الثوري من المجرم العنصري رحبعام زئيفي، مؤكدين أن دماء قادتنا وشعبنا ليست رخيصة.

جماهير شعبنا... أبناء أمتنا العربية... أحرار العالم

تطلّ علينا هذه الذكرى في وقت يشهد فيه شعبنا في قطاع غزة حرب إبادة صهيونية متصاعدة، فيما يواصل الاحتلال سياساته التهويدية والاستيطانية في الضفة، مستهدفاً تدمير المخيمات وتشريد سكانها.

تهدف هذه الجرائم إلى اقتلاع الفلسطينيين من أرضهم ومسح هويتهم الوطنية، وسط ارتكاب أفظع المجازر ومحاولات التصفية الممنهجة للقضية الوطنية وحق شعبنا في العيش بحرية وكرامة على ترابه.

وفي ظل هذا التصعيد الصهيوني غير المسبوق، تؤكد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في هذه الذكرى على التزامها الثابت بنهج قائدها الشهيد وبوحدة شعبنا، ومقاومته، واستمرار النضال على جميع المستويات لإيقاف المجازر وإفشال مخططات الاحتلال، وحماية حقوق شعبنا التاريخية والوطنية، كما تشدد على التالي:

1. مواصلة العمل على كافة المستويات السياسية والميدانية والشعبية والدولية لإيقاف حرب الإبادة على غزة وإحباط مخططات الاحتلال للتهجير والاقتلاع، مع تكثيف الجهود لإيقاف المجازر وحماية المدنيين ومنع تفاقم الكارثة الإنسانية.
2. التحرك العاجل لمواجهة مخطط الاحتلال لاحتلال مدينة غزة، وكشف الدعم الأمريكي المباشر لهذا التصعيد، ومنع تهجير السكان ودمار المدينة، مع توظيف كل الوسائل السياسية والدبلوماسية لإلزام المجتمع الدولي بالضغط على الاحتلال ووقف هذا المخطط.
3. إن مواجهة تعقيدات وخطورة هذه المرحلة تتطلب ووضع برنامج سياسي شامل يضمن إدارة وطنية فعّالة لكل شؤون فلسطين، بما في ذلك غزة بعد انتهاء الحرب، مع تشكيل حكومة توافق وطني قادرة على اتخاذ القرارات بحرية وفاعلية، بعيداً عن أي تدخلات خارجية، وضمان تنسيق الجهود السياسية والميدانية بشكلٍ متكامل وموحد.
4. تفعيل مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية عبر عقد مجلس وطني شامل لإعادة بناء الشرعية الوطنية وحماية الحقوق الفلسطينية، وإنهاء نهج التفرد والتسويات ضرورة وطنية عاجلة.
5. ضرورة استثمار موجة التضامن الدولي لتوجيه ضغط فعّال على الاحتلال، والتصدي للشراكة الأمريكية المباشرة في العدوان، واستمرار الحراك العالمي من أجل وقف الحرب، ومنع تزويد الاحتلال بالسلاح، وتعزيز حملات المقاطعة والعقوبات الدولية، كما تصبح مهمة ملاحقة ما يُسمى «شركة المساعدات الأمريكية» كذراع إرهابي للإبادة الصهيونية والأمريكية على أجندة أحرار العالم، وكل المتضامنين والحقوقيين البرلمانيين.
6. لتتحد الأمة العربية وتتضافر جهودها، مع استثمار طاقاتها واستخدام كل أوراق القوة الدبلوماسية والسياسية والشعبية وسلاح النفط لإفشال مشروع «إسرائيل الكبرى» الذي أطلقه الاحتلال، وأن وقف حرب الإبادة على غزة وصد العدوان في الضفة يشكلان أولى الطلقات في جسد هذا المشروع وصولاً إلى هزيمته ودحره.
7. إن دعم صمود أبناء شعبنا في قطاع غزة في ظل حرب الإبادة المستمرة مسؤولية وطنية مشتركة، وتتحمّل الجهات المسؤولة في غزة إلى جانب السلطة الوطنية المسؤولية الأكبر في ذلك، وأن تصعيد الاحتلال وتهديده باقتحام مدينة غزة ومحاولته فرض التهجير يتطلب تعزيز التكافل الشعبي والاجتماعي بين جميع مكونات الشعب لضمان الصمود الدائم في مواجهة المخاطر والحرب المستمرة.
8. إن مواصلة دعم الأسرى والأسيرات في سجون الاحتلال مسؤولية وطنية وأخلاقية، باعتبارهم طليعة المقاومة وصوتها الحر، ولإبراز معاناتهم والانتهاكات التي يمارسها الاحتلال بحقهم.

تجدد الجبهة الشعبية العهد للشهيد القائد الكبير أبو علي مصطفى ولكل شهداء فلسطين بأن تبقى وفية لمبادئهم، مستمرة في المقاومة المتطورة والمتصاعدة، حتى تحقيق أهداف شعبنا في التحرير والعودة، وإقامة دولة فلسطين من نهرها إلى بحرها وعاصمتها القدس.

المجد للشهداء.. الحرية للأسرى.. والشفاء العاجل للجرحى
النصر لشعبنا ومقاومته وغداً سينحسر الضَباب عن التلال
وإننا حتمًا لمنتصرون

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين
المكتب السياسي - 26 آب/أغسطس 2025

على طريق القدس..
الجبهة الشعبية
تودع شهداءها القادة الأبطال

شيّعت جماهير شعبنا الفلسطيني في مخيم اليرموك بدمشق جثماني شهيدي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، القائدين أبو خليل وشاح عضو اللجنة المركزية، ومفيد حسن القائد الميداني، اللذين ارتقيا إثر عملية اغتيال نفّذتها طائرات العدو الصهيوني يوم الخميس 2025/8/7 على طريق المصنع قرب الحدود اللبنانية – السورية.

وقد انطلق موكب التشييع، بعد ظهر السبت الموافق 2025/8/9، من أمام مستشفى المجتهد باتجاه جامع الماجد، قبل أن يوارى الشهيدان الثرى في مقبرة الشهداء بمخيم اليرموك، وسط حشود جماهيرية كبيرة من أبناء شعبنا وكوادر الجبهة وممثلي القوى والفصائل الفلسطينية والسورية، الذين رفعوا الأعلام الفلسطينية ورايات الجبهة الشعبية مردّدين هتافات منددة بالعدوان الصهيوني.

إلى ذلك أكد الرفيق عمر مراد عضو المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أن الشهيدين البطلين قضيا على طريق القدس وفلسطين، وأنهما جسدا باستشهادهما قيم البطولة والفداء، وأن اغتيال قادة المقاومة لن يثني الشعب الفلسطيني عن مواصلة طريق النضال حتى التحرير والعودة.

وختم الرفيق عمر مراد كلمته بالقول: «عذرا يا أهلنا في غزة، فإذا كنا لا نستطيع أن نقدم لكم الماء والغذاء، فإننا نقدم لكم دمنا، ودماء شهدائنا الأبطال على طريق تحقيق النصر واستعادة الحق الفلسطيني.

وأقامت الجبهة في دمشق مجلس عزاء وتبريك يومي الأحد والأثنين 10-2025/8/11 حضره أعضاء المكتب السياسي والقيادات الوطنية، إلى جانب وفود من الفصائل الفلسطينية والسورية وفعاليات ثقافية وإعلامية واجتماعية، حيث جرى التأكيد على مكانة الشهيدين ودورهما في مسيرة المقاومة.

كما أقامت الجبهة الشعبية مجلس عزاء للشهيدين في عدد من المخيمات الفلسطينية في سورية منها مخيم النيرب بحلب، بحضور ممثلين عن فصائل المقاومة الفلسطينية وعدد من الشخصيات الاعتبارية. وألقى ممثلو قوى المقاومة عدة كلمات أشادت بالروح الكفاحية التي تميز مناضلي الجبهة الشعبية وبسالتهم، وأن شهداءهم هم مشاعل نور على طريق القدس وطريق تحرير فلسطين.

كما أقامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في لبنان حفل تأبين للشهيدين القائدين، بمشاركة أعضاء من المكتب السياسي واللجنتين المركزية العامة والفرعية وقيادة الجبهة في لبنان، إضافة إلى ممثلين عن الفصائل الفلسطينية والأحزاب اللبنانية والقوى الوطنية والإسلامية، وشخصيات سياسية وثقافية وإعلامية.

وألقى الرفيق مروان عبد العال عضو المكتب السياسي كلمة الجبهة الشعبية مؤكدًا أن اللقاء يحمل الوفاء للشهداء في غزة وكل فلسطين، وأشاد بتضحية الرفيقين الشهيدين أبو خليل ومفيد حسن اللذين نذرا حياتهما للفكرة النبيلة التي لا تموت، فالمقاومة فكرة والفكرة خالدة، وأوضح أن جوهر الفكرة ثلاثي: أن تعرف نفسك كفلسطيني حامل قضية، أن تملك القدرة على الرفض وقول «لا» للاحتلال، وأن تظل واقفًا لأن الزمن الفلسطيني يُقاس بالمواقف لا بالسنوات. ووجه ثلاث رسائل: الحرب على الوجود لا على السلاح، معركة المصطلحات جزء من التحرر، والحل عند العدو ليس السلام بل الإبادة. وختم شاكرًا الحضور ومؤكدًا أن دماء الشهداء باقية وأن النصر آتٍ بالصمود والمقاومة.

محمد خليل وشاح
«أبو خليل وشاح»
شهيداً على طريق القدس

تصريح صحفي

الجبهة الشعبية: تحقيق «سي بي إس نيوز» يفضح التورط الأمريكي المباشر في مصائد الموت ضد أبناء شعبنا

إن ما كشفته شبكة «سي بي إس نيوز» حول تورط متعاقدين أمريكيين إلى جانب جيش الاحتلال الصهيوني في إطلاق النار على المدنيين الفلسطينيين المُجوعين الذين كانوا يحاولون الحصول على المساعدات الإنسانية في قطاع غزة، يُشكّل دليلاً جديداً وقاطعاً على التورط الأمريكي المباشر في مصائد الموت التي حصدت آلاف الضحايا من الشهداء والجرحى والمفقودين.

تثبت هذه المؤسسة المسماة «مؤسسة غزة الإنسانية» مجدداً أنها ذراع إرهابي إجرامي من أدوات الإبادة الجماعية، وتأكيد إضافي على أن الإدارة الأمريكية بقيادة الرئيس ترامب متورطة حتى أخمص قدميها، وعن سابق إصرار، في الجرائم الصهيونية، وفي سياسة التجويع والإبادة بحق أبناء شعبنا الفلسطيني.

لقد آن الأوان للعالم أن يستيقظ من سباته وصمته، وأن يتحمل مسؤوليته في مواجهة الطغمة الإجرامية في البيت الأبيض، التي تشارك في واحدة من أبشع الحروب في العصر الحديث، والتي تستهدف بشكلٍ منهجي مقومات الحياة لشعبٍ مدني محاصر في بقعة صغيرة، دون بنية تحتية، وتُستخدم فيها كل أسلحة القتل الجماعي.

ندعو لضرورة فتح تحقيق دولي عاجل في هذه الجرائم، واستخدام اعترافات المتعاقد الأمريكي واللقطات التي بثتها الشبكة لعمليات إطلاق النار على المجوعين في مواقع هذه المؤسسة الإجرامية كأداة إدانة ضد هذه المؤسسة المميتة وضد المسؤولين الأمريكيين والصهاينة واعتبارهم مجرمي حرب.

نُحمّل الإدارة الأمريكية المسؤولية المباشرة عن الجرائم المرتكبة بحق المُجوعين، ونطالب أحرار أمريكا بالتحرك لكبح جماح إدارة ترامب الإجرامية التي تواصل منح الغطاء والدعم غير المحدود للكيان الصهيوني ولقادته المجرمين وعلى رأسهم مجرم الحرب نتنياهو.

ندعو المؤسسات الدولية والحقوقية لتصنيف «مؤسسة غزة الإنسانية» ككيان إرهابي ومحاسبة كل من تورط في تمويلها أو دعمها.

في الهدف

غزة..
ما بعد الموت بقليل

ليس عابراً

ذلك الخبر الذي يقول إن فناني غزة يحرقون لوحاتهم ثمناً لرغيف من الخبز، ولتتحول الأحبار إلى دماء جديدة في أجساد الجوعى، لنعود لسؤال حارق في زمن المقتلة والتجويع الممنهج، جهر به أحد كتّاب غزة وأدباؤنا هو (يسري الغول)، حينما قال: يا الله كيف سنكتب عن الألم في عيون أطفالنا، فهل تحترق الكلمة أيضاً لتضيء بالوعي عقول من تبقى من الأحياء، الذين لا ينتظرون الموت، بل يلعبون معه، فالموت في وعيهم قد أصبح مألوفاً على نحو أو آخر، لا تحتاج غزة -إذن- إلى فائض اللغة ومتعاليات الألم، بقدر ما تحتاج إلى المعنى طليقاً من حبر الخواتيم واشتباك الظل والنور في اللوحة، ولا عزاء لأجناس الإبداع والفنون التي لن تقف محايدة إزاء ما يجري من -قصص موت معلن- ومازالت المخيلة الأدبية تسعى في إثر التقاط معادل ذلك، لتذهب إلى معنى المعنى، وإلى جملة لم تُكتب بعد في ذلك السطر التراجيدي الكثيف -غزة- وأخواتها، اللاتي يبتعدن عنها مسافة خفقة في القلب، وليس في القول ما يعني امتداح الألم أو التعالي عليه، لأنه ذلك الألم الذي يختمر في وعي أهل غزة/ فلسطين، سيجعل منه ذلك الوعي المكين الذي يرتقي برعشة المأساة إلى ما يشبه إلياذة جديدة يكتبها الشعب الفلسطيني على طريقته الفلسطينية الخالصة، ولتصبح في غير زمن قوة المثال التي تفسر ضحكات الأطفال المختلطة بدموعهم، وصرخات الثكالى المرتبطة برباطة جأشهم، وبسالة صلاة الشيوخ على شهدائهم الأحياء، فليس ما يجري محض موت، لنقل إنها أفعال الارتقاء بحكمة شجرة ظلت ترد الريح عن البيوت بأغصانها السامقة، وبحكمة لون تلك اللوحة التي أحرقها صانعها أملاً بصنع الرغيف، فالرغيف قضية وأكثر، كما هو الإنسان قضية وأكثر، ليس رقماً في عداد الموت، بل يذهب الشهداء أقماراً في سماء غزة تضيء ليل العجز، وتبشّر بنهارات جديدة يصرخ فيها أطفال ولدوا في حمأة الجحيم، لكنهم كبروا بسرعة من أجل سردية سيعرفها التاريخ وستتلوها الجغرافيا، وتضيف لخيال المبدعين حرية وأكثر.

الذكرى ال(24) لاستشهاد أبو علي مصطفى:
تجربته النضالية ثروة فكرية يسترشد بها لإدامة الكفاح حتى التحرير

عليان عليان ـ باحث وكاتب سياسي ـ الأردن

الكتابة عن الأمين العام للجبهة الشعبية أبو علي مصطفى في ذكرى استشهاده مهمة شاقة بحكم تعدد مفاتيح شخصيته السياسية والفكرية والتنظيمية والعسكرية والإنسانية، وبحكم مناقبه الشخصية الغنية، وبحكم أنه كان قائداً استثنائياً في كافة المراحل منذ اعتقاله عام 1957 لمدة خمس سنوات في معتقل الجفر الصحراوي، مروراً بدوره القيادي في التحضير للكفاح المسلح قبل نكسة 1967، مروراً بدوره القيادي المركزي كنائب للأمين العام للجبهة الشعبية على مدى ثلاثة عقود، وصولاً لدوره القيادي الرئيس كأمين عام للجبهة الشعبية بعد استقالة الحكيم الدكتور جورج حبش، من موقع الأمانة العامة للجبهة عام 2000،حيث لعب بشخصيته الهادئة والمتزنة، دور البلدوزر عل الصعد السياسية والكفاحية والتنظيمية والفكرية وعلى صعيد الوحدة الوطنية والعلاقات مع قوى التحرر في لبنان والوطن العربي.

دوره في إعادة بناء التنظيم وتفعيل الانتفاضة

وأخيراً دوره الريادي والقيادي في إعادة بناء التنظيم في الضفة الغربية، تنفيذاً لقرار اللجنة المركزية للجبهة، ودوره الرائد في قيادة انتفاضة الأقصى بتنسيق عال مع أمين سر حركة فتح مروان البرغوثي بعد رفعه شعاره التاريخي « عدت لأقاوم»، ما قض مضاجع العدو وهو يراه دائم الحركة من أقصى شمال الضفة إلى أقصى جنوبها، في إطار عمله التنظيمي والتعبوي والكفاحي لتفعيل الانتفاضة، في إطار الجمع بين البعد الجماهيري والبعد العسكري بعد أن باشر العدو بإطلاق النار على جماهير الانتفاضة .وهذا الدور الاستثنائي الكفاحي، جعله المطلوب الأول من القيادات الفلسطينية للاغتيال على يد الاحتلال، وكان قد تنبأ بذلك قبل استشهاده، عندما قال قبل ساعتين من استشهاده «شارون يُريد اصطيادي ولكن، كيف ومتى؟ لا أدري!».

قائد استثنائي

في ذكرى استشهاده لا نبالغ إذ نقول : إن «أبو علي مصطفى» هو من أهم قيادات العمل الوطني الفلسطيني، الذي سيظل اسمه خالداً في سفر الثورة الفلسطينية والكفاح من أجل تحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني، والذي تنطبق عليه كافة السمات القيادية والنضالية منذ انتسابه لحركة القوميين العرب في خمسينيات القرن الماضي، وهو في ريعان شبابه (17) عاماً، ومنذ دخوله المبكر في تجربة الاعتقال في معتقل الجفر الصحراوي (1957- 1962) وتبوأه بعد ذلك قيادة منطقة الشمال للحركة في الضفة الغربية، ودوره في بناء الركائز العسكرية الفدائية الأولى للحركة عبر منظمتي « شباب الثأر» و «أبطال العودة»، بعد أن استجابت قيادة الحركة لطلب الفرع الفلسطيني فيها بشأن التحضير للكفاح المسلح، ومن ثم تبوأه موقع المسؤول العسكري الأول للجبهة الشعبية بعد حرب حزيران 1967، وتفرغه الكامل لبناء التنظيم في الداخل، وتبوأه موقع نائب الأمين العام للجبهة عام 1972، وصولاً لتوليه موقع الأمين العام للجبهة في مؤتمرها الوطني السادس عام 2000م.

مسيرة طويلة حافلة بالتضحيات للقائد الرمز، اتسمت بالنضال الدؤوب لتحقيق الهدف المركزي للجبهة الشعبية وللثورة الفلسطينية، سواءً من خلال قيادته للعمل في الداخل، أو من خلال قيادته للعمل العسكري في الأغوار وتوجيه الضربات النوعية للعدو في الضفة الغربية وقطاع غزة.

وعندما نستحضر مواقفه في مختلف محطّات الثورة، لا نملك سوى أن نؤكّد على راهنيتها لسببٍ رئيسي: هو التزامه الاستراتيجيّ في إطار الجبهة الشعبيّة بنهج تحرير كامل التراب الوطني الفلسطينيّ.

حقائق رئيسة في فكر أبو علي مصطفى السياسية

عشيّةَ توقيع اتّفاقيّات أوسلو، قال أبو علي مصطفى في خطابٍ له في مخيّم اليرموك في ذكرى النكبة ما يلي: منذ (45) عامًا كانت هناك حقائقُ ثلاث تتكرّس دومًا في مسار العمل الوطنيّ الفلسطينيّ، سواءً في تاريخ الثورة الفلسطينيّة المعاصرة أو ما قبله.

هذهِ الحقائقُ الثلاثُ شدّد عليها في مرحلة أوسلو وما بعدها حتى لحظةِ استشهاده وهي:

أوّلًا: أنّه لا يمكن أن يكون تعايش مع العدوّ الصهيوني، ومشروعه الإمبرياليّ في أرض فلسطين، مهما كانت الصعوبات والظروف، التي ما تزال تحول دون التخلّص من هذا الكيان ومشروعه.

ثانيًا: إنّ التواصل الاستعماريّ منذ ما قبل 1948، وحتّى اليوم، ملخّصٌ في دور زعيمة الإمبرياليّة العالميّة « الولايات المتحدة «وارتباطها مع المشروع الصهيوني، في سياق جدلي لا فصل بينهما، ومن يريد أن يكون مناهضًا للمشروع الصهيونيّ، لا يستطيع إلا أن يكون مناهضاً للمشروع الإمبريالي، ومن يريد أن يكون عدواً للإمبرياليّة ومشاريعها في المنطقة عليه أن يكون صادقًا مع نفسه في عدائه للمشروع الصهيونيّ.

ثالثًا: إنّ الترابط بين الوطنيّ والقوميّ، وبين الخاصّ والعامّ ترابطٌ مصيريّ، فالخطرُ الذي يهدّد شعب فلسطين، هو خطرٌ يهدّدُ مستقبلَ الأمّة العربيّة، حاضرها ومستقبلها وجغرافيتها وثروتها، وكل ما يعنيها على صعيد التقدّم والحضارة، فلا فكاك بين الترابط بين الوطنيّ والقوميّ في معركة المصير.

راهنية هذه الحقاق

هذهِ الحقائقُ الثلاثُ تظلُّ راهنة، ولا يمكن دحضها من قبل فريق أوسلو، فالقيادةُ المتنفّذة في المنظمة وأدواتها، سعت إلى دحض الحقيقة الأولى وإضعافها عبر إشاعة الوعي الزائف بثقافة السلام، حيث جاءت وقائع الحياة العنيدة وقانون المقاومة، لتكشفَ بؤس الرهان على خيار التسوية الأوسلوي، الذي مكّن العدوّ من التمدّد في الضفة بما يزيد عن 400 مستوطنةٍ وبؤرةٍ استيطانيّة، ومن قطع شوطٍ طويلٍ في تهويد القدس على الصعيدين الديمغرافي والاستيطاني، وإقامة دولةٍ للمستوطنين يفوق عدد المقيمين فيها 850 ألف مستوطن، نصفهم في الضفّة والنصف الآخر في القدس.

أمّا الحقيقةُ الثانيةُ حول العلاقة العضويّة بين الإمبرياليّة والصهيونيّة فهما حقيقتانِ موضوعيّتانِ تؤكّدهما حقائق الواقع المعاش وحقائق الماضي، عندما شكلت الإمبريالية البريطانية حاضنةً لإقامة الكيان الصهيوني، لتليها الولايات المتحدة في احتضانها المشروعَ الصهيونيّ، اعتبارًا من مؤتمر بلتيمور الصهيوني عام 1942، الذي نقلت فيه العصابات الصهيونية تحالفها الرئيسي من الإمبريالية البريطانية إلى الإمبريالية الأمريكية.

أمّا الحقيقةُ الثالثةُ المناهضةُ للطرح الإقليمي للقيادة المتنفذة ولليمين الفلسطيني، فتؤكّدها حقيقةُ قضيّة فلسطين بأنّها قضيّةٌ عربيّة، وأنّ الشعب الفلسطيني جزءٌ لا يتجزّأ من الأمّة العربيّة، وأنّ المشروع الصهيوني لا يستهدف فلسطين فحسب، بل الوطن العربي بأكمله، وهذا ما أكّدته بوضوح وثائقُ مؤتمر «كامبل بانرمان» عام 1907 بين مجموع الدول الاستعمارية.

عناوين مركزية في تجربة ودور أبو علي مصطفى

من يقرأ تجربة القائد أبو علي مصطفى، منذ دوره المركزي في تأسيس الجبهة الشعبية وشغله موقع نائب الأمين العام ثم الأمين العام للجبهة، يصل إلى العناوين والاستخلاصات التالية:

أولاً: أنه كان رائداً من رواد الوحدة الوطنية، وكان رافعة أساسية من روافعها، وكانت تجربته في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، مثالاً يحتذى، في الحرص على الوحدة على قاعدة الالتزام بالثوابت الوطنية، فهو رغم التزامه بمبدأ الجبهة الشهير «وحدة – نقد – وحدة» إلا أنه كان يتصدى بقوة لأية ممارسات ذات طابع انحرافي أو انتهازي.

ثانياً: وفي إطار التزامه بالنهج الأيديولوجي، التزم بشكل صارم بالأدبيات التنظيمية اللينينية الخاصة بالحياة الداخلية للجبهة، بعد ربطها أيضاً بالواقع الفلسطيني ببعديه الوطني والطبقي، فهو بالإضافة لالتزامه بمبدئي القيادة الجماعية والنقد والنقد الذاتي، التزم بشكل صارم بمبدأ المركزية الديمقراطية، في تنفيذ المهمات النضالية والسياسية بعد بلورة الموقف السياسي في إطار ديمقراطي، وكان أشد المحاربين للشللية التنظيمية والانتهازية في العمل الحزبي الوطني، وتعامل مع كافة رفاقة على قدم المساواة سواء كانوا متفقين أو مختلفين معه في القضايا التكتيكية.

ثالثا: رفضه الحاسم والجازم لاتفاقيّات أوسلو وما تركته من آثارٍ سلبيّةٍ وخطيرةٍ على القضيّة وعلى الوحدة الوطنيّة الفلسطينيّة، وتأكيده الدائم على التناقض الرئيسي مع العدوّ الصهيوني، مشيرًا إلى أنّ طبيعةَ هذا التناقض حقيقةٌ موضوعيّةٌ لم تخترعها الجبهةُ الشعبيّةُ أو تعيد اكتشافها؛ لأنّ التناقض قائمٌ من طبيعة العدوّ نفسه، من ترسانته الحربيّة الهائلة التي يعزّزها باستمرار، ومن أطماعه في المنطقة التي لا يحاول إخفاءها، وأن هذا التناقض لا ينتهي إلا بتحرير فلسطين،وإنهاء وجود الكيان الصهيوني الغاصب لفلسطين.

رابعاً: وفي السياق النظري الفكري، من حيث الالتزام والاسترشاد بالماركسية اللينينية، فقد تمكن أبو علي مصطفى من قطع شوط كبير في هضم النظرية، وتطبيقها على واقع القضية الفلسطينية بعيداً عن الفذلكات النظرية التي امتاز بها البعض، وبعيداً عن الجمل الثورية، وكان له أسلوبه الخاص في طرح القضايا النظرية، على الواقع الوطني والقومي، ومؤكداً على الدوام على ضرورة الربط الجدلي بين الخاص الوطني والعام القومي.

وأخيراً يفتقد الشعب الفلسطيني هذا القائد الوطني والقومي والأممي في هذه المرحلة من تاريخ النضال الفلسطيني، مرحلة طوفان الأقصى، التي ترجمت بشكل دقيق قناعة أبو علي مصطفى، وإستراتيجية الجبهة الشعبية التي أكدت دائماً على تحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني، وأن الوحدة الوطنية المستندة إلى برنامج المقاومة، شرط أساسي لإنجاز عملية التحرير.

أزمة المياه في قطاع غزة:
تهديد خطير للإنسانية

صفي الله الحسيني ـ باحث دكتوراه، جامعة دلهي

تعد أزمة المياه من أخطر مظاهر الكارثة الإنسانية التي يشهدها قطاع غزة حالياً. فعلى الرغم من أن نقص المياه مشكلة قائمة منذ زمن طويل، إلا أن الحرب التي اندلعت في 7 أكتوبر 2023 فاقمت هذه الأزمة إلى حدٍّ بالغ. فقد أدى القصف والحصار الإسرائيلي إلى تدمير ما يقرب من ٪80 من البنية التحتية لإمدادات المياه، مما اضطر السكان إلى السير يوميًا لعدة كيلومترات بحثاً عن بضعة لترات من المياه المالحة أو الملوثة.

لم تقتصر آثار أزمة المياه على معاناة العطش فحسب، بل تسببت أيضًا في مخاطر صحية جسيمة. فبسبب المياه الملوثة ونقص أنظمة الصرف الصحي، تنتشر الأمراض بسرعة. وقد أفادت منظمة اليونيسف أن ٪100 من المياه الجوفية في غزة أصبحت غير صالحة للشرب. ومن ناحية أخرى، يتطلب تشغيل مضخات المياه وجود الكهرباء، والتي انقطعت بالكامل بسبب الحرب، مما جعل هذه المضخات غير صالحة للعمل.

إن أزمة المياه في غزة لا تقل فتكاً عن نقص الغذاء. ولكن من المؤسف أن هذه المأساة لا تحظى بالاهتمام الكافي في الإعلام العالمي أو في النقاشات الدولية. وقد صرّح متحدث باسم اليونيسف قائلاً: «لا ينبغي تسييس المياه، تمامًا كما لا ينبغي تسييس الغذاء».

أما المساعدات المحدودة التي تقدمها المنظمات الإغاثية من مياه الشرب، فهي لا تفي حتى بالحد الأدنى من الاحتياجات. ففي بعض المناطق تم تركيب صنابير مياه، وفي مناطق أخرى يتم توزيع المياه عبر الشاحنات، ولكن كل ذلك لا يكفي.

وفي هذا السياق، يجب على المجتمع الدولي أن يقدّم المساعدة العاجلة لإعادة بناء البنية التحتية للمياه في غزة، وأن يضمن فتح ممرات إنسانية محايدة لتقديم الإغاثة. فالماء حق من حقوق الإنسان، وحرمان الناس منه جريمة إنسانية فادحة.

صرخة من خلف القضبان:
الأسرى الفلسطينيون
بين مطرقة الاحتلال وسندان الصمت الدولي

د. سعيد سلاّم - مدير مركز فيجن للدراسات الإستراتيجية

الآثار المدمرة: حصاد التعذيب المادي والنفسي على الأسرى

إن التعذيب الممنهج داخل المعتقلات الإسرائيلية لا ينتهي بانتهاء فترة الاعتقال؛ بل يترك آثارًا جسدية ونفسية مدمرة وطويلة الأمد، تلازم الأسرى حتى بعد الإفراج عنهم، لتُصبح ندوبًا غائرة في أجسادهم وأرواحهم. هذه الآثار هي الدليل المادي على فظاعة ما يحدث خلف القضبان.

فقد عانى كثير من الأسرى من فقدان حاد في الوزن يتراوح بين 20-30 كيلوغراماً جراء نقص الطعام المتعمد والحرمان من العلاج الضروري. كما تفشت بينهم أمراض جلدية مثل الجرب والحروق الناتجة عن الاكتظاظ الشديد، وسوء النظافة، وغياب أبسط مستلزمات النظافة كالصابون والمناشف. هذا الإهمال المتعمد يهدف إلى إضعاف الأسرى جسدياً ومعنوياً.

إلى جانب ذلك، أدت الاعتداءات الجسدية الوحشية إلى كسر العظام والاضطرابات الجسدية الخطيرة، حيث تسببت الضربات المبرحة بكسور في الأضلاع واليدين والعمود الفقري، فضلاً عن ظهور حالات مثل دوالي الخصيتين بسبب الاعتداء الجسدي المتكرر. هذه الإصابات الجسدية تُعيق حياتهم بشكل دائم بعد التحرر.

ولعل الأثر الأعمق يظهر في الاضطرابات النفسية المزمنة؛ فالعديد من الأسرى المفرج عنهم يعانون من الاكتئاب واضطراب ما بعد الصدمة (الذي يصيب أكثر من 60% منهم)، بالإضافة إلى صعوبات بالغة في النوم، تستمر لسنوات طويلة بعد خروجهم من المعتقلات. هذه المعاناة النفسية الصامتة تُكمل دائرة التعذيب حتى بعد انتهاء الاعتقال.

وتؤكد شهادات جماعية وثّقتها وكالة Palestine Chronicle بشكل رمزي هذه النتائج المروعة، حيث قالوا: «لقد حولونا لفريسة في أيدي هؤلاء الوحوش، الذين يستمتعون بصراخنا وجوعنا ومرضنا. لا تصدق أننا ما زلنا على قيد الحياة». وقد جاءت تصريحات أشرف المحتسب لتؤكد هذا الواقع المرير، بوصفه الزنازين بأنها أصبحت «معسكرات تعذيب» حسبما وصفها تقرير B’Tselem بعد استجواب 55 محتجزًا سابقًا، مما يضفي بعداً مؤسسياً لهذه الانتهاكات.

شهادات طبية وقانونية

روايات رسمية وأدلة صادمة تؤكد الجريمة الممنهجة

تُقدم الشهادات الطبية والقانونية أدلة دامغة على أن ما يحدث داخل المعتقلات ليس مجرد تجاوزات فردية، بل هو جزء من سياسة ممنهجة تُدار بوعي كامل.

فقد روى طبيب زار معتقل سدي تيمان أنهم «احتجزوا المرضى عراة، مقيدين ونظام طبي غير أخلاقي»، وقد طالب بإغلاق المعتقل، لكن المحكمة العليا لم تستجب لمطلبه، مما يسلط الضوء على الفشل القضائي الصارخ في معالجة هذه الانتهاكات وحماية حقوق الأسرى. كذلك، تؤكد التقارير الرسمية للمجلس الأعلى للمعتقلات الإسرائيلي على التجميع الجماعي للأسرى، وقمع حقوقهم، وإنقاص الحماية القانونية لهم عمداً من أجل «خلق ردع».

هذه التقارير الرسمية تُشير بوضوح إلى أن هذه الممارسات القاسية ليست حوادث عارضة، بل هي جزء لا يتجزأ من سياسة معلنة تهدف إلى إذلال الأسرى وكسر إرادتهم، مما يجعل الدولة مسؤولة بشكل مباشر عن هذه الجرائم.

مواقف سياسية وعالمية: دعوات خجولة أمام واقع مرير يُحتّم التحرك الجاد

على الرغم من الإدانات المتكررة من منظمات ومسؤولين دوليين، إلا أن التحرك الفعلي لمعالجة قضية الأسرى الفلسطينيين لا يزال قاصرًا عن حجم الانتهاكات المروعة، مما يتطلب ضغطًا دوليًا أكبر وأكثر فاعلية. هذا الصمت المطبق يشجع الاحتلال على مواصلة انتهاكاته دون رادع:

فقد دعا جان بول لو كوك، النائب الفرنسي، في مايو 2025 الاتحاد الأوروبي إلى إعادة تقييم التعاون العسكري مع إسرائيل، في خطوة تُعد بادرة مهمة على الصعيد الأوروبي. كما علّق البرلمان الجنوب أفريقي التعاون الأمني مع إسرائيل بالإجماع في يونيو 2025 تضامنًا مع الأسرى، في خطوة ذات دلالة سياسية قوية تُبرز رفض التواطؤ مع هذه الانتهاكات. وعلى صعيد الأمم المتحدة، طالب فولكر تورك، المفوض السامي لحقوق الإنسان، بتحقيق مستقل ووصول الصليب الأحمر ومراقبي الأمم المتحدة إلى المعتقلات، مؤكدًا على ضرورة المساءلة كخطوة أولى نحو العدالة. وقد قارنت مراكز أبحاث دولية الانتهاكات في المعتقلات الإسرائيلية بظروف «غوانتانامو» و«أبو غريب»، مما يعكس مدى فظاعتها ويضعها في سياق جرائم دولية بشعة تتطلب استجابة حاسمة.

من جانب المؤسسات الفلسطينية، صرحت وزارة الأسرى في غزة بأن الاحتلال الإسرائيلي يحتجز أكثر من 9000 أسير فلسطيني، بينهم مئات الأطفال والنساء، في ظروف وصفتها بأنها «لا إنسانية وتتنافى مع الاتفاقيات الدولية». وذكرت الوزارة أن عددًا من الأسرى المحررين تحدثوا عن حالات تعذيب نفسي وجسدي، وسوء تغذية متعمد، ومنع دخول الأدوية للأسرى المرضى. في السياق ذاته، طالب نادي الأسير الفلسطيني، والعديد من مؤسسات حقوق الإنسان الدولية، بضرورة فتح تحقيق دولي مستقل في ظروف اعتقال الأسرى الفلسطينيين، وإيفاد لجان تقصّي حقائق من قبل الأمم المتحدة والصليب الأحمر، لضمان الكشف عن الحقيقة ومحاسبة المتورطين.

القانون الدولي: نصوص صماء في وجه انتهاكات لا تتوقف

إن ممارسات الاحتلال الإسرائيلي داخل المعتقلات لا تُشكل انتهاكات عرضية، بل هي خرق صارخ وممنهج للعديد من المعاهدات والقوانين الدولية التي وُضعت خصيصًا لحماية حقوق الإنسان في النزاعات المسلحة، لتكشف عن فجوة عميقة بين الالتزامات الدولية والواقع المرير الذي يعيشه الأسرى.

تحظر اتفاقيات جنيف (1949)، بشكل قاطع، التعذيب والمعاملة القاسية واللاإنسانية والمهينة للأسرى، وتُلزم الدولة القائمة بالاحتلال بضمان الرعاية الصحية الكافية لهم. ورغم هذه البنود الواضحة، تُظهر الشهادات اليومية تجاوزات صارخة لهذه الاتفاقيات. كما أن نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية (1998) يصنف التعذيب والاغتصاب وغيرهما من أشكال العنف الجنسي، فضلاً عن الاحتجاز غير القانوني، كجرائم ضد الإنسانية عندما تقع كجزء من سياسة ممنهجة أو واسعة النطاق، وهو ما ينطبق تمامًا على ممارسات الاحتلال.

علاوة على ذلك، تمنع اتفاقية مناهضة التعذيب وغيره من ضروب المعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو المهينة (1984) التعذيب بشكل مطلق، وتُلزم الدول الأطراف بالتحقيق الفوري والفعال في جميع ادعاءات التعذيب وملاحقة مرتكبيه، وتقديم تعويضات عادلة للضحايا. غير أن الواقع يكشف عن إفلات تام من العقاب لمرتكبي هذه الجرائم. ويجرم القانون الدولي العرفي التعذيب بلا استثناءات، ويُعتبر جريمة دولية لا تسقط بالتقادم، مما يعني أن المسؤولية عن هذه الأفعال تبقى قائمة بغض النظر عن مرور الزمن.

وتُجدر الإشارة إلى أن قانون «المقاتلين غير الشرعيين» الإسرائيلي ينتهك القانون الدولي بوضوح، حيث يسمح باحتجاز فلسطينيين من غزة دون ضمانات قانونية تضمن حقوقهم الأساسية. هذا القانون يفتح بابًا واسعًا للمزيد من الانتهاكات في ظل غياب الرقابة والمساءلة الفعالة، ويُشرعن احتجاز أفراد دون أي مسوغ قانوني دولي، مما يزيد من معاناة الأسرى ويُعقد الجهود الرامية لمحاسبة المتورطين.

السياق التاريخي: جذور الانتهاكات المتجذرة في عقود من الاحتلال

إن ما يحدث اليوم في معتقل سدي تيمان ليس وليد اللحظة أو مجرد حوادث عارضة؛ بل هو امتداد طبيعي لنمط ممنهج من الانتهاكات الموثقة منذ عقود في معتقلات أخرى مثل عسقلان، مجدو، والنقب، والتي بدأت تتكشف بوضوح منذ الانتفاضتين الفلسطينيتين الأولى والثانية. فتقارير اللجنة الدولية للصليب الأحمر، التي تعود إلى التسعينيات، حذّرت بوضوح من تحول هذه الممارسات من حوادث فردية إلى سياسة مؤسساتية ممنهجة لا تخضع لأي مساءلة حقيقية. هذا التجاهل المتعمد للمحاسبة هو ما يؤكد أن

الإفلات من العقاب هو المحرك الرئيسي لاستمرار هذه الجرائم البشعة، ويُرسخ ثقافة الإفلات من العقاب التي تسمح بتكرارها وتفاقمها.

الأثر الإنساني والسياسي: قضية جوهرية لسلام مستدام

إن قضية الأسرى الفلسطينيين تتجاوز كونها مجرد قضية حقوق إنسان فرعية يمكن معالجتها بمعزل عن السياق الأوسع؛ بل هي قضية جوهرية تُعيق أي مسار حقيقي نحو السلام المستدام في المنطقة. فالطريقة التي يتعامل بها الاحتلال مع الأسرى لا تعكس سوى مدى التزامه الزائف بالعدالة والمبادئ الإنسانية التي يتبجح بها، وتُظهر تناقضًا صارخًا بين ادعاءاته وممارساته الوحشية على أرض الواقع. وقد دعا تقرير الأمم المتحدة الأخير إلى المساءلة كشرط أساسي لتحقيق الاستقرار في المنطقة، مشيرًا إلى أن الإفلات من العقاب يُغذّي استمرار الانتهاكات، ويُرسّخ ثقافة الظلم والإفلات من أي محاسبة، مما يجعل السلام مجرد حلم بعيد المنال ما لم تتحقق العدالة الكاملة للأسرى.

جذور الانتهاكات: الفكر الصهيوني المتطرف وإفلاته من العقاب

إن الجرائم المرتكبة بحق الأسرى الفلسطينيين داخل معتقلات الاحتلال، بما في ذلك الاغتصاب وغيره من أشكال العنف الشديد، ليست مجرد أفعال فردية صادرة عن جنود منفردين. بل هي تتجذر في فكر ممنهج يُعزز الكراهية ويدفع باتجاه العنف الأقصى. لقد صدرت فتاوى عن بعض الحاخامات المتطرفين في «إسرائيل» تحث الجنود بشكل صريح على ارتكاب أفعال عنف قصوى ضد الفلسطينيين، بما في ذلك اغتصاب النساء والرجال، وقتل المدنيين من رجال ونساء وأطفال، وهدم البيوت وحرق المزارع. هذه الفتاوى، التي تستند إلى تفسيرات متطرفة وشاذة، توفر غطاءً أيديولوجيًا للممارسات اللاإنسانية، وتساهم بشكل مباشر في تحويلها إلى سياسات مقبولة وراسخة ضمن الأوساط المتطرفة التي تُشكل جزءاً من قيادة الاحتلال.

إن المجرم الحقيقي هنا لا يقتصر على الأفراد الذين ينفذون هذه الأفعال الشنيعة، بل يتعداهم إلى الفكر الصهيوني المتطرف الذي يتغذى على الكراهية العميقة وينادي بالتطهير العرقي. هذا الفكر يتبنى رؤية استعمارية لا ترى في الفلسطينيين بشرًا لهم حقوق أو كرامة، ويتطابق تمامًا مع الفكر النازي البغيض في تبريره للعنف المفرط والممنهج ضد مجموعة عرقية أو دينية معينة، وفي سعيه لإبادة الآخر وتجريده من إنسانيته بشكل كامل.

لقد حان الوقت للعالم أن يدرك هذا الخطر الوجودي وأن يتحمل مسؤوليته التاريخية تجاه هذه الجرائم التي تُرتكب باسم أيديولوجيا متطرفة. يجب على كل الضمائر الحية في العالم أن تُدين وتُجرّم الصهيونية، ليس فقط كحركة سياسية، بل باعتبارها أحد أشكال العنصرية والنازية، تمامًا كما تم تجريم النازية والفصل العنصري. إن السماح لهذا الفكر بالاستمرار يعني السماح بتكرار فصول مظلمة ومؤلمة من التاريخ الإنساني، وهو ما لا يمكن قبوله في عالم يدعي التمسك بقيم العدالة والإنسانية.

في ظل التقاعس الرسمي الفلسطيني المعيب عن مواجهة هذه الجرائم البشعة بالحدة المطلوبة، فإننا نناشد كل المؤسسات والاتحادات والجمعيات والمنظمات والنقابات الحقوقية في العالم، وكل صوت حر يؤمن بالعدالة والإنسانية، لرفع صوته عاليًا دون خوف أو تردد. يجب العمل بجدية للمطالبة والتحرك من أجل تجريم الفكر الصهيوني المتطرف، ومحاسبة كل من يتبناه أو يروّج له. فمثل هذا الفكر يشكل تهديدًا حقيقيًا لا يقتصر على فلسطين وشعبها، بل يطال السلام العالمي والقيم الإنسانية الأساسية التي بُنيت عليها الحضارة البشرية جمعاء.

نداء أخير للضمير العالمي: هل يستيقظ العدل للأسرى الفلسطينيين؟

في ختام هذا التقرير الموجع، ومع كل باب زنزانة يُغلق على أسير فلسطيني، يُفتح بابٌ آخر في الضمير الإنساني العالمي. إن صرخات هؤلاء الأسرى، التي تكسر جدار الصمت، ليست مجرد نداءات يائسة؛ بل هي مطالبة راسخة بالإنصاف والعدالة والكرامة الإنسانية التي سُلبت منهم. يبقى السؤالُ المُلحّ يتردد في أروقة العدالة الدولية وعلى مسامع العالم أجمع: هل ستستيقظ العدالة من سباتها الطويل؟ وهل سيُحاسب في نهاية المطاف من يرتكب هذه الفظائع البشعة باسم فكر متطرف يرفضه كل مبدأ إنساني، وكل قانون، وكل ضمير حي؟ إن الإجابة على هذا السؤال سَتُحدّد ليس فقط مصير آلاف الأسرى، بل مستقبل القيم الإنسانية في عالم يدعي التمدّن والتحضر.

غزة: من الحصار البانوبتيكي إلى النيكرو-سياسة

لمى الشطلي - كاتبة صحفية فلسطينية - سورية

مقدمة

يُوصفُ قطاعُ غزة، بمساحته الصغيرة البالغة 365 كم^2، بأنَّه «أكبر سجن مفتوح في العالم»، تحاصره إسرائيل عبر سياج ومعابر برية وبحرية منذ أكثر من سبعة عشر عاماً. هذا الحصارُ لم يكن مجرد أداة عسكرية بل آلية منهجية لعزل القطاع جغرافياً وبشرياً وتفكيك بنيته المجتمعية بما يتيح السيطرة الكاملة عليه في أي لحظة.

يُهيِّئ هذا الواقعُ مقاربةَ فكرِ ميشيل فوكو حول آليات الضبط والمراقبة التي حللها في كتابه المراقبة والمعاقبة، مع إدماج قراءات نقدية معاصرة من مفاهيم النيكرو-سياسة لأشتيل مبمبي، والهندسة الاستعمارية للمكان عند إيال ويزمان، بالإضافة إلى إعادة قراءة فوكو في سياق الممارسات الاستعمارية كما تقترحها آن لورا ستولر وتيموثي ميتشل.

غزة كسجن بانوبتيكي

يحتلُّ نموذجُ البانوبتيكون موقعاً مركزياً في فكر فوكو، حيث يُراقَب الأفراد دون أن يعرفوا إن كانوا تحت المراقبة في كل لحظة، فيؤدي ذلك إلى تطويع سلوكهم ذاتياً بما يخدم السلطة (Foucault, 1975). كذلك، يوضح فوكو في محاضراته حول السلطة الحيوية (biopower) أن السلطة الحديثة لم تعد تركز فقط على العقاب، بل على إدارة الحياة نفسها من خلال التحكم بالصحة، السكان، والإحصاءات (Foucault, 1975–76)، بينما يُبرز مفهوم الحكومية (governmentality) أساليب حكم الأجساد والسكان عبر إنتاج المعرفة وتوزيع السلطة (Foucault, 1977–78).

في غزة، يمكن تتبع هذا النموذج البانوبتيكي عبر مستويات عدة:

1. التحكم في الحركة والبضائع: فرضت إسرائيل نظام إغلاق صارم لمعابر غزة، مع رقابة شاملة على تدفق الأشخاص

والبضائع، بما يجعل القطاع فضاءً منضبطاً مكانياً وزمنياً (OCHA oPt, 2023).

2. الهوية والسجل السكاني: تقييد لمّ الشمل والتحكم بالهويات القانونية يُحوّل الفرد إلى موضوع مراقب قانونياً، بحيث تصبح الهوية نفسها أداة ضبط للسكان (HaMoked/B'Tselem, 2021).

3. إدارة الموارد الحيوية: من خلال وثيقة «الخطوط الحمراء» (2008)، حدّدت إسرائيل كميات الغذاء المخصصة للقطاع، بالإضافة لتقييدها حصص الكهرباء والمياه المسموح بها، محوّلة الحياة اليومية إلى معادلة محكومة بالحدود الدنيا للبقاء (Gisha, 2010).

4. المراقبة الذكية: اعتماد أنظمة متقدمة تشمل الجدار الحسي، الطائرات المسيّرة، والبيانات البيومترية، بما يحوّل غزة إلى فضاء panspectron؛ أي مراقبة كلية تتجاوز البصر إلى جمع كل أشكال البيانات (TNI, 2020).

من إدارة الحياة إلى إدارة الموت

ورغم رسوخ النموذج البانوبتيكي في إدارة الحصار على غزة، أثبتت الوقائعُ أن هذا النموذج، الذي يقوم على ضبط الأجساد ومراقبتها ضمن منطق «الحياة القابلة للإدارة»، بلغ حدود فاعليته مع تصاعد ديناميات المقاومة المحلية. فقد طوّرت غزة، عبر سنوات الحصار، إستراتيجيات مضادة جعلت المراقبة الكلية عاجزة عن ضمان الخضوع الكامل للسكان.

جاءت عملية 7 أكتوبر 2023 لتكشف هذا القصور بوضوح؛ إذ تحوّل القطاع من فضاء محكوم بمنطق السيطرة الحيوية إلى فضاء يستدعي ممارسة سياسات الموت، حيث تعيد إسرائيل تشكيل إستراتيجيتها من إدارة البقاء إلى إدارة الفناء. هنا يتضح الانتقال من biopower إلى necropolitics كما يصفها مبمبي (Mbembe, 2003)، حيث لم تعد الغاية ضبط حدود الحياة، بل التحكم في إيقاع الموت. وكما يقول مبمبي:

«لا تُحكَم جماعات ضمن منطق إنتاج التأديب، بل ضمن قدرة السيادة على تقرير من يعيش ومن يُترك للمصير الكارثي... الحرب تُظهر أن البيروقراطية الحاكمة قد تحوّلت إلى سلطوية تدميرية معلنة.» (Mbembe, 2003, p. 21)

الهندسة المكانية والتهجير

تقدم أطروحةُ إيال ويزمان في Hollow Land (2007) إطاراً لفهم المكان بوصفه أداة هيمنة استعمارية مركبة، حيث لا تقتصر السيطرة على القوانين بل تتجسد في البنى المعمارية والأمنية التي تُعيد تشكيل الحياة اليومية.

«يرسم خريطة معمارية/أمنية لإنشاء مؤسسات الاحتلال؛ بينما توفر هذه القراءات أدوات لتفسير عمق السيطرة الكولونيالية التي لا تظهر فقط في قوانين، وإنما في الترسيب المكاني وربما التدمير المركب المفصل.» (Weizman, 2007, p. 132)

في سياق غزة، يظهر هذا بوضوح في الهدم المنهجي للأحياء السكنية شمال القطاع، بما يدفع السكان جنوباً في عملية تهجير قسري تدريجي، ويحوّل المكان نفسه إلى أداة ضغط واستنزاف وجودي.

إعادة قراءة فوكو عبر الاستعمار

تؤكد آن لورا ستولر على ضرورة «إعادة قراءة فوكو عبر أرشيفات الاستعمار»، فيما يُظهر تيموثي ميتشل أن أنظمة الضبط الحديثة، بما فيها المراقبة البانوبتيكية، هي في جوهرها نتاج مشروع إمبراطوري (Stoler, 1995; Mitchell, 1988). في ضوء هذا، يمكن فهم غزة كموقع للاستعمار الكولونيالي المتجدد الذي يستخدم أدوات حديثة لتكرار ديناميكيات السيطرة القديمة ضمن إطار استيطاني إحلالي.

خاتمة

تكشف تجربةُ غزة أنّ توصيفها كـ«أكبر سجن مفتوح» لم يعد كافياً لفهم تعقيد المشهد الراهن. فالقطاع تحوّل إلى مختبرٍ للهيمنة القصوى، حيث تتقاطع أدوات المراقبة البانوبتيكية مع إستراتيجيات النيكرو- سياسة في إنتاج فضاء استعماري يُدار وفق منطق الفناء المنظم.

إنّ عملية 7 أكتوبر لم تقتصر على إرباك معادلات الاحتلال الأمنية، بل كشفت أيضاً حدود مشروع الإخضاع الكلي، وأجبرت إسرائيل على الانتقال من سياسة تدجين الحياة إلى سياسة الإلغاء والإبادة الجماعية. ضمن هذا السياق، يصبح المكان في غزة ليس مجرد جغرافيا محاصرة، بل ساحة لإعادة تعريف العلاقة بين السيادة، العنف، والموت.

يفرض هذا التحول ضرورة إعادة التفكير في الإطار النظري المستخدم لفهم غزة؛ إذ لا تكفي قراءة فوكو في معزل عن البعد الاستعماري، بل يتطلب الأمر دمج مقاربات ما بعد كولونيالية تُبرز خصوصية العنف الاستيطاني الإحلالي، وتُعيد طرح أسئلة حول حدود السلطة الحديثة حين تتقاطع مع مشروع استعماري يسعى إلى الإلغاء الوجودي.

المراجع:

- Foucault, Michel. Surveiller et punir: Naissance de la prison. Paris: Gallimard, 1975.
- Foucault, Michel. Society Must Be Defended: Lectures at the Collège de France, 1975–76. New York: Picador, 2003.
- Foucault, Michel. Security, Territory, Population: Lectures at the Collège de France, 1977–78. New York: Palgrave Macmillan, 2007.
- Gisha. Red Lines Position Paper (2007–2010). Tel Aviv: Gisha – Legal Center for Freedom of Movement, 2010.
- HaMoked/B'Tselem. Separated Entities: Israel's Separation Policy. Jerusalem: HaMoked and B'Tselem, 2021.
- Mbembe, Achille. "Necropolitics." Public Culture 15, no. 1 (2003): 11–40. https://doi.org/10.1215/-1-15-08992363.11
- OCHA oPt. Crossings Database. United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs, 2023.
- OCHA oPt. Humanitarian Situation Update, Gaza (Post-October 2023). United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs, 2023.
- Stoler, Ann Laura. Race and the Education of Desire: Foucault's History of Sexuality and the Colonial Order of Things. Durham, NC: Duke University Press, 1995.
- Transnational Institute (TNI). All Roads Lead to Jerusalem. Amsterdam: TNI, 2020.
- Weizman, Eyal. Hollow Land: Israel's Architecture of Occupation. London: Verso, 2007.
- Mitchell, Timothy. Colonising Egypt. Cambridge: Cambridge University Press, 1988.

فلسطين و«إسرائيل» في السياسة الأميركية

بسام عليان - كاتب اجتماعي وباحث سياسي فلسطيني - سورية

الإدارات الأميركية المتعاقبة وآخرها دونالد ترامب الرئيس الحالي للولايات المتحدة؛ يعتبرون الكيان الإسرائيلي الحليف الأول للولايات المتحدة الأميركية في المنطقة العربية وما حول المنطقة العربية، فيما يصطلح على تسميته سياسياً ب «الشرق الاوسط». وكل الإدارات الأميركية تعمل على تأمين مصالح هذا الكيان (الذي يغتصب الأرض الفلسطينية منذ عام1948)، وهذا الكيان يشكل أكبر ثكنة عسكرية وأمنية للولايات المتحدة الأميركية في المنطقة. وكل تلك الإدارات تعمل بكل ما أوتيت من قوة عسكرية وأمنية وسياسية على تدعيم ما يسمى بالأمن القومي لهذا الكيان.

والإدارات الأميركية المتعاقبة، تعارض إقامة دولة فلسطينية على الأراضي الفلسطينية المحتلة. لأن إقامة دولة فلسطينية والاعتراف بالدولة الفلسطينية دولياً يفقد الكيان الصهيوني شرعيته الوجودية؛ وحسب رؤية الإدارات الأميركية المتعاقبة كلها؛ فإن إقامة دولة فلسطينية هو بمثابة مكافأة للمقاومة الوطنية الفلسطينية التي يطلقون عليها مصطلح «الإرهاب» بدلاً من مواجهته . فلذلك نجد كل الإدارات الأميركية تقوم بدعم الكيان الصهيوني بالأسلحة والعتاد الثقيل والطائرات الحربية المتطورة لإبادة الفلسطينيين وقتلهم وتعذيبهم وتهجيرهم. كما تقوم تلك الإدارات بدعم هذا الكيان الاحتلالي الاستيطاني بالمال من أجل زيادة الاستيطان في الأراضي الفلسطينية المحتلة. كما تقوم بدعمه سياسياً في المحافل الدولية والمؤتمرات ككيان محتل للأراضي الفلسطينية وخاصة عندما تثار بعض القضايا في الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي والجمعية العمومية؛ تتخذ الولايات المتحدة حق النقض الفيتو في مواجهة أي قرار يدين الكيان الصهيوني في ممارساته ضد الفلسطينيين وضد حقوقهم المشروعة. وقد قامت إدارة ترامب الرئيس الحالي للولايات المتحدة الأميركية؛ في فترة إدارته السابقة بنقل السفارة الأميركية من تل أبيب إلى القدس كتحد واضح ضد الفلسطينيين وحقوقهم المشروعة وتكريس للدولة اليهودية المصطنعة وجعل القدس عاصمة أبدية لليهود. وقد أظهر آخر رئيسين للولايات المتحدة (بايدن وترامب)، الأول ديمقراطي والآخر جمهوري؛ أظهرا بقوة انحياز أميركا الكامل لهذا الكيان الاحتلالي الاستعماري الاستيطاني من خلال تصريحاتهما التي وصفت بسرعة الغضب وحدة الانفعالات، وكذلك في مجموعة المستشارين المحيطين بهذين الرئيسين؛ ومن هذه الانفعالات لصالح الكيان وضد الفلسطينيين، جاءت تصريحات الرئيس الأميركي السابق جو بايدن، الذي قال: «لو لم تكن إسرائيل موجودة، كنا أوجدناها «.وكذلك، الرئيس الحالي ترامب الذي أعلن عن دعمه لتهجير المواطنين الفلسطينيين من غزة؛ ويعلن صراحة وقوفه إلى جانب الكيان في تدمير غزة وأهلها وقتل الفلسطينيين واعتقالهم وتجويعهم، ويعلن في خطاباته ولقاءاته محبته ل «إسرائيل» والتراث اليهودي عموماً..!!! ويثبت ترامب يومياً دعمه لهذا الكيان والإجراءات الإجرامية والوحشية التي تتخذها زعامات هذا الكيان؛ فهو يعلن وبكل وقاحة دعمه للاستيطان الصهيوني وطرد المواطنين الفلسطينيين من أراضيهم أرض آبائهم وأجدادهم التاريخية في فلسطين. وترامب وفريقه الوزاري كله يدعمون أن تكون القدس عاصمة أبدية للصهاينة، حتى إن قرار اليونسكو الذي نفت فيه أي رابط تاريخي أو ديني لليهود بالمسجد الأقصى؛ أغضب ترامب وفريقه كثيراً، واعتبره تجاهلاً لتاريخ يصل إلى ثلاثة آلاف عام يربط بين الكيان الصهيوني بحسب زعمه. إن أي رئيس يتقلد منصب الرئاسة الأميركية لديه دائماً خطوط حمر ملزمة من الحركة الصهيونية العالمية، يجب عليه أن لا يتجاوزها في العلاقة مع الكيان الصهيوني، المسمى سياسياً ب «إسرائيل»؛ فهو لا بد له من أن يتعهد بحماية أمن الكيان الاحتلالي، ومساندته في كافة المحافل الأممية والدولية. وها نحن الآن ومنذ ما يقارب السنتين (22 شهراً)، هناك مقتلة يومية وإبادة جماعية للمواطنين الفلسطينيين أهالي غزة الأصليين؛ لم نجد أي مسؤول أميركي قط، أو أي منصب حكومي يساند الفلسطينيين ويندد بجرائم الكيان الصهيوني التي يندى لها الجبين، بل ما تزال المواقف الأميركية داعمة للكيان الصهيوني وجرائمه وإرهابه المنظم في القتل والتجويع والتعذيب والقهر والظلم والاعتقال وتحطيم الروح الإنسانية عند المواطن الفلسطيني؛ بل هناك ما هو أكثر؛ وهو أن السياسة الأميركية تنكر الحقوق الوطنية الفلسطينية المشروعة والتي أقرتها هيئات الأمم المتحدة منذ أكثر من 80 عاماً؛ مثل القرار181، والقرار 194. والقرار 383. وما تزال هذه الإدارات الأميركية تدعم أطماع الكيان وتهديداته وتعسفه وجرائمه. وهذا الامر لا يتعلق بالرئيس الأميركي وحده، بل كل المنظومة السياسية الأميركية بأكملها . وترامب ومن قبله من الرؤساء السابقين للولايات المتحدة لا يرون في الاستيطان الصهيوني مشكلة، ولا يرون في تهجير الفلسطينيين من أراضيهم وأملاكهم مشكلة؛ مما يفتح شهية قيادة الكيان المجرمين، من زيادة عدد المستوطنات وزيادة المستوطنين؛ وهذا ما نراه منذ عقدين واكثر يحصل في الضفة الفلسطينية والقدس المحتلتين من تهويد سريع وسرقة أراضي وضم بالقوة العسكرية . والكيان الصهيوني الذي يحتل فلسطين منذ العام1948؛ ما زال يستمر ويتمادى في استخدام القوة العسكرية الغاشمة في تهويد الضفة الفلسطينية على الخطى ذاتها التي هودت بها منطقة الجليل؛ فالاحتلال العسكري الإسرائيلي الصهيوني عمل في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات على مصادرة مساحات واسعة من الأراضي الفلسطينية في منطقة الجليل لبناء المستوطنات والمدن ذات الطابع الإسرائيلي الصهيوني؛ وذلك للقضاء على الوجه الفلسطيني للمنطقة، وتغليب الوجه اليهودي الصهيوني . وخلاصة القول: إن الإدارات الأميركية السابقة كلها؛ فشلت في أن تصل إلى إقامة الدولة الفلسطينية المنشودة، وبالتالي لا توجد ثمة أدنى آمال بأن تشهد فترة ترامب إقامتها. فإن على الفلسطينيين أن يفكروا في طريق آخر غير الطريق الأميركي لنيل حقوقهم المشروعة وإقامة دولتهم المستقلة .

حملات التضامن العالمية مع غزة..
أين العرب؟!

رضي الموسوي ـ كاتب صحفي من البحرين

في الوقت الذي تعج فيه شوارع دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بالمظاهرات والمسيرات والاعتصامات والفعاليات المناصرة لنضال الشعب الفلسطيني ضد الإبادة الجماعية في غزة ويدفع شبابها أثمانا باهظة لمواقفهم المبدئية والإنسانية والأخلاقية كالتوقيف والطرد من الجامعات ومواجهة مصير مجهول في الحصول على فرص العمل، في هذا الوقت تعاني الشوارع العربية من قلة المناصرين والمتضامنين مع فلسطين إلا ما ندر، في مشهدية صادمة وغير مفهومة وغير مقنعة لهذه المقاربة التي تعبر عن مأزق حاد وانفصام في شخصية الرأي العام العربي في مواجهة واحدة من أكثر الحروب الوجودية والإبادات الجماعية والتجويع التي يشهدها التاريخ الحديث، ما يضع علامات استفهام كبرى إزاء هذه المعطيات المفجعة التي قادت إلى هذا السكون القاتل واللامبالاة التي اتسم بها الشارع العربي والسبل الكفيلة لدراسة هذه الظاهرة والبحث عن مخارج جدية لمعالجتها بما يعيد الوهج للقضية المركزية للأمة ويبعث الروح من جديد في مفاصل الشارع العربي.

مفاجآت الحراك الشعبي الغربي

لم تكن أكثر التحليلات تفاؤلا تتوقع أن الجامعات الأمريكية والأوروبية يمكن لها أن تنتفض وتسجل مواقف سياسية متقدمة ضد الإبادة الجماعية في غزة وعموم فلسطين وأن ترفع شعارات من طراز «فلسطين حرة» و»من النهر إلى البحر فلسطين ستبقى حرة» وغيرها من الهتافات التي لا تزال تصدح تأييدا وتضامنا مع الشعب الفلسطيني وضد طرده من أرضه. لقد تفاجا اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة بتآكل وتداعي السردية التي أصّل لها وأسّس وبنى عليها قناعات راسخة لدى الجمهور الغربي حول كذبة «أرض الميعاد» و»أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» وسيف «معاداة السامية» المُسلط على رقاب كل من يعارض جرائم الكيان الصهيوني، حيث اطمأن المدافعون عن الدولة العنصرية أن هذه القناعة راسخة ولن تتغير. لكن، وبعد أن تفجر طوفان الأقصى في السابع من أكتوبر وما تبع ذلك من كشف المزيد من الحقائق عن طبيعة الكيان الفاشية، انتفض الشباب الأمريكي وأعاد إحياء صخب المظاهرات والاحتجاجات التي شهدتها المدن

الأمريكية أبان حرب فيتنام في النصف الأول من سبعينات القرن الماضي. بدأت التظاهرات والاعتصامات من جامعة كولومبيا بنهاتن في نيويورك منتصف أبريل/نيسان 2024 وانتشرت كالنار في الهشيم لتشمل عشرات الجامعات بما فيها اهم الجامعات مثل هارفارد، وأخرى في العاصمة واشنطن دي سي وفي مختلف الولايات، منها كولومبيا، إيموري، وجنوب كاليفورنيا وجورج واشنطن وجورج تاون.

هز هذا الحدث الكبير أمريكا وأثار الرعب في أوساط اللوبي الصهيوني في كلا الحزبين الجمهوري والديمقراطي، خصوصا وأن شباب الجامعات هم من أشعل الفتيل وانضم إليهم أعضاء في هيئات التدريس، ما قاد رجالات الدولة العبرية في الكونغرس الأمريكي إلى عقد جلسات تحقيق مع رؤساء الجامعات ومسؤولين فيها تشبه محاكم التفتيش وطالب بعضهم بإدخال الشرطة للقبض على المعتصمين المتضامنين مع فلسطين في حرم الجامعات، وقد فعل البوليس والأمن الأمريكي ذلك في بعضها وتم اعتقال مئات الطلبة وهيئات التدريس كما هاجمت قوات الأمن المخيمات التي نُصبت في حرم الجامعات وتم تفكيكها، بيد أنه لم يعد بالإمكان السيطرة على الغضب الشبابي، فذهب رئيس مجلس النواب الأمريكي بعيدا ووصف المظاهرات بأنها «تبعث على الكراهية ومعاداة السامية».

ولأن الأمر جلل والمجازر لم تتوقف، بل زادت، فقد رد أعضاء في هيئات التدريس ومنظمات متضامنة مع فلسطين على رئيس مجلس النواب ردا قاسيا زاد من حماوة الوضع وازدادت أعداد المتضامنين ونوعياتهم ودخلت فئات جديدة في حملات الدعم والتضامن من بينها حركة «ليس باسمنا» اليهودية التي رفعت الصوت عاليا وطالبت بوقف الإبادة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني في غزة. لم يتأخر الفاشي رئيس الوزراء الصهيوني بنيامين نتنياهو عن الدخول على الخط والتحريض، فأطلق تصريحاته وكأنه مسؤول أمريكي واصفا المتظاهرين الأمريكيين بأنهم «معادون للسامية». ولإثارة الهلع في صفوف الشباب واستعادة زمام الأمور، شّبه نتنياهو ما يقومون به من تضامن مع فلسطين بأنه يشبه ما كان يفعله النازيون إبان الحرب العالمية الثانية ضد اليهود، في محاولة لاستعطاف النخب والشارع الغربي، إلا أن شعار «معاداة الصهيونية» الذي طالما فعل فعلته في الرأي العام الأمريكي خصوصا والغربي عموما، لم يعد براقا، ولم يفعل فعلته هذه المرة بعد أن تكشفت الحقيقة فاندلعت المظاهرات في مدن جديدة ومنها الحشود التي تظاهرت في مدينة ديربورن الأمريكية. وخطت الشخصيات السياسية والأدبية والدينية والفنية المؤثرة في الرأي العام خطوات إلى الأمام ومنهم الممثلة الامريكية سوزان ساراندون، التي انضمت لقافلة الصمود المتوجهة من أسبانيا إلى غزة لكسر الحصار من ضمن 50 سفينة يشارك فيها 6000 متضامن من 44 دولة.

لم تثمر تهديدات قادة الكيان ومؤيديه في الغرب وبعض الإعلام العربي، من لجم حملات التضامن التي امتدت للمدن الأوروبية، التي نظمت نحو 40 ألف مظاهرة وفعالية منذ السابع من أكتوبر، وشهدت عواصمها مظاهرات مليونية، شملت لندن باريس ومدريد وبرشلونة وروما وحتى برلين المتوجسة، ووصلت إلى أستراليا التي كانت مظاهراتها مفاجئة للكثيرين في الغرب والشرق حيث شهدت الأيام الأخيرة حشودا ضخمة غطت الجسور والشوارع في العديد من المدن. وتشير استطلاعات الرأي أن 75 بالمئة من الالمان يؤيدون الضغط على الكيان لوقف عدوانه، ما أجبر الحكومة على اتخاذ قرار بتجميد تصدير الأسلحة، بفضل المظاهرات والضغوط القضائية. المفاجأة الأكبر هي ما شهدته تل أبيب نفسها عندما احتشد نحو 300 ألف متظاهر يطالبون بإسقاط نتنياهو وبوقف الحرب والذهاب إلى صفقة تبادل للأسرى. كما اقتحم متضامنون مع فلسطين من داخل الكيان القناة 13 الصهيونية وهتفوا «إسرائيل تجوع غزة»، ما اضطر القناة إلى وقف البث المباشر. وأضاف التقرير الأخير لمركز المعلومات الإسرائيلي لحقوق الانسان في الأراضي المحتلة (بتسيلم) القول بأنه «يستدعي إدراك حقيقة أن النظام الإسرائيلي يرتكب إبادة جماعيّة في قطاع غزة والخوف الشديد من امتدادها إلى مناطق أخرى يعيش فيها فلسطينيون تحت النظام الإسرائيلي، تحركًا عاجلاً وواضحًا من جانب الجمهور الإسرائيلي والمجتمع الدولي واستخدام كل الوسائل الممكنة بموجب القانون الدولي لوقف الإبادة الجماعيّة الإسرائيلية بحق الفلسطينيين».

من جانبها شهدت البرلمانات الأوروبية، جولات حامية الوطيس، مثلما فعل النائب ريتشارد باريت عضو البرلمان الإيرلندي الذي تحدث بالتفصيل عن الإبادة الجماعية التي يتعرض لها شعب فلسطين، في توجه لزيادة الضغط على الحكومة لفرض المزيد من العقوبات على الكيان ومستوطناته. أما البرلماني الإيطالي أنجيليو بولیني فقد وبّخ وقرّع رئيسة الوزراء الإيطالية لمواقفها الداعمة للكيان واستنكر عليها عدم صدور أي إدانة منها لجرائم الاحتلال في غزة.

في هذا الوقت، وبالتزامن، حضر الفن والرياضة، فشهدت إسبانيا مسيرة فنية عزفت لفلسطين في الشوارع وهي تهتف «فلسطين حرة» وضد الإبادة الجماعية في غزة. كما هتف المغني سام فندر «فلسطين حرة»، وردد الجمهور الذي كان يحضر حفله الفني نفس الهتاف وبحماس منقطع النظير. وفي ألمانيا أطلقت الفنانة مارينا فيجنر أغنية بعنوان «فلسطين في قلبي». وفي ساحات ملاعب كرة القدم، هتف المدرب الشهير غواردیولا: «هذا العالم بلا عدالة». وكذلك فعلت لاعبة كرة القدم الأوروبية التي هتفت «فري بالاستاين» أمام الجمهور. أما الصحافي البريطاني بيرس مورغان الذي كان ينتقد المقاومة

الفلسطينية بعنف، وقد تبينت له الحقيقة فوجه انتقادات لاذعة للسفيرة الصهيونية في بريطانيا عندما سألها: كم عدد الأطفال الذين قتلتهم إسرائيل في غزة؟ لكن السفيرة تهربت من الإجابة على السؤال. كما وجه بيرس انتقادات لنتنياهو بسبب رفضه دخول الصحافيين والإعلاميين الأجانب إلى غزة للتأكد مما يجري والتحقق من ادعاءات الكيان.

أين العرب؟

يصر الرئيس الأمريكي دونالد ترامب على السطو واحتلال قطاع غزة وأخذها، ويدّعي أن القطاع «لا حياة فيه وأنه سينقل سكانه الفلسطينيين الى مكان آمن» بعد أن دمرت الحرب كل شيء، وكأنه ليس شريكا فاعلا في جريمة الإبادة الجماعية. وحين سأله الصحفيون بأي سلطة تأخذ غزة؟ أجاب: بسلطة الولايات المتحدة الأمريكية..هكذا!!

تصريح ترامب لم يثر ذعر النظام الرسمي العربي الذي يعاني من التآكل المتسارع والانكشاف الفاضح، كما أنه لم ينعكس فعليا على الشارع العربي المنهك بأزمات لا حدّ لها، بدءا من لقمة العيش حتى الحياة الحرة الكريمة، حيث تعشعش البطالة في كل الدول العربية وتزداد نسبها بين الشباب، وتزيد موجات الهجرات الجماعية من الدول العربية بعد أن تحولت إلى دول طاردة لمواطنيها، كتبعات لتغييب دولة المواطنة المتساوية وتحول أغلبها إلى مزارع خاصة للسلطة وحاشيتها والفئات القليلة المنتفعة من وجود أنظمة فاشلة في كل شيء إلا القمع ومصادرة الحريات.

لكن، والأمر كذلك، فإن هذا لا يعفي المواطن العربي من القيام بدوره تجاه قضاياه المصيرية كالقضية الفلسطينية والعدوان على قطاع غزة والضفة الغربية تكثف في السنتين الأخيرتين بعد السابع من أكتوبر 2023. ففي العديد من الدول الغربية تحولت الإبادة الجماعية التي تتعرض لها غزة إلى قضية داخلية تناقشها البرلمانات وتضغط فيها الشوارع على حكوماتها لاتخاذ إجراءات عملية لمعاقبة الكيان من طراز منع تصدير السلاح لجيشه ومنع الفاشيين من دخول الدول الأوروبية ومقاطعة سلع المستوطنات وغيرها من الإجراءات «الناعمة» ضد التطهير العرقي في فلسطين. لكن الدول العربية لم تتخذ إجراءات من هذا القبيل، وهذا أضعف الإيمان، بل على العكس من ذلك، فقد أُحكم الحصار على قطاع غزة حتى بلغ مرحلة التجويع حتى الموت ولم تتمكن دولة عربية واحدة من إدخال قنينة ماء واحدة، بينما يسرح السفراء الصهاينة في العواصم المطبعة معه ويعيثون فسادا فيها وتآمرا على شعوبها دون أن يحاسبهم أحد!!

إن الشارع العربي مثقل بالأزمات المستفحلة، ورأيه تم مصادرته وظل منكفئا على نفسه خوفا من بطش الدولة الأمنية به، ولا يزال الخوف هو سيد الموقف بعد أن فعلت السياسات فعلتها في نفسية المواطن العربي وحولته إلى مخلوق همّه سد رمقه. يمكنه البكاء بين جدران بيته على أطفال غزة الذين جوعتهم الفاشية الصهيونية والتخاذل الرسمي العربي وتواطؤه، لكنه لا يخرج على الناس شاهرا غضبه مطالبا بالعدالة لفلسطين ووقف الإبادة إلا ما ندر.

هذا الوضع المقلوب، حيث يمارس المواطن في الغرب إنسانيته ويعبر عن رأيه الرافض للتجويع والتطهير العرقي، مقابل صمت وخذلان من المواطن العربي ونخبه التي أصابها المسّ وعطل قدرتها على الحركة والفعل بما فيها مؤسسات المجتمع المدني التي تشمل النقابات العمالية والنسائية والشبابية والثقافية والأدبية والفنية، والتي تتصرف وكأن هذه الإبادة والحرب الوجودية بعيدة عنها بسنوات ضوئية، في الوقت الذي يردد فيه قادة الكيان الصهيوني إصرارهم على تشييد «إسرائيل الكبرى» التي تمتد من الفرات إلى النيل. وحتى البرلمانات التي يفترض فيها تمثيل الشعب تحولت مهمتها إلى تلميع النظام وتقديسه والتصفيق له بحرارة الأموال التي تدخل في حسابات أعضائها، في الوقت الذي يصدح فيه أعضاء في البرلمانات الأوروبية بأعلى أصواتهم رفضا للجرائم التي ترتكب بحق شعب فلسطين.

هذا الواقع المرير الذي تعيشه الشعوب العربية يثير تساؤلا جوهريا: هل هُزم المواطن العربي من الداخل وانكسرت إرادته؟ أم أن عقودا من القمع والاستبداد حولته إلى كائن لا حول له ولا قوة، انعكست على نخبه وبالتالي لا يعول عليها في إحداث عملية التغيير المطلوبة؟!

لقد تخلى العرب حتى عن الظاهرة الصوتية التي وُصِموا بها منذ زمن..ولعل تلك الفنانة الأوروبية تُذكّرهم بأنه «حين تسقط المدن، تبقى الإرادة صامدة».

من صبرا وشاتيلا إلى تموز: دروس في معنى السلاح

د. انتصار الدنّان ـ كاتبة صحفية وإعلامية فلسطينية - لبنان

يعيش لبنان منذ عقود أزمات متلاحقة، سياسية واقتصادية واجتماعية، جعلته ساحةً مفتوحة للتجاذبات الداخلية والإقليمية والدولية، ومع تراكم الأزمات، يبقى ملف سلاح المقاومة الأكثر إثارة للجدل في الحياة السياسية اللبنانية، بينما يعتبره بعض الأطراف عقبة أمام قيام الدولة، يرى آخرون أنّه ضمانة وطنية لا يمكن الاستغناء عنها في ظلّ ميزان القوى القائم في المنطقة.

أوّلًا: معادلة السّلاح والدّولة

المطالبة بنزع سلاح المقاومة تنطلق من مبدأ «حصرية القوة بيد الدولة»، وهو مبدأ مقبول نظريًا، لكن تطبيقه في الواقع اللبناني يصطدم بمعادلة صعبة: دولة ضعيفة وجيش محدود القدرات، مقابل عدو إسرائيلي يملك أحد أقوى جيوش المنطقة وأكثرها تطورًا، وبالتالي، فإنّ إسقاط هذه المعادلة على الواقع يعني ببساطة تجريد لبنان من عناصر قوته وتركه مكشوفًا للعدو الإسرائيلي، والسماح له بانتهاك سيادة الدولة اللبنانية، والقيام بأي عمل عدواني عندما تسنح الفرصة تحت حجة «الإرهاب»، ومن الممكن أن يتعدى الأمر أكثر من ذلك، وهو التمدد داخل لبنان واحتلال أراض فيه، وإقامة مستوطنات، وهو حلمهم بـ»إسرائيل العظمى» التي صرح عنها مؤخرًا رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو.

لقد شكّل سلاح المقاومة على مدى العقود الماضية عنصر توازن وردع في مواجهة الاعتداءات الإسرائيلية، ولولاه لكان لبنان عرضة لاحتلال دائم واعتداءات متكررة. إنّ التجربة التاريخية تؤكّد أنّ السلاح لم يكن عبئًا على لبنان بقدر ما كان مظلّة حماية، وأداة ضغط سياسية تمنح لبنان موقعًا تفاوضيًا أفضل.

ثانيًا: دروس من التّجربة الفلسطينيّة بعد عام 1982

من أهم الشواهد التاريخية على خطورة التخلي عن السلاح ما جرى بعد خروج الثورة الفلسطينية من بيروت عام 1982، وتسليمها سلاحها تحت ضغط الاجتياح الإسرائيلي، فبمجرد أن غابت المقاومة الفلسطينية المسلحة، وقعت واحدة من أبشع المجازر في تاريخ المنطقة: مجزرة صبرا وشاتيلا.

• في غضون ثلاثة أيام فقط (16-18 أيلول 1982)، ارتكبت قوات الاحتلال الإسرائيلي وحلفاؤها مجزرة مروّعة أسفرت عن استشهاد آلاف المدنيين من الفلسطينيين واللبنانيين العُزَّل.

• لم يكن هناك سلاح يحمي المخيمات أو يردع المهاجمين، فكانت النتيجة إبادة جماعية كشفت بوضوح أنّ التخلي عن السلاح لا يجلب الأمن، بل يفتح الباب للقتل الجماعي.

ولم تقف المأساة عند ذلك الحد؛ إذ تحولت المخيمات الفلسطينية بعد 1982 إلى ساحات مكشوفة:

• حرب المخيمات (1985-1989) تعرّضت المخيمات الفلسطينية في بيروت والجنوب لحصار خانق وقتال دموي، أسفر عن آلاف الضحايا المدنيين وتجويع السكان، وكل ذلك في ظلّ غياب قوة رادعة تحميهم.

• تل الزعتر (1976) رغم أنها سبقت خروج المقاومة، غير أنّها شكّلت مثالًا على أن المخيمات الضعيفة تسليحيًا تتحوّل إلى مسرح لمجازر بشعة، حيث قُتل الآلاف ودُمّر المخيم عن بكرة أبيه.

هذه التجارب تثبت أنّ التخلي عن السلاح لم يحقق للفلسطينيين الأمن ولا الاستقرار، بل جرّ عليهم سلسلة من الكوارث، وأثبت أنّ القوة وحدها كانت قادرة على ردع المعتدين.

ثالثًا: المقارنة مع تجربة المقاومة اللبنانية

في المقابل، فقد قدم لبنان منذ نشوء المقاومة الوطنية والإسلامية ضد الاحتلال الإسرائيلي، نموذجًا يؤكد ضرورة وجود السلاح بأيدي المقاومة، وهذا السلاح أدى إلى:

• التحرير عام 2000: أجبرت المقاومة إسرائيل على الانسحاب من جنوب لبنان بعد 22 عامًا من الاحتلال، في إنجاز تاريخي لم يتحقق بفضل القرارات الدولية ولا المفاوضات، بل بفضل التضحيات والسلاح.

• حرب تموز 2006: شكّلت محطة مفصلية أكدت معادلة الردع، إذ فشل جيش العدو الإسرائيلي في تحقيق أهدافه، واضطر إلى التراجع تحت وطأة ضربات المقاومة وصمودها. هذه الحرب أثبتت

أنّ السلاح قادر على تغيير المعادلات الإقليمية ومنع فرض الإرادة الإسرائيلية على لبنان.

إنّ مقارنة بسيطة بين وضع الفلسطينيين بعد تسليم سلاحهم في 1982، ووضع لبنان بوجود المقاومة في 2000 و2006، تبيّن بوضوح أنّ السلاح يصنع الفارق بين الهزيمة والانتصار، وبين المجزرة والصمود.

رابعًا: السلاح ورقة قوة سياسية

إلى جانب دوره العسكري، يشكّل السلاح عنصرًا أساسيًا في المعادلة السياسية، فوجوده يمنح لبنان قوة في التفاوض، ويحول دون تحوّله إلى ساحة خاضعة بالكامل للضغوط الخارجية. إنّ المطالبة بالتخلي عن هذه الورقة في ظلّ ميزان القوى الحالي تعني ببساطة إضعاف الموقف اللبناني، وتجريده من أي قدرة على فرض شروطه أو حماية مصالحه.

خامسًا: نحو إستراتيجية دفاعية وطنية

الحلّ لا يكمن في نزع سلاح المقاومة، بل في تنظيم العلاقة بين المقاومة والدولة عبر إستراتيجية دفاعية وطنية تضمن تكامل الأدوار، بحيث تبقى المقاومة عنصر قوة لا عبئًا، وتظل الدولة صاحبة القرار السيادي. إنّ هذه الصيغة وحدها هي الكفيلة بالحفاظ على قدرة لبنان الدفاعية من دون الإضرار بمؤسسات الدولة.

في النّهاية، إنّ كل الشواهد التاريخية تثبت أنّ التخلي عن السلاح يؤدي إلى المجازر والانكسارات، بينما امتلاكه يصنع التوازن ويمنع العدوان. من تل الزعتر وصبرا وشاتيلا وحرب المخيمات بعد نزع سلاح الفلسطينيين، إلى التحرير عام 2000 وصمود 2006 بفضل المقاومة اللبنانية، يبرز الدرس واضحًا:

سلاح المقاومة ليس مشكلة لبنان، بل ضمانته الوحيدة حتى بناء دولة قوية وقادرة، وإلى أن يتحقق ذلك، يبقى سلاح المقاومة صمّام أمان لبنان، وحصنه الأخير في مواجهة الأطماع الإسرائيلية والتقلبات الإقليمية.

غزة تنزف ..
ماذا بعد الاستنكار والإدانة الأوروبية؟

أحمد عويدات - كاتب فلسطيني ـ السويد

بات واضحاً أن جرائم الإبادة الجماعية قصفاً وتجويعاً وقنصاً، وإعداماً بدم بارد، والتي يرتكبها جيش الاحتلال الفاشي وقيادته المجرمة بحق أبناء الشعب الفلسطيني، قد أيقظت وجدان الرأي العام العالمي؛ فاجتاحت العالم تحولات سياسية كبرى في المزاج الشعبي العام، والمواقف السياسية الرسمية. هذه التحولات التي بدأت بالمظاهرات الجماهيرية واعتصامات طلبة الجامعات والأكاديميات، ثم اتسعت لتشمل مواقف الأحزاب وأعضاء البرلمانات المنددة بجرائم الاحتلال، التي لم تشهد البشرية مثيلاً لها لا قبل الحرب العالمية ولا بعدها، وفاقت بقسوتها وشدتها جرائم النازية والفاشية وجرائم المغول والتتار والقبائل الأوروبية المتناحرة في العصور الوسطى.

وقد اتخذت هذه التحولات أشكالاً عديدةً عند بعض الدول، وصل بعضها إلى حد قطع العلاقات الدبلوماسية وطرد السفراء، والمطالبة بتقديم مجرمي الحرب إلى محكمة العدل الدولية، وتنصيب أنفسهم مدعياً عليهم مثل دولة جنوب أفريقيا وكولومبيا والبرازيل، ولم تنته هذه التحولات عند هذا الحد فقد تفاقمت إلى أن وصلت إلى أعضاء الحكومة، والتي كان آخرها استقالة نحو تسعة وزراء من الحكومة الهولندية على رأسهم وزير خارجيتها، احتجاجاً على موقف رئيس الحكومة الرافض لفرض عقوبات على دولة الكيان، في الوقت الذي لم يجرؤ أي مسؤول عربي صغير- وليس وزير - على اتخاذ موقف مشابه لهذا ولو بالحد الأدنى. كل هذا يؤشر إلى اتساع الحملة العالمية ضد دولة الكيان، والتي باتت بعزلة دولية تامة. وتأتي هذه الاستجابة نتيجة لما وصل عبر المنصات الإعلامية وشاشات التلفزة، من صور أشلاء الأطفال في خيام النازحين المحترقة، وصور الجثث التي تلتهمها النيران بفعل قصف الطائرات والدبابات الإسرائيلية، وكذلك صور البطون المنتفخة والهياكل العظمية للأطفال المجوّعين، نتيجة لمنع إدخال المساعدات والحصار المستمر منذ عقدين من الزمن، وصور ٣٠٠ ممن استشهدوا تجويعاً، بينهم ١١٧ طفلا بسبب سوء التغذية، وأيضاً مشاهد الدمار الشامل للبلدات الفلسطينية، بما فيها المشافي ومراكز الإيواء الأممية ومصادر الحياة من مياه وكهرباء وغذاء ووقود، واغتيال الطواقم الطبية والإغاثية والصحفية، والتي كان آخرها مجزرة مجمّع ناصر الطبي، والتي كان بين ضحاياها ستة من الصحفيين سقطوا اغتيالاً بهدف إسكات صوت الحقيقة، ليصل عدد الصحفيين الشهداء إلى 246 صحفيا منذ بداية الحرب العدوانية.

ولقد شكلت هذه الاحتجاجات، التي شارك فيها مئات الآلاف من الأكاديميين والطلبة والفنانين والمثقفين والمؤثرين ورجال السياسة في دول العالم، عاملاً ضاغطاً على حكوماتهم لاتخاذ إجراءات من شأنها أن تفضي إلى وقف إطلاق النار وإنهاء الحرب؛ ما دفع بعض الدول، وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا وأستراليا، وغيرها من الدول التلويح للاعتراف بالدولة الفلسطينية، في خطوة منها لكسر تعنّت نتنياهو، وفرض وقف إطلاق النار، وإنهاء حربه المجرمة، والبدء بتنفيذ مبادرة حل الدولتين. غير أن هذه الدول قد نسيت أو تناست الأيديولوجية الاستعمارية التوسعية الصهيونية النتنياهوية الرافضة لأي مبادرة سلام، والرافضة أصلاً لأي وجود فلسطيني، وتعامت أيضا عن الأيديولوجية الاستثمارية الترامبية الداعمة له ولمخططاته؛ سيما ما أفصح عنه نتنياهو مؤخراً حول مخططه التوسعي «إسرائيل الكبرى»، إذ لم يأتِ هذا مصادفةً ولا زلّة لسان، بل تأكيد لهذه الأيديولوجيا الاستعمارية التوسعية، وبأنه - أي نتنياهو اللاهوتي - بمهمةٍ روحانية وتاريخية بمقتضى السردية التوراتية وأن عليه تحقيقها.

إن هذا المخطط لن ينتهي عند حدود غزة أو الضفة الغربية، والسيطرة على حقل غاز غزة، وشق قناة بن غوريون بديلاً لقناة السويس فقط، بل سيتجاوزها ليصل إلى وسط المملكة السعودية، مروراً بالعراق وسوريا ولبنان والأردن ومصر، ووصولاً إلى الكويت.

هذه الأيديولوجيا - التي تماهت تماماً مع فكر ترامب الاستثماري - وجدت في المنطقة كلها مرتعاً لاستثماراته ومصالحه ومدخلاً للتحكم بطرق التجارة العالمية، وتهديداً للشرق الآسيوي وبالأخص الصين، والهيمنة الاستعمارية على بلدان وشعوب المنطقة ؛ مستفيداً من الذراع الإسرائيلية الضاربة في الإقليم، وما محاولة إثارة القلاقل والتوترات والصراعات العرقية والطائفية والمذهبية في المنطقة، بدعوى حماية الأقليات، إلا سبيل لفرض وصاية الولايات المتحدة، كانتداب جديد على أنظمة هذه الدول وشعوبها، وتهديدها بمزيد من الانقسام والتجزئة ؛ ما يهدد وجود الدول الوطنية، التي شكلتها اتفاقية سايكس بيكو منذ نحو مئة عام.

وفي سياق آخر، تأتي مطالبة إدارة ترامب وحكومة نتنياهو لسحب السلاح من المقاومة، ومن كل ما يمثل في المنطقة تهديداً أمنياً لمشاريعهما ومخططاتهما الإستراتيجية إلا خطوة أولى في هذا الاتجاه. ولم يعد خافيا على أحد إن مصادقة الحكومة الإسرائيلية، وبدعم من إدارة ترامب على احتلال غزة والبدء بعملياتها العسكرية، تحت مسمى «مركبات جدعون 2»، إلا محاولة للإجهاز على المقاومة والبدء بمخطط تهجير أهل غزة؛ لرصف الطريق أمام مخطط «إسرائيل الكبرى». وأن لعبة المفاوضات ليست إلا ذرا للرماد في العيون، ومحاولة لطمأنة خادعة للمجتمع الإسرائيلي الداخلي، وللرأي العام العالمي، وتجميلا لوجه نتنياهو وترامب أمام شعوب العالم. وهو أيضا، محاولة يائسة لفك العزلة الدولية التي مني بها الكيان. إذ لم تعد موافقة حماس على المقترح الأخير للصفقة كافياً، بل هناك شروط إسرائيلية تدعو إلى نزع سلاحها بالكامل، ومغادرة أهالي غزة إلى ما يُسمى «المدينة الإنسانية» كخطوة نحو التهجير القسري، وفرض ما أسماه نتنياهو «السيطرة» على غزة بدلاً من « احتلال غزة» استرضاء للدول الأوروبية التي أدانت هذه الخطوة. وما منع إدخال المساعدات وعدم تفعيل البروتوكول الإنساني إلا إمعان في مزيد من حصار الإبادة الممنهجة وهندسة التجويع.

أمام هذا الواقع المأساوي اللاإنساني والكارثي، والذي تسبب حتى لحظة كتابة هذه السطور في استشهاد نحو 63 ألف شهيد و158 ألف جريح، وتدمير أكثر من 75% من القطاع، وأمام هذه المخططات والأيديولوجيات الاستعمارية؛ هل لا زال هناك متسع لأي مبادرة سلام أو قانون إنساني؟ وهل الاعتراف بالدولة الفلسطينية - على أهميته - كافٍ لوقف الحرب وإنهاء مأساة البشرية في غزة؟ وهل الاحتجاجات والتظاهرات والإدانات والاستنكارات - برغم أهميتها أيضا - ستردع الاحتلال، وتوقف المجازر بحق الآمنين الأطفال والنساء، وتوصل لقم العيش إلى المجوّعين، وتمحو تلك الصور الشائنة بحق المجتمع الدولي والإنساني؟ وهل إعلان «المجاعة في غزة» على لسان الأمين العام للأمم المتحدة سيفضي إلى سد رمق المجوّعين وينقذ الأجنّة والخدّج والأطفال من سوء التغذية، ونقص كل إمدادات الحياة لهم؟

إن دول العالم، وعلى رأسها أكثر من 57 دولة عربية وإسلامية، مطالبة اليوم باتخاذ إجراءات فعّالة تجبر الكيان وإدارة ترامب على الوقف الفوري لإطلاق النار

وإنهاء الحرب. ومن هذه الإجراءات، وقف تصدير السلاح والعتاد لجيش الاحتلال، وفرض عقوبات اقتصادية وتجارية مؤثرة، وتفعيل قرارات الشرعية الدولية وتقديم المجرمين إلى العدالة، والتلويح بسلاح النفط والغاز للإدارة الأميركية، وفك شراكة الاتحاد الأوروبي التجارية مع الكيان وإيقاف الاستثمارات معه، وقطع العلاقات الدبلوماسية، وطرد سفراء الكيان، ومحاصرة سفارات الولايات المتحدة تنديداً بشراكتها للكيان الصهيوني، والتلويح بتهديد المصالح الأمريكية، وعلى الدول المطبّعة أيضا وقف التطبيع مع الكيان، وإغلاق مكاتب التنسيق معه، وتصعيد التحركات الجماهيرية وإفساح المجال أمام الشعوب لتأخذ دورها خاصة في الشركات والنقابات والهيئات الحقوقية والجامعات والأكاديميات، وقطع الشراكات العلمية والأكاديمية مع الجامعات الإسرائيلية، ووقف كافة الأبحاث المشتركة التي يستفيد منها الاقتصاد الإسرائيلي ومصانع السلاح والعتاد.

أما فلسطينياً، المطلوب المزيد من الصمود والمقاومة، برغم الجراح والمعاناة الكبيرة والتي لا ترقى إلى مستوى كل الكلمات والمشاعر، والمطلوب من السلطة الفلسطينية وقف العمل باتفاقات أوسلو الساقطة، والتي مزقها الاحتلال وتجاوزها، والعمل على رص الصفوف وتجاوز الخلافات، وإسكات كل المشككين والمهرولين نحو سلامٍ زائفٍ لا يمكن تحقيقه مع الصهيونية الدينية المتمثلة «بنبي إسرائيل الجديد» نتنياهو، والعمل بروح «اتفاق بكين» الذي اتفقت عليه كافة فصائل العمل الوطني، والذي ينهي الانقسام ويعيد اللّحمة والوحدة الوطنية، ورد الاعتبار لمنظمة التحرير الفلسطينية على أرضية الميثاق الوطني الفلسطيني.

إن نزف دم غزة لن توقفه بيانات الاستنكار والشجب والإدانة، بل توقفه إجراءات رادعة وعقوبات مجدية ترقى إلى حجم الجرائم الصهيونية المتواصلة منذ قرابة عامين والتي باتت تشكل وصمة عارٍ على جبين البشرية والتاريخ الإنساني.

هل ينجح الرئيس ترامب بإنهاء الصراع الروسي-الأوكراني؟!

محمد صوان - كاتب سياسي فلسطيني - تركيا

التأمت القمة الأمريكية - الأوكرانية بحضور أوربي من «تحالف الراغبين» يوم 2025/8/18 في البيت البيضاوي، وذلك لبحث نتائج «قمة ألاسكا» التي عقدت يوم 2025/8/15 بين الرئيس ترامب ونظيره الروسي بوتين، وإفرازاتها.. وبدا واضحاً أن ترامب بلّغ الوفد الأوروبي المرافق للرئيس زيلنسكي شروط بوتين لوقف الحرب في أوكرانيا.. والقاضية بتخلي كييف عن منطقة دونباس، التي تضم إقليميْ لوغانسك ودونيتسك الإستراتيجية والغنية بالثروات لتحقيق السلام.

في السياق كشفت قناة فوكس نيوز الأمريكية المقربة من ترامب يوم 2025/8/17 أن واشنطن تدعم اقتراح موسكو بأن «تسيطر الأخيرة بالكامل على منطقة دونباس» كما أكد وزير الخارجية الأمريكي روبيو دعم بلاده أيضاً «لتهدئة الخطوط الأمامية في أماكن أخرى مثل زابوروجيا وخيرسون»، وفي هذا الصدد كشف وزير الخارجية الروسي لافروف في تصريح لوكالة رويترز «أن موسكو يمكن أن تتخلى عن جيوب صغيرة تسيطر عليها في أوكرانيا، مقابل تخلي كييف عن مساحات من أراضيها في شرق البلاد».. وبحسب وكالة رويترز فإنه على الرغم من أن قمة ألاسكا «فشلت بالتوصل لاتفاق يقضي بوقف إطلاق النار»، إلا أن ترامب قال لقناة فوكس نيوز إنه «ناقش مع بوتين نقل ملكية الأراضي والضمانات الأمنية لأوكرانيا» وأضاف «أعتقد أننا قريبون جداً من التوصل إلى اتفاق».

لقد أطلع ترامب القادة الأوربيين «تحالف الراغبين» والرئيس زيلينسكي على مناقشات قمة ألاسكا، ولم يتضح حتى اليوم ما إذا كانت المقترحات التي قدمها بوتين مناورة افتتاحية لتكون نقطة انطلاق للمفاوضات المزمعة بين الرؤساء الثلاثة، بوتين وترامب وزيلينسكي، وفي ظاهر الأمر فإن بعض المطالب على الأقل، من شأنها أن تمثل تحديات كبيرة للقيادة الأوكرانية وأوروبا على السواء لقبولها!..

يستبعد عرض موسكو وقف إطلاق النار قبل التوصل إلى اتفاق شامل، وبضمنه الاعتراف الرسمي بالسيادة الروسية على شبه جزيرة القرم، التي استردتها موسكو من كييف عام 2014 ، ولم يتضح ما إذا كان ذلك يعني اعترافاً أمريكياً وغربياً.. علماً بأن كييف وحلفاءها الأوروبيين يرفضون الاعتراف الرسمي بسيادة موسكو على شبه جزيرة القرم.. كما تضغط موسكو أيضاً لرفع مجموعة من العقوبات المفروضة عليها على الأقل، ومع ذلك لم يتم تحديد ما إذا كان هذا ينطبق على العقوبات الأمريكية والأوروبية، إضافة إلى منع أوكرانيا من الانضمام إلى حلف شمال الأطلسي «ناتو» رغم أن الرئيس بوتين بدا منفتحاً على حصول أوكرانيا على نوع من الضمانات الأمنية.. وقال الزعماء الأوروبيون – تحالف الراغبين – إن «ترامب ناقش الضمانات الأمنية لأوكرانيا خلال محادثاتهم، وبضمنها فكرة ضمانات على غرار المادة الخامسة من النظام الأساسي لحلف شمال الأطلسي الذي ينص على أن «أي هجوم يتعرض له أحد أعضائه يعتبر هجوماً على الجميع بموجب البند الخامس من المادة الخامسة»!

حيال هذه القضايا المثارة اعتبر المبعوث الأمريكي ستيف ويتكوف، الذي اجتمع مع الرئيس بوتين عدة مرات، أنهما «اتفقا على ضمانات أمنية قوية ستغيّر قواعد اللعبة» مضيفاً في حديث لقناة « n n c» الأمريكية أنه « كنا وسطاء في ألاسكا كما دعمنا وجهة النظر الأوكرانية بوضوح «وتابع: «كانت روسيا مرنة بخصوص الأقاليم الأوكرانية التي سيطرت عليها، وهي : دونيتسك ، لوغانيسك، زابوروجيا، خيرسون، القرم التي تريدها موسكو والتي كانت دائماً من وجهة نظرنا جوهر الاتفاق»، مشيراً إلى أن «تبادل الأراضي بين روسيا وأوكرانيا جوهري في الاتفاق»، ولفت إلى أنه «أجرينا نقاشاً جيداً مع زيلينسكي وتحالف الراغبين من الأوروبيين في البيت الأبيض، وسنناقش تبادل الأراضي والضمانات الأمنية في القمة الثلاثية التي ستجمع بوتين وترامب وزيلينسكي في القريب العاجل لأننا عازمون على التوصل لاتفاق سلام دائم وبسرعة كبيرة»!.

• المفاوضات في ميزان الربح والخسارة:

ليس من الصواب التسرع بإعطاء أحكام حول نتائج المفاوضات التي جمعت بوتين وترامب في ألاسكا ومن ثم المفاوضات التي جمعت ترامب وزيلينسكي والقادة الأوروبيين من «تحالف الراغبين» في واشنطن، فإذا استخلصنا من تصريحات المفاوضين في المؤتمرات الصحفية التي تلت لقاءاتهم، فجميعها كانت إيجابية ومثمرة بالنسبة إليهم، رغم أن القمتين، وكما كان متوقعاً لم تصلا إلى توافق بشأن سيناريو إنهاء الحرب في أوكرانيا، فالموضوع أكثر تعقيداً وتداخلاً ومتعدد اللاعبين من أن يحسم في قمة أو قمتين غاب عن إحداهما الرئيس الأوكراني زيلينسكي وكذلك بالنظر إلى حجم الضغوط الأوروبية التي مورست وتمارس على الرئيس ترامب محذرة إياه من الوقوع في «المصيدة» التي ينصبها له الرئيس بوتين، ورغم ذلك أعلن الجانبان عن توافق أولي يفتح الباب أمام لقاءات مقبلة، بالرغم من عدم التعويل على تصريحات الرئيس الأمريكي التي ربما تنفيها تصريحات لاحقة له بعد ساعات أو أيام كما عهدنا ذلك منه، خاصة في الفترة الأخيرة، ولكن يستشف مما قاله أن قناعاته السابقة بضرورة تقديم أوكرانيا تنازلات لا بد منها لحل الصراع قد تعززت، حين قال لزواره الأوربيين:» إن الكرة باتت في ملعب الرئيس زيلينسكي لإبرام اتفاق سلام» مشيراً إلى أن روسيا قوة كبيرة من الصعب هزيمتها، وزاد على ذلك بقوله: «إن روسيا مهتمة بصدق بوضع حد للصراع» داعياً إلى أخذ «مخاوفها المشروعة بعين الاعتبار» وهي شهادة تطرب موسكو لسماعها، وقد أعاد بوتين التأكيد عليها في المؤتمر الصحفي:» قلت أكثر من مرة إن الصراع في أوكرانيا بالنسبة لروسيا مرتبط بتهديدات أساسية لأمنها القومي»!.

لقد سبق لترامب أن خاطب الأوروبيين بقوله: «انظروا كم انفقتم من الأموال على هذه الحرب العبثية دون أن تفلحوا بإنهائها لصالح كييف» وبعد قمة ألاسكا حثّهم على التدخل لإقناع زيلينسكي بقبول التفاهم مع الرئيس بوتين، الذي قد يجلب السلام إلى أوكرانيا دون أن يقدم أي تفاصيل حوله، ومن أجل أن يبدد مخاوف أوروبا حذر بوتين من «محاولات تعطيل التقدم الناشئ عبر الاستفزازات والمكائد الخفية»!.

اهتمت وسائل الإعلام بلغة الجسد في لقاء القمتين، كي تستشف منها مقدار الانسجام أو التنافر بين الرؤساء، فخلصت معظمها إلى أن الجميع ظهروا سعداء بالمناقشات، خاصة الرئيس بوتين الذي وطأت قدماه للمرة الأولى أرضاً غربية منذ بداية الحرب الأوكرانية، وقالت هذه الوسائل «إن لقاء بوتين و ترامب تخللته حركات ودية بين الرجلين»، إذ صفق الثاني للأول وهو يقترب منه، ثم مد بوتين يده بابتسامة دافئة نحو ترامب الذي جذبه نحوه، وربت على كتفه، مما يعكس علاقة حقيقية ليست عدائية، وأن الانطباع العام عن اللقاءات بين الرؤساء يوحي بالراحة والثقة بين الجميع!. علينا أن نراقب ونتابع الأيام والأسابيع المقبلة لنرى إلى أي مدى تصبح التفاهمات التي جرى التوصل إليها نقطة انطلاق نحو البدء في إنهاء الصراع الروسي- الأوكراني واستعادة العلاقات الأمريكية – الروسية، يتزايد الحديث – مع عودة ترامب الثانية إلى البيت الأبيض- عن إمكانات هائلة للبلدين لبناء شراكة اقتصادية واستثمارية في مجالات مثل الطاقة والتكنولوجيا واستكشاف الفضاء، لكن الثابت أن الطريق نحو ذلك طويل، إلا إذا نجح ترامب في حمل زيلينسكي ومعه الأوروبيين على قبول التسوية التي يراها هو واقعية وممكنة، وإلا فالبديل استمرار الحرب سنوات أخرى، وتكبد مزيد من الخسائر في الأرواح والأموال، وهو ما لا يتوافق مع رؤية ترامب الذي يقدم نفسه في الولايات المتحدة وخارجها بأنه رجل الصفقات الرابحة، ويشغله هذه الأيام هَوَس أن يقدم نفسه «صانعاً للسلام» وأهلاً لجائزة نوبل التي تحمل نفس الاسم!..

الإبادة الجماعية والتطهير العرقي سياسة استعمارية متوارثة!

إلهام الحكيم ـ كاتبة سياسية فلسطينية ـ تركيا

يقول مايكل هولي إيجل، من نشطاء الهنود الحمر: «تاريخنا مكتوب بالحبر الأبيض، إن أول ما يفعله المنتصر هو محو تاريخ المهزومين، و يا الله، ما أغزر دموعهم فوق دماء ضحاياهم، وما أسهل أن يسرقوا وجودهم من ضمير الأرض هذه واحدة من الإبادات التي واجهناها و سيواجهها الفلسطينيون كذلك.. إن جلّادنا المقدّس واحد»!

ربما يتزامن صدور هذا العدد «الهدف» مع «اليوم الدولي للسكان الأصليين في العالم» 9 أيلول الذي تم اختياره احتفاءً بأول اجتماع عقده فريق الأمم المتحدة المعني بالسكان الأصليين عام 1982 في جنيف لإذكاء الوعي باحتياجات تلك المجموعات السكانية.. هذا اليوم حفّز لديّ دافع الكتابة عن واقع أليم ألمَّ بالعديد من الشعوب التي تعرضت للإبادة الجماعية والتطهير العرقي على يد شعوب أخرى متطفّلة يغلب عليها الطابع الاستعماري الإجرامي الطامع بالاستيلاء على مقدّرات الآخرين بحجة أنها تمثل العرق الأفضل المستحق للبقاء!. وربما كان وعد بلفور عام 1917 دافعاً قوياً للصهاينة لممارسة سياسة إبادة الفلسطينيين منذ اللحظة الأولى لإطلاقه ومنح الأرض الفلسطينية لهم كونها خالية من السكان ومن حق اليهود الاستيلاء عليها باعتبارهم – شعب بلا أرض – هذه الكذبة التي خطّط لها السياسيون الصهاينة وتلقّفوها فور إطلاقها وبدأت دعوتهم لهجرة اليهود من مختلف أنحاء العالم واحتلالها وإحلالهم فيها بدل الفلسطينيين أصحابها الشرعيين الذين كانوا يخضعون للانتداب البريطاني – صاحب الوعد الكاذب – متمسكين بجملة «أرض بلا شعب» التي تضمّنها الوعد.. وطبعاً هذه السياسة الاستيطانية للصهاينة بدل الفلسطينيين لم تكن الأولى فقد سبقتها العشرات بل المئات من المجازر الإبادية والتطهير العرقي تحقيقاً لمقولة «البقاء للأقوى» في مختلف مناطق العالم، والتي يحاول الصهاينة الإيحاء دوماً أن «الهولوكوست النازي» هو المجزرة الوحيدة بالعالم متجاهلين الكثير من المجازر السابقة واللاحقة وأن مجازرهم في فلسطين وتصرفهم اللاأخلاقي في غزة يعتبر امتداداً لمجازر مَهولة مورست بحق الهنود الحمر الأصحاب الشرعيين للأرض المجهولة التي وصلها كريستوف كولومبس بالخطأ عام 1492 ظناً منه أنها الهند لكنه عندما علم أنها ليست الهند وبما أن لون سكانها يميل للحمرة أطلق عليهم «الهنود الحمر» لتمييزهم عن الهنود الآسيويين، وهذا دلالة على الرؤية الأوروبية الاستعمارية ونظرتها للآخر وإطلاق التسميات والألقاب حسب تصوّر صاحب البشرة البيضاء! كما أطلقوا على أول مستعمرة فيها اسم «إنكلترا الجديدة» ومع اكتشاف البحار الإيطالي « أمريكو فسبوتشي « لخليج المكسيك عام 1507 تم تسمية هذا العالم الجديد «قارة أمريكا».. وكان يقطنها حسب بعض الدراسات بين «50 إلى 100 مليون نسمة» عام 1500م موزعين كقبائل وعشائر على الأمريكيتين الشمالية والجنوبية منذ 15 ألف سنة، تؤكد الوثائق التاريخية أن كولومبس حثّ الأوروبيين على احتلال تلك الأرض وجاء

بإحدى رسائله: «هؤلاء السكان يجب أن يكونوا خدّاماً جيدين وأتباعاً مخلصين للكنيسة»، هذه الدعوات فتحت شهية المستعمِرين فتتالت الرحلات الأوربية الاستكشافية لتلك الأرض، وأخذت لاحقاً الطابع الاستعماري الاستعلائي المجسّد بارتكاب المجازر الوحشية بحق السكان الأصليين كونهم أقل منزلة من «الرجل الأبيض» فهم همج وبدائيون وكائنات منحطة بالوراثة «وحوش لا تعقل ويأكلون زوجاتهم وأبناءهم»!.. بدأت بعض الدول الأوروبية «البرتغال، بريطانيا، فرنسا، إسبانيا، هولندا، السويد، الدانمارك» باحتلال أراضيهم وتقاسم النفوذ فيما بينهم، إضافة لاستعبادهم وفرض الضرائب عليهم واستغلال ثرواتهم الطبيعية والكنوز الهائلة فيها، وتهجيرهم من مناطقهم الحيوية الخصبة إلى مناطق قاحلة لا تصلح للعيش بهدف اقتلاعهم من جذورهم وطمس وجودهم وتغيير التركيبة السكانية والهوية الثقافية لهم! رفض السكان الأصليون هذه السياسة الاستيطانية.. تتالت انتفاضاتهم وخاضوا كفاحاً مسلحاً ضد «الإسبان والفرنسيين والبريطانيين» لكنهم انهزموا لعدم التكافؤ بالخبرة والعتاد، تناقصت أعدادهم بشكل كبير بسبب الحروب والمجازر الجماعية والمجاعات والأوبئة التي جرّتها عليهم تلك الحملات الهمجية حتى وصل عددهم إلى أقل من «280 ألف» هندي أحمر نهاية القرن التاسع عشر بما يعني القضاء على أكثر من « 95% » من السكان الأصليين بأسلوب مخطط له خاصة على يد البريطانيين الذين استعبدوهم «بيع وشراء أسرى الحروب كعبيد»!، يقول كلاوس كونور الأستاذ بجامعة برينستون:» إن الإنكليز هم أكثر القوى الاستعمارية الأوروبية ممارسة للإبادات الجماعية، فهدفهم في العالم الجديد كأستراليا ونيوزيلندا وكثير من المناطق التي يجتاحونها هو إفراغ الأرض من أهلها وتملّكها ووضع اليد على ثرواتها» – الإنكليز أساس نكبتنا - ! تتالت الانتفاضات ضد الولايات المتحدة الأمريكية بعد سقوط الاستعمار الإنكليزي عام 1776 لكن الحكومات الأمريكية واصلت حملات الإبادة والتهجير ضدهم وقتلت المدنيين ودمّرت المزارع وكانت ذروة الإبادة بين عامي» 1839 1929- « وفي 28 أيار 1980 أصدر الكونغرس قانون «إبعاد الهنود» لإبعادهم إلى أراض فيدرالية غرب الميسيسيبي ضمن تجمعات سكانية للهنود» أمم محلية تابعة «تتمتع بالسيادة على مناطقها وسكانها دون التمتع بالاستقلال الكامل! يقابل ذلك التخلي عن أراضيهم للمهاجرين الأوروبيين!.. كما يتوزع «الهنود الحمر » كأقليات في العديد من دول أمريكا اللاتينية، وكندا التي تطلق عليهم «الأمم الأولى»!..

- الجدير ذكره نكران السياسي والمسؤول الأمريكي للمجازر التي ارتكبها أسلافه بحق السكان الأصليين لأمريكا ولا يدرّسون بمناهجهم سوى الهولوكوست ضد اليهود ! كما ينكرون حق الهنود الحمر بالاستقلال والسيادة الوطنية على أراضيهم التي هجّروا منها واستوطنها الغربيون بدلاً منهم، والحقيقة أن غالبية الأمريكيين هم من المهاجرين بمن فيهم ترامب الرافض لمئات الآلاف من اللاجئين بحجج كاذبة واهية!..

إبادة الصهاينة للفلسطينيين بمباركة أمريكية أوروبية:

عَوْد على بدء.. بالنظر إلى ما يحصل في غزة من عدوان صهيوني نازي بشتى أنواع الأسلحة الفتاكة ضد الشعب الفلسطيني واستهداف المسنين والنساء والأطفال بما فيهم الرضع وحتى الأجنة في الأرحام خاصة، نجد أنها سياسة مدروسة ممنهجة منذ اللحظة الأولى لبدء الاعتداء قبل قرابة العامين!.. لم تترك حكومة الاحتلال وسيلة إبادة إلا واتبعتها حرصاً منها على التخلص من أكبر عدد من اللاجئين الفلسطينيين الذين يمثلون معظم أهالي القطاع وبهذا تضرب عدة عصافير بحجر واحد! فهي تنهي وجود اللاجئين في غزة وبالتالي تلغي حقهم بالعودة إلى ديارهم التي هجّروا منها قبل ثمانية عقود ويتمسكون بتنفيذ القرار الأممي بعودتهم إلى مدنهم وقراهم وبلداتهم! كذلك يزحف الخوف إلى الحاضنة الشعبية للمقاومة في غزة فيطالبوها بالتوقف والاستسلام حرصاً على أبنائهم! كما يتسلل الرعب في قلوب أخوة لهم في الضفة الغربية والقدس والداخل المحتل خوفاً من امتداد العدوان الفاشي تجاههم! لم يوفر الصهاينة وسيلة إبادة وتطهير عرقي إلا اتبعوها ضد أبناء الشعب الفلسطيني باعتبارهم «حشرات بشرية» وكائنات يجب إبادتها على غرار التبريرات الاستعمارية الغربية ضد الهنود الحمر قبل قرون لهذا ارتكب الاحتلال جرائم ضد الإنسانية من خلال «القصف، التدمير، الحرق، القنص، التجويع، التعطيش، منع الأدوية» وغيرها بهدف الترويع والتهجير القسري للسكان وإجبارهم على الإخلاء بناءً على طلبهم «الهجرة الطوعية» خارج غزة بما يعني استبدالهم بالمستوطنين والمرتزقة الغربيين! والسيطرة على الأرض وثرواتها واستثمارها من قبل التجار بمباركة من الإدارة الأمريكية برئاسة ترامب الذي يدّعي رعايته لمفاوضات السلام وإنهاء العدوان لكن الواقع يؤكد التنسيق الكامل الصهيوأمريكي والاتفاق على سحق شعب ليحل مكانه شعب آخر مقتدياً بما فعل أجداده بالهنود الحمر وبما يخدم السياسة العنصرية «الأبارتهايد» التي تعتبر استمراراً لحرب الإبادة الجماعية للإيغور ومذابح الصرب في البوسنة والهرسك، والمجازر ضد الروهينجا في ميانمار، وقبلها مجازر المغول والتتار وغيرها الكثير من فقْد البشر لإنسانيتهم طمعاً بأملاك الغير وحباً بالتملّك والسيطرة على حساب شعب آخر وطبعاً لا يمكن نسيان السياسة المتوحشة الغربية ضد كل الدول التي استعمرتها خلال القرن الماضي ومنها كافة الدول العربية فهل ننتظر من تلك الدول وزعمائها الوقوف بوجه العدوان الصهيوني ضد الشعب الفلسطيني الذي تمنحه الشرعية الدولية حق المقاومة والدفاع عن النفس كونه من السكان الأصليين لبلده فلسطين ؟!

- **المصادر:**

الجزيرة نت، ويكيبيديا، مواقع نت.

حرب الإبادة في غزة
جوهر الإيديولوجيا الصهيونية العنصرية

د. علي زيدان – باحث وكاتب سياسي من لبنان

كشفت حرب الإبادة الجماعية الشاملة في غزة الواقع المرير الذي يعيشه الشعب الفلسطيني ومؤسساته الوطنية المتهالكة، كما كشفت حقائق كثيرة، عن العجز العربي المخزي، والوجه القبيح للولايات المتحدة الأمريكية ومعظم الدول الأوروبية المؤيدة للكيان الصهيوني والداعمة له. هذه المواقف ليست جديدة، بل هي جزء من الأيديولوجيات النازية والفاشية التي كانت منتشرة في الدول الغربية، وتعود إلى الظهور مرة أخرى.

اليوم أصبحت هذه المواقف العنصرية ظاهرة أكثر بسبب المواقف المؤيدة لاستمرار الحرب ضد الفلسطينيين في غزة، والموافقة على استخدام التجويع ومنع وصول الأغذية عبر المعابر الحدودية، بالإضافة إلى تزويد الكيان الصهيوني بأحدث أسلحة القتل والتدمير الشامل. حاول الفلسطينيون أن يتغاضوا عن طبيعة هذه الأيديولوجيات العنصرية، وتصديق الشعارات الجوفاء حول الحرية والمساواة والإخاء والديمقراطية، إلا أن الواقع واستمرار الحرب، والضغط على الفلسطينيين من أجل إطلاق سراح الأسرى الصهاينة دون الالتفات إلى الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني يؤكد هذه الحقائق دون لبس، وأن العقائد الاستعمارية للرجل الأبيض لم تتغير. وعليه فإن حرب الإبادة الجماعية المستمرة منذ أكثر من 650 يوماً قد جاوزت كل الأحداث السابقة عبر التاريخ. وتُعيد إلى الأذهان المجازر البشعة التي ارتكبها الرجل الأبيض ضد الشعوب الأصلية في أمريكا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا. وصعود النازية والفاشية في أوروبا. المُستَعمِر واحد، وصِفات الإجرام واحدة، ولكن تغيرت أدوات الجريمة. صارت أكثر عصرية، وقدراتها التدميرية هائلة جداً، لتحقق أكبر عدد من الضحايا من الأطفال والنساء والكبار في السن. وصار استهداف المستشفيات ومراكز الإيواء ومراكز توزيع الأغذية عملاً روتينياً يقوم به القتلة بدم بارد كل يوم دون احتجاج دولي أو عربي. لقد تفوق مجرمو الحرب الصهاينة على حلفائهم النازيين بوحشيتهم وأساليب إجرامهم وفنون القتل والتدمير التي يقوم بها الجيش والمستوطنون الصهاينة على السواء ضد السكان الفلسطينيين الأصليين. لقد تحالفت المنظمات اليهودية الصهيونية مع الحكومة النازية في ألمانيا، وتعاونت معها منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية وتبنت أساليبها، من أجل دفع اليهود الألمان للهجرة إلى فلسطين. وقد تبين أن هذا التعاون بالرغم من بعض التناقضات الشكلية كان مبنياً على المصالح المشتركة، ولعل أبرز أشكال هذا التعاون هو اتفاقية هعفراه (Haavara Agreement)[1] التي تم توقيعها في عام 1933 بين ألمانيا النازية والاتحاد الصهيوني العالمي، والتي تضمنت تهجير اليهود إلى فلسطين وتحويل ثرواتهم إلى حساب في البنك الإنجليزي-الفلسطيني في تل أبيب ودعم الاقتصاد الألماني. لقد نجحت تلك الاتفاقية بتسهيل هجرة آلاف اليهود إلى فلسطين مما ساهم في دعم مشروع الاستيطان الصهيوني بتدبير ومساعدة دولة الاحتلال آنذاك بريطانيا. الضحية لا يُمكن أن تصبح قاتلاً أو جلاداً. لكن، هذا دأب المجرمين والقتلة أينما حلوا. لقد ارتكبت العصابات الصهيونية المجازر الدموية منذ عام 1948 وقامت بعمليات الإبادة والتطهير العرقي من أجل طرد الفلسطينيين خارج أرضهم. هذه الممارسات الوحشية الممنهجة لم تكن وليدة الظروف العسكرية بل كانت من صلب العقيدة الصهيونية. وينبغي القول إن هذه المرحلة الحالية التي يمر بها الشعب الفلسطيني في قطاع غزة والضفة الغربية تُعد واحدة من أحلك الفترات في تاريخ البشرية، ليس فقط بسبب مدتها الطويلة التي قاربت السنتين، وعدد الضحايا الهائل من المدنيين العزل، بل أيضاً بسبب الجرائم البشعة المُمَنهجة التي يرتكبها مجرمو الحرب الصهاينة سواء في الجيش أو في الحكومة، سواء كانوا قادة سياسيين أو قادة عسكريين. الأيديولوجيا الصهيونية هي أيديولوجية عنصرية دينية متطرفة مبنية على الحقد والكراهية ضد الفلسطينيين وضد العرب وشعوب العالم الأخرى، أو الأغيار، حيث تعتبرهم النصوص التلمودية أدنى درجة، وهذا ينعكس بقسوة على المواطنين الفلسطينيين في أراضيهم المحتلة منذ عام 1948. لقد استخدم مجرم الحرب رئيس الحكومة الصهيوني الحالي النصوص الدينية في خطاباته لتبرير حرب الإبادة على غزة،

1- https://en.wikipedia.org/wiki/Haavara_Agreement

حيث جرد الفلسطينيين من إنسانيتهم ووصفهم بأبناء الظلام، زاعماً أنهم قوة شريرة، وينبغي هزيمتهم، ووصفهم بالعماليق الذين أمر «الرب» بقتلهم بما في ذلك قتل الرجال والنساء والأطفال والحيوانات. هذا الخطاب العنصري المستند إلى نصوص دينية يهدف إلى تبرير حرب الإبادة الجماعية ضد الفلسطينيين. لقد كتب إسرائيل شاحاك[2]، أحد الأكاديميين اليهود دراسة نقدية لهذه الأيديولوجيا العنصرية، التي شكلت نظاماً اجتماعياً يفصل اليهود عن غيرهم بطريقة منهجية وينظر إليهم بطريقة عنصرية وإقصائية. وقد استند الكاتب إلى نصوص من التلمود وقصص واقعية عن القتل المتعمد ومصادرة الأراضي لتحليل الممارسات والسياسات التي ينتهجها الكيان الصهيوني ضد الفلسطينيين سواء في الأراضي المحتلة منذ عام 1948 أو في الضفة الغربية وقطاع غزة. ويؤكد أن هذه السياسات والممارسات العسكرية لها جذور دينية عميقة، ومن ضمنها صياغة التحالفات مع قوى استعمارية ومعادية للديمقراطية من أجل تحقيق مصالحها الخاصة، كما في حالة التحالف مع الحكومة النازية في ألمانيا. ويستنتج الكاتب شاحاك في النهاية أن هذه الأيديولوجيا الإقصائية العنصرية في شكلها الحالي تشكل تهديداً للقيم الإنسانية العالمية وللديمقراطية الليبرالية ليس فقط في الكيان الصهيوني بل في أي مكان تتواجد فيه. ونظراً لهذه السمات الإجرامية أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ 10 تشرين ثاني/ نوفمبر 1975 القرار رقم 3379 الذي ساوى بين الصهيونية والعنصرية، واعتبرها شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري، وطالب القرار جميع دول العالم بمقاومة الأيديولوجية الصهيونية التي تشكل خطراً على الأمن والسلم العالميين. ومع ذلك ألغي القرار بسطر واحد نتيجة تدخل الإدارة الأمريكية بموجب القرار 86/46 يوم 16 كانون الأول / ديسمبر 1991 وبالتحديد بعد انعقاد مؤتمر مدريد للسلام المزعوم[3] الذي هلل له العرب وبعض الفلسطينيين. لا يحتاج الأمر إلى عناء في التفكير والتحليل لمعرفة أن الولايات المتحدة الأمريكية هي أيضاً شريك رئيس في العنصرية والإجرام خاصة فيما يتعلق بالشعب الفلسطيني. بالإضافة إلى ذلك، اعتبر بعض المؤرخين الجدد مثل إيلان بابيه[4] وآفي شلايم[5] أن الحركة الصهيونية هي حركة قومية ذات أيديولوجيا إقصائية بطبيعتها هدفت إلى إنشاء دولة يهودية على حساب السكان الأصليين. وأن عملية طرد السكان الفلسطينيين عام 1948 من أرضهم كانت عملية تطهير عرقي متعمدة وممنهجة خططت لها القيادة الصهيونية آنذاك. ومنذ ذلك الحين والقيادات الصهيونية المتتالية ترفض أي فرصة للسلام أو المصالحة القائمة على الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وأن هذه الأيديولوجيا الإقصائية تبنت عقيدة الجدار الحديدي التي ترى أن الصراع مع العرب لا يمكن حله إلا بالقوة العسكرية. غير أن الحكومات العربية التي انصاعت للإرادة الأمريكية الصهيونية سعت إلى عقد تحالفات مع الكيان الصهيوني أدت إلى عقد اتفاقيات سلام مزعوم، مثل اتفاقيات أوسلو ووادي عربة ناهيك عن الاتفاقيات الإبراهيمية التي أصبحت موضة العصر. لقد فاقت أهوال الحرب والإبادة في غزة كل تصور. حتى منظري الحركات النازية يخجلون من هول الجرائم والفظائع التي يرتكبها مجرمو الحرب الصهاينة. هذه الإبادة الجماعية تتم برعاية أمريكية ودعاية كاذبة تستغل معاناة الناس العزل بطريقة ممنهجة حيث يتم فرض حصار شامل ومنع إدخال الغذاء والدواء وفرض التجويع على المدنيين ومن ثم إيهام الجوعى بوصول المساعدات الغذائية إلى مراكز توزيع الأغذية التي تديرها القوات الأمريكية، وعندما يأتي المواطنون لاستلام الأغذية المغشوشة يتم إطلاق النار عليهم من دون تمييز فيموت الجوعى يومياً بالعشرات من النساء والأطفال وكبار السن. أين الأخلاق والإنسانية؟ أين النخوة والعروبة ورابطة الدين؟ لقد أصبح قطاع غزة أسوأ معسكر إبادة في العالم، حيث اللقمة مغموسة بالدم، وحيث عمليات القتل والتدمير ضد المراكز الصحية ومراكز توزيع الغذاء أصبحت أسوأ أشكال القتل الجماعي. إن فظائع حرب الإبادة في غزة ليست مجرد أحداث فردية يقوم بها بعض الجنود أو القادة العسكريين أو السياسيين، وليست أحداثاً نتيجة لضغوط الحرب، بل هي نتيجة الأيديولوجيا الصهيونية العنصرية المتطرفة المعادية للفلسطينيين وللعرب ولشعوب العالم وللإنسانية جمعاء كما وصفها قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 3379. أيضاً حرب الإبادة هذه ليست حرب ضد حماس أو الحركات الدينية المتطرفة كما تدعي بعض الحكومات العربية. بل هي حرب إبادة ممنهجة ضد الشعب الفلسطيني بكل فئاته ومقوماته. وعليه، فإنه يقع على عاتق القوى التقدمية والقوى المحبة للسلام في دول العالم المختلفة ملاحقة ومحاكمة مجرمي الحرب الصهاينة أمام المحاكم الدولية. وينبغي على الدول التي تحترم القيم الإنسانية وتنبذ الأيديولوجيات العنصرية الاستعمارية العمل على إحياء القرار الأممي 3379 الذي يدين العقيدة الصهيونية ويقارنها بالفاشية والنازية. وعلى الدول العربية أن تعيد النظر بمواقفها الداعمة للكيان الصهيوني واتخاذ المواقف العروبية الصحيحة وأن تقطع العلاقات مع الكيان الصهيوني، ووقف محادثات التطبيع واتخاذ المواقف التي تجبر الإدارة الأمريكية على وقف حرب الإبادة.

2-إسرائيل شاحاك. الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، وطأة 3000 عام. قدم له إدوارد سعيد. الطبعة الخامسة. شركة المطبوعات للتوزيع والنشر. بيروت 1999.

3- نص القرار على الآتي «تقرر الجمعية العامة نبذ الحكم الوارد في قرارها رقم 3379»

4- إيلان بابيه. التطهير العرقي في فلسطين. ترجمة أحمد خليفة. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت 2007.

5- Avi Shlaim. The Iron Wall, Israel and the Arab World. Penguin Books. London 2001.

نتنياهو والتكليف الإلهي «لوسيفر» القرن الواحد والعشرين؟!

د. محمد عياش - كاتب وباحث سياسي ـ سورية

يقول الكاتب الروائي والفيلسوف اليوناني نيكوس كازانتزاكيس: «إنّ القاعدة الغامضة في مسار التاريخ البشري لا تخطئ: في البداية؛ الشر هو الذي ينتصر، وفي النهاية خسارته حتميّة. لكن ما بين الخسارة والانتصار، الطريق طويل، شاقّ، مليء بالعذاب والألم والدماء، وأكفان الأطفال البيضاء، التي ترشح منها الدماء».

يؤكد المؤرّخ الإسرائيلي إيلان بابيه: «إنّ فهم جوهر الصراعات يكمنُ في التاريخ، لأنه يوفّر الفهم الحقيقي غير المتحيّز للماضي»، كما أنّ تشويه التاريخ أو التلاعب به «يؤزّم المشهد ويجعله أكثر تعقيداً وبعيداً عن الحل». ويقرّ بأنّ تشويه التاريخ يشجّع على انتشار الاضطهاد، ويحمي نظام «إسرائيل» الذي يصفه بالاستعماري والاستيطاني. ليست هذه الشهادة الوحيدة لكبار المؤرّخين اليهود.”

إذا أردنا أن ندرك ماهيّة الأسباب التي ولدت في الماضي، وأدّت إلى النتائج التي نعيشها ونختبرها اليوم، لا سيما ما يتعلق منها بالوضع الدولي السيئ والوضع الداخلي القلق للأمم، فإنه يجب دراسة التاريخ لأن التاريخ يكرّر نفسه دوماً، لأنّ هدف الصراع المستمر ما انفكّ أبداً هو نفسه منذ أزمنة سحيقة، ونعني به الصراع الدائم القديم بين قوى الخير وقوى الشر للسيطرة على العالم.

الذي حدث هو أنّ كلاًّ من قوى الخير والشر انقسمت بدورها إلى جهات عديدة - ولا تزال - وهي تتوزع بين هذه الجهات التي تصارع كل منها جهة من الفئة المعاكسة، وتعمل على حدة في سبيل بلوغ الهدف الذي تسعى إليه الجبهة التي تنتمي إليها.. تتناهى إلى الجماهير هذه الخلافات في الرأي بين هذه الجهات المختلفة عن طريق أجهزة الدعاية والإعلام، ولكن يغلب في هذه الأجهزة أن تستعمل إلقاء الأكاذيب أو نصف الحقائق إلى الجماهير عوضاً عن أن تنقل إليها الحقائق الكاملة غير المزيفة أو المنمقة المتعلقة بأية حادثة وبأي موضوع.

مناسبة الحديث عن التاريخ وتسليط الضوء على الأيادي الخفيّة التي تحرّك وتحبك المؤامرات ليل نهار ما يسمى رئيس حكومة العدو الصهيوني بنيامين نتنياهو، الذي يقرأ من أسفار التوراة عن العماليق ووجوب قتلهم من الطفل حتى الكهل ومن الشجر حتى الحجر، ولكن دون أن يرتدي (الكيباه) على رأسه كما يفعل الكثير من الصهاينة المتشددين.

بالعودة إلى التاريخ.. قفزت إلى الذاكرة جماعة اليهود المتمردة على رسالة موسى وهم جماعة «العجل الذهبي»، هذه الجماعة التي ما التفتت في يوم من الأيام إلى شريعة موسى وظلوا على عهدهم القديم بتأجيج المؤامرات وبثّ الفرقة في المجتمعات التي يسكنون بينها؛ إلى أن وصلت بهم الأمور بالتحديد إلى القرن السابع عشر، حيث عاش رجل دين مسيحي وأستاذ لعلم اللاهوت في جامعة (انغولدشتات) الألمانية يدعى (آدم وايز هاوبت) بيد أنه ارتدّ عن المسيحية ليعتنق الإلحاد وتقمّصت فيه روح الشر الإلحادية بشكل خبيث.

وجد كبار المرابين اليهود في ألمانيا بغيتهم فيه، حيث كلّفوه بمراجعة بروتوكولات حكماء صهيون القديمة وإعادة تنظيمها على أسس حديثة بهدفِ وضعِ خطة للتمهيد لكنيس الشيطان للسيطرة على العالم عن طريق فرض عقيدة الإلحاد والشر على البشر جميعاً، أو على الأصح على من يتبقّى منهم في

حال نجاح المؤامرة في تدمير المجتمعات والشعوب والأمم وإثارة المجازر والمذابح والثورات وإقامة الأنظمة الإرهابية الدموية وتخريب الحكومات القائمة على مبادئ الخير والعقائد الصحيحة.

نتنياهو يعتبر نفسه وريث وحامل راية الخير بوجه العالم الذي يشك بأحقية «إسرائيل» في العيش. وبالتالي فإن النظرة للحوييم أي من غير اليهود، تبقى ثابتة من وايزهاوبت إلى نتنياهو، ولا أبالغ في أن الصهيونية العالمية استطاعت استيلاد الشيوعية مقابل النازية وأنّها وآلتها الإعلامية من روّجت للإلحاد الأحمر (الشيوعية) والأزرق (النازية) بعد أن تشرّبوا من تعاليم وايزهاوبت ووصاياه المدوّنة في كتب كثيرة.

يعني ذلك أن نتنياهو (لوسيفر) حامل الضوء أو النور باللغة اللاتينية، وعليه فإن العالم بأمسّ الحاجة إليه في الوقت الراهن لأنه «المخلّص» والمنقذ من الشر القادم من الشرق، وأدواته معروفة مسبقا ً المعاداة للسامية، وأعداء الحضارة مع بروز مصطلح، «الحيوانات البشرية» الذي وصف به المقاومة الإسلامية في قطاع غزة، مع توجيه النصائح للدول الأوروبية بمساندته ودعمه بالقضاء عليها لأنها ستصل واشنطن ولندن وباريس في حال انتصرت حسب زعمه.

اعتقد نتنياهو بعد الصدمة التي شكلتها المقاومة الفلسطينية يوم السابع من أكتوبر 2023 والتي أسمتها "طوفان الأقصى" أن الفرصة سانحة للتخلص نهائيا ً من المقاومة وبالتالي أقدم على عملية برّية خاف منها رئيس العدو السابق أرئيل شارون وانسحب دون اتفاق مخلفا ً وراءه المستوطنات والمستوطنين الذين هربوا بقضهم وقضيضهم؛ وذلك نتيجة للضربات القوية التي تلقاها من المقاومة الباسلة التي لقنته درسا ً في العلوم العسكرية واللوجيستية.

مغامرة نتنياهو في القطاع لم تكن وليدة الحسابات العسكرية الدقيقة والتباين في العدة والعتاد، إنما لحسابات الهروب من المساءلة والمحاكم التي تطارده ليل نهار. أما اليوم ومع اقتراب الحرب من سنتها الثانية ومع الإقرار والقناعة بالفشل العسكري الواضح، والذي أكده رئيس الأركان المُقال هريتسي هاليفي وجنرالات عدة بصعوبة القضاء على المقاومة في غزة، وآخرها تحفظات رئيس الأركان الحالي إيال زامير، وتقاريره التي لم يؤخذ بها عند نتنياهو والتحالف المتشدد، والتي أشار من خلالها باستحالة القضاء والتخلص نهائيا ً من الحركات التحررية، وأن الأمر يحتاج إلى سنوات ومزيدٍ من الصبر والمصابرة!

وكان نتنياهو قد قال خلال مقابلة مع قناة «آي 24» الإسرائيلية الثلاثاء 8/19/ 2025»أشعر أنني في مهمة تاريخية وروحانية، وأنا مرتبط عاطفياً برؤية إسرائيل الكبرى». يتحدث عن أمنياته وأسماره، وكأنه تخلص من المقاومة متناسيا ً العناوين التي انتقاها للرد على المقاومة بدءا ً من السيوف الحديدية، ومرورا ً بعربات جدعون الأولى وليس انتهاء بعربات جدعون الثانية التي يريد من خلالها احتلال مدينة غزة وتهجير أهلها إلى الجنوب.. على كل حال له الأحلام ولنا الواقع الذي يسجل التاريخ لأول مرة بتجاوب العالم مع المظلومية الفلسطينية، وامتعاض الكثير من الدول الغربية من السياسات الإجرامية الصهيونية، ناهيك عن الاعترافات المقبلة بالدولة الفلسطينية وهذه المرة من فرنسا وبريطانيا وأستراليا والكثير يسير على نفس النهج.

إن نتنياهو وزمرته اليمينية المتشددة تسير نحو الهاوية بالرغم من الإعلان عن المزيد من المستوطنات المزمع قيامها في الضفة الغربية وفصل شمالها عن جنوبها وقتل الأمل بالدولة الفلسطينية، إلا أن هناك أملاً وواقعاً جديداً تفرضه المعادلة الفلسطينية المتمسكة إلى الآن بالحقوق الشرعية والتزامها الأخلاقي بالحرب وتكذيب الرواية الصهيونية غداة الهجوم الأسطوري على غلاف غزة بقطع الرؤوس وقتل الأطفال والاغتصاب والكثير من الأكاذيب لحرف العالم عن الحقيقة الساطعة التي تتمتع بها المقاومة.

أراد نتنياهو أن يلقي حجراً في المياه الراسبة، وأراد أن يهدد المنطقة برمتها من الغضب الإسرائيلي القادم بعد إدراكه المطلق بفشل عملية التطبيع مع المملكة العربية السعودية التي اشترطت بقيام الدولة الفلسطينية قبل هذا الإجراء.. ونتنياهو تعهد للشركاء في الحكومة بعدم قيام الدولة الفلسطينية طالما بقي في السلطة؛ إذا ً ما العمل؟

الكي آخر العلاج؛ القفز على الأحلام الدينية والأراجيف والخزعبلات والأوهام الصهيونية التي تعشش في مخيلتهم.. "إسرائيل الكبرى" فيها بعض الدول العربية ونهر الفرات والنيل؛ تقديم الخطة (د) على الخطة (ب) وذلك للضرورة القصوى وتحرير نتنياهو من الهواجس بحل حكومته وإخضاعه للمساءلة والمحاكمة أو على بالحد الأدنى تأجيلها برسم الحروب القائمة.

يبدو أن نتنياهو فقد البوصلة، وبالتالي أصبح عقدة في طريق الحل والتفاوض، واعتراف رئيسة وزراء الدنمارك (مته فريدريكسن) مشددة على قناعتها الراسخة بأن نتنياهو يمثل مشكلة بحد ذاته. بالإضافة إلى تهديدات ذوي الرهائن الذين فقدوا ثقتهم بنتنياهو وحكومته الفاشية وقناعة العالم التي تزداد يوما ً بعد يوم بأن الحكومة الصهيونية الفاشية أسوأ مجموعة بشرية على وجه التاريخ واصطفاف الكثير من الدول مع جنوب أفريقيا ودعوتها إلى محاسبة المجرمين بحق الشعب العربي الفلسطيني وارتكابهم مجازر بشعة وإبادة حقيقية للبشر والحجر والشجر.

نتنياهو وجوقته المجرمة لن تفلت من العقاب، وبالتالي فإن الممارسات التي يمارسونها و"البربوغاندا" التي يحاولون اللعب على حبالها تارة بالانتقام وحق الدفاع عن النفس وتارة بالوعود الإلهية الكاذبة، وحتى معاداة السامية أصبحت كالنكتة القديمة التي لا تحرك ساكناً عند سامعيها بل يصابون بالاستهجان والضحك لهول ما شاهدوه من جرائم وقتل للأطفال والشيوخ والنساء.. هل يرضى رب العالمين بقتل طفلة تحمل الماء لأهلها ولا تحمل سلاحاً تهدد به الكيان الغاصب؟

من العقد الاجتماعي إلى الفوضى:
إسرائيل تسقط في فراغها

نبال عمر - كاتبة صحفية فلسطينية ـ سورية

منذ قيام إسرائيل عام 1948 عرفت الدولة العبرية سلسلة من الأزمات بين مؤسستها العسكرية وطبقتها السياسية، لكنها كانت في معظمها عابرة، محكومة بقدرة الجيش على استعادة زمام المبادرة، أو بقدرة الحكومات المتعاقبة على شراء الوقت وإعادة توزيع الأدوار.

غير أن الأزمة التي تعصف اليوم بتل أبيب تبدو مختلفة جوهريًا، لأنها لا تقتصر على خلاف حول عملية عسكرية أو جدل على طريقة إدارة الحرب، بل تمسّ البنية الداخلية للجيش والمجتمع والدولة معًا، ما يجعلها أشبه بزلزال يهدد ركائز المشروع الصهيوني نفسه.

في الماضي واجهت إسرائيل أزمات داخلية كبرى، مثل حادثة سفينة ألتالينا عام 1948 حين كاد الصدام بين منظمة «إرجون» بزعامة مناحيم بيغن والقوات الموالية لديفيد بن غوريون يتحول إلى حرب أهلية لولا تسوية اللحظة الأخيرة.

كما عرفت أزمة الثمانينيات حين أدت حرب لبنان عام 1982 إلى انقسام عميق بين القيادة العسكرية والسياسيين حول جدوى الاجتياح وتبعاته، وصولاً إلى مظاهرات حاشدة في تل أبيب ضد أرييل شارون.

وفي الانتفاضة الثانية مطلع الألفية الجديدة تصاعدت الانتقادات داخل الجيش نفسه لسياسات الحكومة التي وضعت الجنود في مواجهة يومية مع الشارع الفلسطيني دون أفق سياسي، لكن كل تلك الأزمات كانت قابلة للاحتواء بن غوريون حسم الأمر عسكريًا، وحكومة بيغن صمدت رغم الجدل، والجيش بقي متماسكًا رغم الانتقادات.

اليوم، يختلف المشهد، الأزمة الحالية بدأت بسلسلة إقالات واستقالات داخل المؤسسة العسكرية، حيث تمّت الإطاحة بعدد من القيادات تباعًا قبل أن يصل الدور إلى إيال زامير، الذي لم يقدّم طرحًا جديدًا بل استنتج النتيجة نفسها التي توصّل إليها من سبقوه؛ أن الخلاف ليس في الأشخاص ولا في تكتيكات الحرب، بل في غياب ثقة متبادلة بين الجيش والحكومة، وفي تفكك الرابط التقليدي الذي كان يربط الأمن بالسياسة في إسرائيل.

هذه النتيجة تكشف أن الأزمة أعمق من تبديل وجوه أو تغيير توجهات، وأن المشكلة لم تعد تكتيكية بل بنيوية.

إسرائيل تجد نفسها اليوم أمام أزمة متعددة الأبعاد جيش يتآكل ولاؤه الداخلي، حكومة فقدت ثقة المؤسسة العسكرية، مجتمع منقسم بين الحريديم والعلمانيين، وحلفاء غربيون يتساءلون عن استقرارها.

واشنطن التي طالما اعتبرت الجيش الإسرائيلي مؤسسة صلبة ومستقرة بدأت تعرب عن قلقها من أن يتحول إلى قوة منفصلة عن القرار السياسي.

في تصريح لمسؤول أمريكي سابق في إدارة بايدن نقلته وسائل إعلام عبرية جاء: «ما يقلقنا ليس فقط العمليات في غزة أو لبنان، بل تآكل الانسجام بين القيادة السياسية والعسكرية».

«إسرائيل بالنسبة لنا قيمة إستراتيجية لأنها دولة بجيش منضبط، وإذا فقدنا هذه الميزة فسنفقد جزءًا من مبرر شراكتنا الخاصة معها».

داخل إسرائيل يزداد الانقسام حول ملف الحريديم وقانون التجنيد، وهو الملف الذي طالما أجّله نتنياهو عبر مساومات وصفقات قصيرة الأمد.

لكن مع تعمق أزمة الجيش بات هذا التأجيل بلا معنى، الضباط يتحدثون صراحة عن انهيار في التماسك إذا استمر إعفاء عشرات آلاف الشباب الحريديين بينما يطلب من غيرهم التضحية في الجبهات.

ومع ازدياد قوة الحريديم السياسية والديموغرافية، تبدو الأزمة كساعة رملية انتهى وقتها، فلا مجال لمراوغات جديدة. كما كتب أحد المعلقين في معاريف: «نتنياهو هرب إلى الأمام لسنوات، لكنه اليوم وصل إلى الحائط».

هنا يتضح عمق اللحظة: نتنياهو محاصر بين جيش يطالب بحسم ملف التجنيد، حريديم يرفضون التنازل، معارضة يقودها غانتس ولابيد وليبرمان، وضغط أمريكي متصاعد.

غانتس اختار العودة إلى الحكومة في محاولة لحفظ التوازن الداخلي وتفادي الانهيار، مستفيدًا من صورته كقائد عسكري سابق قادر على مخاطبة المؤسسة الأمنية، فيما رفض ليبرمان الخطوة لأنه يرى أن الانضمام لنتنياهو هو إنقاذ له شخصيًا لا للدولة.

إنها أزمة غير مسبوقة، لأنها تكشف أن العقد الاجتماعي - غير المكتوب - بين الجيش والمجتمع والسياسة في إسرائيل يقترب من الانهيار.

في الماضي كان الجيش فوق الخلافات السياسية، رمزًا للوحدة القومية اليوم أصبح جزءًا من الصراع الداخلي. ومع كل تصريح لإيال زامير أو غيره من الجنرالات يزداد الوعي بأن المسألة ليست حكومة فاشلة أو حربًا متعثرة، بل مشروع يواجه حدود قدرته على البقاء.

والسؤال الجوهري الذي يفرض نفسه: إذا كانت إسرائيل قد نجحت في تجاوز أزماتها السابقة لأنها كانت خلافات فوق أرضية صلبة، فهل تستطيع أن تتجاوز أزمتها الراهنة وهي أزمة بنية داخلية، أم أن الكيان يسير بالفعل نحو مرحلة الانهيار الذاتي؟

سياسات التصفية:
عقيدة الاحتلال لقمع الصوت المقاوم

وسيم السلطي ـ كاتب وصحفي فلسطيني ـ سورية

لا تعتبر سياسة التصفية والاغتيالات التي يتبعها الاحتلال الإسرائيلي منذ بداياته عمليات طارئة أو تكتيكية، بل هي عمليات أساسية وتشكل عقيدة ثابتة في العقل الأمني للاحتلال، يخطط لها لسنوات، ويجري تجنيد أفضل الضباط والمهندسين والعملاء للقيام بها. وهي سياسة مرت بمراحل كثيرة، تتغير تقنيات تنفيذها، تقل حينا وتتوسع أحيانا كثيرة، ولكنها لا تغيب أبداً.

وانتقدت منظمات حقوقية مثل العفو الدولية هذه السياسة، معتبرة إياها إعدامات خارج القضاء وانتهاكاً للقانون الدولي، خاصة عندما تكون البدائل مثل الاعتقال متاحة. ولكن سرعان ما سقط ادعاء الدفاع الذي تبناه الاحتلال لتبرير جرائمه، أمام توسعه في استخدام هذه السياسة القذرة وتصفية شخصيات غير قيادية ولا علاقة لها بأي عمل حزبي أو تنظيمي أو سياسي فلسطيني، مثل استهداف الناشطين والصحفيين.

في أعقاب العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة بعد السابع من أكتوبر 2023، تسلّح الصحافي بكاميرته وارتدى سترته الواقية إن وجدت، مدركاً أن علاقة هذه المدينة مع العالم في هذا الوقت هي علاقة صورية، فالعالم يتابع ما يجري من خلال عدسات كاميرات من هم في غزة. لذلك، ليس من السهل على الصحفي هناك أن يغيب عن عمله، فغيابه يعني غياب صورة الناس وصوتهم عن العالم، وهذا الأمر بدوره جعله يشعر بزيادة المسؤولية وبأهمية دوره في مواجهة آلات الموت الإسرائيلية، عبر تصويب عدسته باتجاه فوهات المدافع والطائرات.

لأجل هذا، رأى أن لا بد من استمراره في أداء واجبه. هذا الواجب لم تفرضه الشرعيات الدولية ومعاهداتها، بل فرضه الحس الإنساني أولاً، أي شعور الإنسان بأخيه الإنسان، ثم فرضه ثانياً، الحس المهني الذي يتميز به الصحافي الفلسطيني كما ثبُت في ساحات المعارك الإعلامية.

لقد لاحق الموت الجميع في غزة من دون استثناء، وترصد الصحفي لهذا الموت. قد يوّثق الحدث، أو يصبح هو الحدث. كان بعضهم يشير إلى أن هذا الفيديو قد يكون آخر فيديو له بسبب شدة القصف حينها، وذلك في كل مرة يظهر فيها أثناء تغطية خبر ما.

هكذا هي الأوضاع، لكن على الرغم من مخاطر العمل الإعلامي، إلا أن هناك شخصيات صحفية برزت وأثبتت أنها أكبر من المجزرة وأعلى من الحصار، شخصيات أضحت نماذج يشار إلى ثباتها والتزامها وقدرتها على العمل وإنتاج الأخبار في ظل ضعف الإمكانات والتجهيزات، في مقابل حصول الاحتلال على خدمات أهم القنوات ووكالات الأنباء الغربية التي سخرّت منصاتها لنشر الرواية الإسرائيلية للأحداث.

خلف التغطية الإخبارية وإعداد التقارير عن قطاع غزة، يقبع مُعدها تحت ضغط نفسي هائل، فهو ليس ناقل الخبر فقط، وإنما هو، أيضاً، الشاهد على المجازر بحق عائلته وزملائه وجيرانه، والشاهد على المجاعة التي تفتك به وبمن حوله، والشاهد على زوال تاريخ مدينة وفناء معالمها المتنوعة، والشاهد على خيبات من انتظر ليعبر ولم يستطع، والشاهد على يأس الكبار وخذلانهم وقلق الصغار من مستقبل مجهول بعد هدم المدارس والمكتبات ومساحات اللعب.

والنتيجة بعد كل تلك المشاهدات هي صدمات نفسية مؤجلة، إذ ليس من السهل أن تفارقه صور الأشلاء وتعابير ذويهم، كما أنه سيحتفظ بتفاصيل مؤلمة عاشها لن يتمكن من روايتها لأحد.

لم تكن مهمة العمل الصحفي خلال العدوان المتواصل على غزة تقع، فقط، على عاتق الاختصاصيين في هذه المهنة، إذ تطوع عدد من الشباب والشابات ممن يملكون الهواتف والقدرة على الاتصال بالإنترنت في نقل الأخبار ونشر الفيديوهات وإعداد التقارير المصورة. لا ينتظرون تواصل المحطات والمواقع معهم لتذيعها لديها، بل يبادرون في بثها على صفحاتهم الشخصية على منصات التواصل الاجتماعي. لقد كان لهذا التطوع تبعات جيدة في تأسيس وصناعة محتوى يساهم في الترويج للرواية الفلسطينية بلسان أصحابها وصورهم.

كما أن قتل الصحفيين هذا، لا حدود له، أي أنه يحدث في كل فلسطين، مثلما حدث مع الصحفية، شيرين أبو عاقلة، التي كانت تقوم بتغطية اقتحام نفذته قوات الاحتلال في مخيم جنين بالضفة الغربية عندما قُتلت برصاصة إسرائيلية في 11 مايو/أيار 2022، وأصبحت هذه الواقعة حديث العالم في وقتها.

كل مراسل يتحدث عن الاحتلال الإسرائيلي ولا ينقل ما يريده هذا الأخير؛ مصيره إما القتل أو الاعتقال. لا يتوانى الاحتلال، في كل مرة تدينه فيها المؤسسات الحقوقية والصحافية، عن وصف الصحافيين الفلسطينيين بـ»العملاء الإرهابيين الذين تجب معاملتهم على هذا النحو».

في النهاية، هناك تقارير تعترف بشرور المحتل وأخرى تدين مجازره، وتقارير تَقلق على سلامة الصحفيين وأخرى تحذّر من مخاطر ربما يواجهونها في الميدان، لكن لا فرق، كل ما يحصل هو أن بيانات الشجب والإدانة تعلو وتعلو على مكاتب المسؤولين ولا شيء يتغير.

ولأنها حرب على الحقيقة، سيستمر الاحتلال وعصابات المستوطنين في تكميم أفواه الصحفيين وحجبهم عن الحقائق مهما كانت جنسياتهم.

الاغتصاب الصهيوني للفكر

سلام شما ـ كاتبة فلسطينية.. سورية

عمل الكيان الصهيوني منذ إقامته على الترويج لسرديته مستغلاً سيطرة اللوبي الصهيوني أو حلفائه على وسائل الإعلام المختلفة فقدم نفسه على أنه ضحية الهولوكوست وضحية (الإرهاب الفلسطيني والعربي).

تعد ظاهرة اغتصاب الفكر من أقدم جرائم البشرية وتعود لما قبل التاريخ. ومشتق كلمه اغتصاب هو من اللغة اللاتينية يعود لكلمة reaper التي تعني الخطف والنهب.

واغتصاب الفكر هو عملية إبادة العقل بطرق غير مادية كما يراها المفكر بوكيم ميرلو حيث تكلم طويلاً عن ذلك في دراسته المعمقة عن الطرق المقلقة التي يمكن من خلالها تغيير أفكار الأفراد أو سلوكهم تحت تأثير قوى خارجية.

واغتصاب الفكر هو عملية إبادة العقل بطرق غير مادية كما يراها المفكر بوكيم ميرلو حيث تكلم طويلاً عن ذلك في دراسته المعمقة عن الطرق المقلقة التي يمكن من خلالها تغيير أفكار الأفراد أو سلوكهم تحت تأثير قوى خارجية.

ويرى ميرلو بأن هذه العملية ليست مجرد أداة للأنظمة الاستبدادية بل يمكن أن تتسرب بشكل خفي إلى التفاعلات الاجتماعية والسياسية اليومية.

ويؤكد ميرلو على أن فكرة السيطرة على العقل لا تظهر دائماً من خلال التعذيب الواضح والعنف، فقد يكون التلاعب النفسي بسيطاً كالرسائل المتكررة أو معقداً كتفكيك نظام معتقدات الفرد بشكل منهجي، فالتلاعب يبدأ غالباً بخلق شعور بالخوف أو الأزمة مما يجعل الأفراد أكثر عرضة للتأثر.

إن اغتصاب الفكر يتسرب عبر مؤسسات تبدو ظاهرياً حيادية أو حتى تربوية كوسائل الإعلام والمدارس حتى اللغة والرموز والأساطير السياسية يمكن أن تتحول إلى أدوات تطويع وترويض فتعيد تشكيل التصورات الجمعية، ومع تطور التكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي فقد بات هذا الأمر أسهل، وأشد تأثيراً وأسرع انتشاراً .

إن السرطان الأكبر الذي يسعى لاغتصاب الفكر المحلي والعالمي هو الكيان الصهيوني الذي يسعى جاهداً لتقديم صورة مغايرة لواقع الصراع الفلسطيني الإسرائيلي وفرض الرواية الصهيونية بالقوة مستغلاً دور وسائل الإعلام الفعال في توجيه الرأي العام ومغرقاً سمومه في المفاصل الهامة والأساسية داخل المجتمع الإسرائيلي وخارجه.

في مجال الاعلام

يسعى جاهداً لبث سمومه من خلال:

1. تشويه المقاومة في الإعلام العربي والعالمي وتصوير إسرائيل كضحية، كما حدث خلال عملية السابع من أكتوبر حيث أظهر صوراً مفبركة عن قتل المقاومة لأطفال إسرائيليين خلال العملية واستطاع خداع الرأي العام العالمي في البداية، لكن بعد ذلك سقطت هذه الرواية المزيفة، وخلال العدوان على غزة أظهر الإعلام الإسرائيلي صوراً لصواريخ المقاومة فقط، بينما أخفى صور دمار البيوت الفلسطينية وأشلاء الأطفال، والادعاء بأن المشافي تضم في أقبية أبنيتها مقرات جهادية وعقداً قيادية ومستودعات أسلحة تكتيكية.
2. ستغلال الهجمات الفردية لإثبات أن الفلسطينيين يشكلون تهديداً دائماً.
3. ترويج أخبار كاذبة وتكرار الروايات الإسرائيلية لتصبح مألوفة.
4. دعم منصات عربية تنشر رسائل تطبيعية.
5. السيطرة على قنوات مشهورة دولية مثل cnn والـ bbc.

• التعليم والجامعات

كما استخدم الكيان الصهيوني التعليم والجامعات للترويج لدعايته من خلال:

1. نشر كتب عالمية تدعم إسرائيل «الديمقراطية».
2. حذف الجرائم التاريخية الإسرائيلية من المناهج.
3. الضغط على بعض الدول لتغيير مناهجها العربية وإلغاء أو التخفيف من ذكر القضية الفلسطينية.
4. استبدال مفاهيم الاحتلال بالنزاع، والعدو بالطرف الآخر.
5. الترويج لفكرة السلام المزيف وحل الدولتين بما يخدم الاحتلال.
6. زرع مفاهيم الضعف في الجيل الجديد. وتحويل ناظريه لمغريات الانحطاط الأخلاقي وتفاهة المضمون.

أما محلياً: فإن التلاميذ الإسرائيليين يتلقون وجبات دسمة بدروس لامنهجية مـِن قبل حركات دينية بأيديولوجيا متعصبة تشمل التراث والشريعة اليهودية من خارج وزارة التربية لَكن بتمويل منها مما يزيد تعصب التلاميذ ضد غير اليهودي أي العرب عموماً والفلسطيني خصوصاً.

وقد كثفت حكومة اليمين الإسرائيلية

برئاسة نتنياهو هذه المناهج لغرس أفكارها بأدمغة الأجيال المتجددة، في الوقت الذي يزعم فِيه قادة هذه الحكومة بأن المدارس الفلسطينية تحرض ضد إسرائيل واليهود لمجرد تدريس تاريخ فلسطين .

الثقافة والفكر:

1. ترويج أفكار مسمومة بأن القضية الفلسطينية لا تعنينا والمقاومة هي مشروع فاشل ومدمر ويجلب الكوارث على الشعب الفلسطيني وأن لا خيار أمام الشعب الفلسطيني سوى السلام الذي يجلب له الازدهار الاقتصادي.
2. العدو الحقيقي ليست إسرائيل لذلك جرى تجسيد صورة جديدة ومدروسة لعدو جديد يقوم على أسس دينية وطائفية.
3. نشر الخوف والكراهية والضغط النفسي لتحريض الشباب والأطفال على كره الآخر وكسر الروح الوطنية والمقاومة لدى الشعوب.
4. جعل العرب ينسون تاريخ قضيتهم المركزية.

اغتصاب الذاكرة والتراث :

كثف الاحتلال سياساته الرامية لطمس وتزوير الهوية الفلسطينية وسرقة الموروث الشعبي وإخفاء المعالم الأثرية.

ورغم تسجيل اليونيسكو التطريز الفلسطيني على قائمة التراث اللامادي إلا أن الاحتلال لا يوفر جهداً باختلاق روايات لينسبه لكيانه. كما عمل على سرقة الاكتشافات الأثرية التي تدحض أكذوبة الوجود الصهيوني في فلسطين.

في الدعاية السياسية

عمل على:

1. تصوير الإسرائيليين كمدافعين عن السلام والحرية ودفع بعض الحكومات العربية لتوقيع اتفاقيات تطبيع كانت تتم بالخفاء إلا أنها باتت جهاراً وعلناً مع رفع علم الكيان واستقبال وفوده الرسمية والسياحية.
2. دعم الأنظمة التي لا تمانع من الوجود الإسرائيلي.

إن إبادة الفكر واغتصابه يشكلان خطراً داهماً، لأن الكيان الصهيوني يعرف جيداً من دون تدمير الوعي الفلسطيني والعربي لا يمكن أن يحقق أي انتصار إستراتيجي، لذلك سعى وسيسعى إلى احتلال العقل الفلسطيني والعربي ليصبح بعد ذلك جزءاً من المنطقة ويتم التعامل معه على أساس أنه جزء منها وليس محتلاً ومغتصباً.

حرب نتنياهو أم حرب المشروع الصهيوني؟

موسى جرادات ـ كاتب سياسي فلسطيني ـ تركيا

في خضم الحرب الدائرة رحاها على غزة، منذ ما يقارب من عامين، برزت معضلة شديدة التعقيد حاول الخبراء وصناع القرار تقديم مقاربات عملية ومنهجية لها، وتتلخص هذه المعضلة في عدم قراءة مسرح الحرب من منظور شامل. وبتنا أمام مقاربات تقزيمية في قراءة الحرب، تختصرها مقولة إنها حرب نتنياهو بهدف بقاءه السياسي ومواصلة الحكم والتهرب من المحاكمات بتهم الفساد.

هذه المقاربة التي تتداولها وسائل الإعلام المختلفة، حيث يحضر فيها المحللين «المهرجين « الذين يكررون نفس اللازمة في كل يوم.

والمدقق في هذه المقولة التقزيمية يرى بوضوح بطلانها ومع هذا ماتزال هي الرافعة الأساسية في تفسير ما يجري من أحداث.

الجواب هنا لا يتوقف عند بطلان تلك المقولة بل يتعداها ليصل إلى الأسباب الكامنة وراء استخدام تلك المقولة طوال عامين، والهدف منها هو التعمية عن قراءة المشهد بشكل شمولي، فالحرب ليست حرب نتنياهو كما يود البعض تسميتها، ولا هي حرب شخصية، بقدر ماهي حرب توسعية شاملة بقيادة المشروع الصهيوني بوجه يميني متحالف مع الغرب ومتقاطع معه في الأهداف والمصالح.

وهذا المشروع كشف عن وجهه الحقيقي، فلا تسوية ولا سلام في الأفق ولهذا نرى الكثير من المحللين وصناع القرار في بلادنا، يحاولون التهرب من هذه الحقيقة، لأنها تلزمهم في التنصل والتخلي عم كل مقولاتهم بشأن إمكانية السلام مع هذا العدو. وتكشف عمق وضحالة استجابتهم لهذا التحدي الوجودي، لهذا نراهم في كل يوم يحاولون رسم مسار الأحداث وفق منهجية ضالة ومضللة، بغية بقائهم السياسي.

فهل هي حرب نتنياهو أم حرب الصهيونية؟

من نافل القول إنها حرب المشروع الصهيوني الذي يعلن جهارا نهارا عن مكبوته المتضمن بناء إسرائيل الكبرى، سواء باحتلال مزيد من الأراضي العربية أو بفرض هيمنة ونفوذ على تلك الكيانات الضعيفة من حوله.

صحيح أن هذا التصور يلزمه الكثير من المقومات العملية له، والذي تفتقده دولة الاحتلال اليوم، إلا أنه ما يزال المهيمن على مجرى الأحداث، فالمعلن من المستوى السياسي في دولة الاحتلال أصبح أكثر وضوحا، وربما التناقضات الداخلية لا يمكن تجاوزها دون الإبقاء على تماس مباشر مع أسس المشروع الصهيوني، والناظر اليوم لحال الحكومة اليمينية بزعامة نتنياهو، تجد نفسها أمام مفترق طرق، إما الذهاب نحو المجهول، أو الإنهيار.

لهذا نجد الحراك السياسي والمجتمعي للصهاينة منصب اليوم على فرملة عجلة التصور اليميني، ليس رفضا للفكرة، بقدر عدم القدرة على تنفيذها، بغياب المقومات الاقتصادية والمجتمعية وإلى حد ما المقومات البشرية القادرة على تنفيذ هذا المشروع، سيما أن كل الانتصارات العسكرية التي حققتها دولة الاحتلال وعلى أكثر من جبهة لم يتم استثمارها سياسيا، فلم يعلن المهزوم الاستسلام بعد، لهذا نرى التدخل الأمريكي الأوروبي الغربي، في طرحه القائم على إنهاء المقاومة وتسليم السلاح مقابل تنمية لا تراعي مطالب الشعوب العربية بحدها الأدنى.

وحتى نقرأ المشهد بشكل واضح لا بد من ترتيب صور المشهد، الآلة العسكرية الصهيونية تدمر، والغرب يحاول الاستثمار السياسي، والكيانات العربية ونخبها تحاول تدوير الزوايا، عبر إخفاء محركات الصراع الفعلية من مسرح التحليل.

فقد أضحى نتنياهو جزءا أصيلا من مسرح حربي أوسع وأشمل، وهو اليوم أداة منفذة من أدوات الغرب الأمريكي على وجه الخصوص، ولن تنتهي حالته السياسية دون موقف أمريكي واضح، فسقوطه وبقاءه اليوم لم يعد شئنا داخليا إنما الأمر يقر في واشنطن، وهناك مركز الشر العالمي، مع ملاحظة بسيطة كاشفة بأن الحرب العالمية الأولى شرعية وجود دولة الاحتلال، أما الحرب العالمية الثانية شكلت رافعة لإعلانها، ولا بد من حرب عالمية جديدة، تعيد رسم حدودها الجديدة، هذا هو التحدي الوجودي لنا، فهل من مذكر!

وهم (إسرائيل) الكبرى والصغرى وأحلام نتنياهو

حمزة البشتاوي - كاتب وإعلامي فلسطيني ـ لبنان

أعلن بنيامين نتنياهو مجدداً أمام العالم عن أوهامه وحلمه بإقامة (إسرائيل الكبرى) في الوقت الذي تدمر فيه آلة الحرب الإسرائيلية مدن وقطاع غزة، ويمزق الجوع أمعاء سكانه، وفي الضفة ترتفع وتيرة تحرك بلدوزر الضم والاستيطان، ولم يكن إعلانه عن هذه الأوهام موضع استغراب كبير كونها تشكل ركناً أساسياً من الرواية الإسرائيلية الزائفة التي يستند إليها المشروع الصهيوني التوسعي تحت عنوان ما يسمى الشرق الأوسط الجديد.

وما بين أوهام نتنياهو والحقائق الماثلة على الأرض يوجد فرق شاسع وكبير يظهر من خلال تمسك واستمرار الشعب الفلسطيني بالنضال والثورة من أجل العودة وتقرير المصير والاستقلال والخلاص من الاحتلال، وهناك فرق آخر تجده في الكثير من المواقف التي تتحدث عن هذه الأوهام وعدم القدرة على تحقيق الشعارات الصهيونية المتعلقة بإقامة (إسرائيل الكبرى) ومن المواقف اللافتة تصريحات أدلى بها موشيه فريدمان الحاخام الأكبر السابق للطائفة اليهودية في النمسا، حيث وصف (إسرائيل) بأنها دولة مارقة منبوذة وإجرامية وأنها بشكلها التي قامت عليه على أرض فلسطين منذ العام 1948، سوف تزول في غضون سنوات قليلة، وأن نتيناهو سيكون آخر (ملوك إسرائيل).

لكن نتنياهو الذي يتباهى بهذا اللقب ويتبنى كل ما أنتجته الحركة الصهيونية من معتقدات ارتكزت على الاستيطان وفرض السيطرة على الأرض أمنياً وعسكرياً واقتصادياً، يعتبر نفسه ساحراً ومنظراً مثل مناحيم بيغن وزئيف جابوتنسكي وهو الشخصية التي يهتدي بها ويحتفظ بسيفه ويتباها أن والده عمل سكرتيراً له في عشرينات القرن الماضي.

ومن أفكار جابوتنسكي يستمد نتنياهو أوهامه التي تستيقظ مع كل حرب يخوضها بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية ومن شركائه المحليين أمثال دانييلا فايس رئيسة حركة (غوش أمونيم) التي تقول: ما دمت أتنفس سأحارب حتى تكون أرض إسرائيل كلها بأيدينا، أرض إسرائيل بأكملها، إضافة لسموتريتش وبن غفير وغيرهم من غلاة المتطرفين الصهاينة الذين يدعون إلى فرض ما يسمى (إسرائيل الكبرى) من النيل إلى الفرات، وليس العمل فقط على احتلال كل فلسطين وتهجير كل الشعب الفلسطيني ومصادرة الأرض والإرث والتراث والموارد والرواية الفلسطينية المضادة لأوهام وأفكار الحركة الصهيونية بكافة تياراتها ومنظريها القدامى والجدد، من تيودور هرتزل ومناحيم بيغن مروراً بشيمون بيريز الذي دعا إلى سوق شرق أوسطية بقيادة إسرائيلية على دول قال عنها إنها بلا تاريخ وبلا هوية وبلا ذاكرة.

ويحلم بنيامين نتنياهو من خلال الحرب والتطبيع، إحداث تغييرات تعيد رسم خريطة جديدة للمنطقة تكون فيها الهيمنة الاقتصادية والسياسية والعسكرية لكيان الاحتلال الإسرائيلي الذي تقوده اليوم الأحلام والأكاذيب وأوهام تغيير الحدود والجغرافيا إبتداء من غزة وفق ما قاله وزير خارجية كيان الاحتلال الأسبق إيلي كوهين: بأن حجم غزة بعد الحرب لن يعود كما كان قبلها.

وتشير حرب الإبادة والتجويع على قطاع غزة بأن هذه الحرب تتضمن خطوات عملية لتنفيذ الأحلام والأوهام الصهيونية على الأرض، من خلال التدمير والتهجير، ولذلك لا يمكن اعتبار كلام نتنياهو عن ما سماه حلم الأجيال مجرد خطأ لفظي لإرضاء المستوطنين، بل هو تأكيد بأن هذه الأوهام هي من تحكم فعلياً في كيان الاحتلال، وتدفع قادته إلى طرح الرؤية التوسعية التي يضفي عليها نتيناهو طابعاً (دينياً) والإدعاء بأن العدوان على فلسطين ولبنان وسوريا، ما هو إلا تنفيذ للتعاليم والأساطير التي تتبناها الحركة الصهيونية بعقلية عنصرية إجرامية متوحشة مسكوت عنها دولياً ومدعومة من الولايات المتحدة الأمريكية التي تعتبر نفسها بمثابة (إسرائيل الكبرى) وإسرائيل هي طفلتها الصغرى التي لا حدود لأطماعها التوسعية في فلسطين والمنطقة.

وكان من المتوقع بعد حديث نتنياهو عن رؤية (إسرائيل الكبرى) أن يدق الجميع ناقوس الخطر بمواجهة نتنياهو العاجز عن تحقيق نصر عسكري في قطاع غزة رغم الإبادة والتجويع، ويلجأ إلى الأساطير لإخفاء فشله في حرب غير قابلة للربح، ويطرح خرافة (إسرائيل الكبرى) مع أن الوقائع تشير إلى إمكانية زوال (إسرائيل الصغرى) بفعل حقائق التاريخ والجغرافيا والصمود والمقاومة التي تعمل على ضرب البنية التحتية للمشروع الصهيوني في فلسطين والمنطقة.

ويمكن وضع تصريحات نتنياهو التي حاول فيها ربط الأساطير بالواقع الذي يسعى الاحتلال لفرضه على الأرض بأنها جاءت في ظل انحسار شعبية نتنياهو داخلياً، وفشله على المستوى السياسي والعسكري وتحويل الكيان الإسرائيلي على المستوى الدولي إلى كيان معزول محاصر بالانتقادات وتهم جرائم الإبادة الجماعية والتجويع. وبدلاً من توفير الأمن للمستوطنين داخل الجدران الإسمنتية والحديدية، يرتفع منسوب الخوف والهجرة العكسية، بعيداً عن الأوهام والأساطير القتالة.

القاموس اللغوي للإبادة الجماعية
تحليل اجتماعي- سياسي للخطاب الغربي

أنمار رفيدي ووسام رفيدي ـ كاتبان وباحثان فلسطينيان

- المصدر: (مجلة الجنوب/ العدد الأول – صيف -2025 المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية 14 تموز 2025)

المعونات الإنسانية

تقدَّم المعونات إلى المحتاجين لها، والذين لظروف معينة لا يستطيعون الحصول عليها، أو يُمنَعون من الحصول عليها بحكم القوة العسكرية، حال سكان قطاع غزة حين أعلن وزير الحرب الصهيوني في 9 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 أن لا غذاء، لا ماء، لا كهرباء، لا وقود، لسكان القطاع. وتتمُّ إدارة المعونات الإنسانية وفقاً للمعايير الأربعة: الإنسانية وعدم التحيُّز والحياد والاستقلال، المعتمدة لدى الهلال الأحمر والصليب الأحمر. [67] في السياق الفلسطيني، تلعب المعونات دوراً لا يستهان به في تقديم الإغاثة، وبالتحديد في ظل محدودية المؤسسات الوطنية، الرسمية وغير الرسمية، التي تقوم بتوفير الإغاثة أو الحماية الاجتماعية، وبالتحديد في قطاع غزة، حيث يعتمد أكثر من 80 % من السكان على المساعدات الإنسانية. [68] ومع ذلك، تحيط بالمساعدات الإنسانية جدالات عدة ارتباطاً بعلاقتها مع مشاريع الاستعمار الغربي.

كثيراً ما تم تأطير النزعة الإنسانية، ونزعة مساعدة «الآخر»، ضمن مفهوم «المنقذ الأبيض» White Saviour Complex والتي تجادل في أغلبها بأن المساعدات الإنسانية تنبع من مرجعية عنصرية يقدِّم عبرها الأبيض نفسه ذاتاً متطورة ويساعد غيره من «المحتاجين.»[69] وفي علاقة المعونات بالمشروع الأوروبي، تستعرض ليندا طبر نشأة ما يسمى «نظام الإنسانية العالمي» وعلاقته بسعي المجموعات المسيحية والخيرية الأوروبية في القرون الأخيرة لتحسين وضع السكان الأصليين الفقراء في المستعمرات. ومع ذلك، فهي تجادل بأن هذه التوجهات جعلت «الإنسانية» شريكة وأداة للسلطة القائمة، بدلاً من أن تكون نقيضاً لمنهجيات العنف الحديثة. وبالتالي، فإن التناقضات ترينا التقاطعات بين هرمية العنصرية الأوروبية والإمبريالية الموجودة في السياقات التي تمارس فيها النشاطات «الإنسانية.» [70] وتؤكد طبر «أن التعاطف الإنساني مع الآخرين منذ البداية كان مجرد إنتاج النظم المتجذرة في مفهومين متناقضين يعكسان ويعيدان إنتاج العنصرية الأوروبية والإمبريالية المهيمنة.»[71] خاصة أن المفهوم قد أُنتج في ظل «المركزية الأوروبية».

يذهب آخرون إلى أن المساعدات الدولية في فلسطين ما هي إلا وسيلة للحفاظ على علاقات القوى بشقيها الاستعماري

والمحلي الممثَّل ببنى السلطة الفلسطينية عبر عدة أساليب، [72] فمثلاً، تجادل ليلى فرسخ أنه، وارتباطاً بالمشاركة المدنية والديمقراطية، فإن الدول الداعمة، بقيادة أمريكا والاتحاد الأوروبي، تعمل على تنفيذ مشاريع تتجاهل بشكل مطلق السياق الاستعماري الصهيوني. [73] يأتي ذلك في سياق دعمها لمشاريع تخدم الأجندة النيوليبرالية وتعزز بدورها السلطوية، ما أفضى في المحصلة إلى إضعاف الاقتصاد الفلسطيني، وجعله أكثر اعتماداً على الاقتصاد «الإسرائيلي.» [74] في سياق مقارب، تجادل طبر أن المعونات الغذائية تعيد صياغة الصراع إلى أزمة «جوع» و»سوء تغذية»، وفي المحصلة تصبح هذه «كارثة إنسانية» لا صراعاً مع المستعمر. [75] ومن خلال ذلك، تغدو أنظمة التدخلات الإنسانية أنظمة مساندة ورافعة للحروب الإمبريالية، إضافة إلى أنها مستفيدة من الكوارث. [76]

وفي السياق ذاته، وحول قطاع غزة، تجادل إيلانا فيلدمان أنه يتم استخدام النزعة الإنسانية «لإحباط تطلعات الفلسطينيين،» مشيرة إلى أن سياسات المعونة في قطاع غزة تكشف عن المخاطر الكامنة في النزعة الإنسانية. [77] وفي الحالة الفلسطينية، كانت المعونات الإنسانية المقدمة من الدول الغربية معونات مسيَّسة تماماً، وتسعى إلى تحقيق العديد من الأهداف السياسية والطبقية. [78] وما الجدل الذي يدور بين فترة وأخرى بين المنظمات غير الحكومية والممولين حول تضمين عقود التمويل لاشتراطات سياسية أهمها شرط «نبذ العنف والتعامل مع المنظمات الإرهابية،» إلا مثالاً صارخاً على المضمون السياسي للمعونات. [79]

ليس هناك معونات تقدَّم «لوجه الله تعالى»، فالإمبريالية وأذرعها التمويلية ليست بحال من الأحوال جمعية خيرية، بل لها أهداف سياسية من وراء التمويل. واليوم نقف أمام توظيف أكثر فظاعة للمعونات الإنسانية. فمع المطالبة بإدخال المعونات الإنسانية من قبل الدول الغربية، ثمة إصرار على عدم وقف إطلاق النار، ما يعني استمرار الإبادة لتصبح المطالبة بإدخال المعونات الإنسانية محض تمويه خطابي خادع للإبادة.

الخطاب الغربي: القاموس اللغوي لدعم الإبادة الجماعية وتبريره

في مقالة نُشرت في تشرين الثاني 2023، يؤطِّر العكش الإبادة الجماعية على يد الولايات المتحدة الأمريكية و»إسرائيل» في مفهوم «أيديولوجيا الإبادة»، ويستلهم في تفسيره للتأطيرات أفكاراً من أطروحته السابقة حول «فكرة إسرائيل» التي نوقشت أعلاه، والتي بُنيت على العنف والإبادة في كلتا الحالتين. [80] على الرغم من تأطير العكش لسلوك «إسرائيل» والولايات المتحدة على وجه الخصوص، إلا أننا نرى أن «أيديولوجيا الإبادة» حتى وإن لم تؤخذ من أُسس «نبوية» على حدٍّ تحليل العكش، إلا أن الدول الأوروبية الأُخرى، مثل ألمانيا وفرنسا، تتماهى مع ما قد يُسمى «أيديولوجيا الإبادة» وممارستها. فألمانيا قامت بما يعرف بأول إبادة جماعية في القرن العشرين في ناميبيا الحالية بين عامي 1908-1904، ومارست التطهير العرقي لعشرات آلاف السكان الأصلانيين. [81] وفرنسا قتلت في يوم واحد من أيار في العام 1954 حوالي 45 ألف جزائري متظاهر يطالب بالاستقلال، [82] في أبشع جرائم القتل الجماعي التي ترتكب في يوم واحد. وليس ذلك فحسب، بل إن هذه الدول تدعم وتشارك أيضاً في الإبادات الجماعية الحالية التي يرتكبها الصهاينة في فلسطين. وإذ يناقَش الخطاب، بحسب التحليلي الفوكوي، بعلاقته مع الأيديولوجيا والتاريخ وموقعه من البنى الاجتماعية وعلاقات القوى داخلها، فلا بدَّ من ملاحظة أيديولوجيا خاصة بالإبادة الجماعية، والتي تتجسد في سياق دراستنا في قاموس لغوي لدعم الإبادة وتبريرها.

يمكننا بتحليل مواقف الدول الغربية خلال العدوان المستمر، ومنها أمريكا وألمانيا وبريطانيا وفرنسا على سبيل المثال، اكتشاف مجموعة من الجمل أو الصيغ السياسية المعتمدة، والتي يمكن عبر تحليلها، وضع اليد على تأييد حرب الإبادة، وفي الوقت ذاته تمويه هذا التأييد بالحديث عن المساعدات الإنسانية وحماية المدنيين. ولقد بُني هذا القاموس اللغوي أمريكياً، ويمكننا تكثيفه في أربع مقولات، وهي: «حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها» و»لا لوقف إطلاق النار» و»ضمان إدخال المساعدات الإنسانية» و»حماية المدنيين»، وقد شكَّلت مجتمعةً القاموس اللغوي الأمريكي-الأوروبي للتعبير عن الموقف من حرب الإبادة.

الدور الغربي: الخطاب والواقع

يظهر الانقسام العالمي في دعم المشروع الصهيوني بين العالم الغربي، وبالتحديد الاستعماري وبقية العالم في المحافل الدولية منذ اندلاع العدوان الحالي. بغالبية ساحقة وبمجموع 153 صوتاً، صوَّتت دول العالم لصالح قرار الجمعية العمومية الذي يطالب بوقف فوري لإطلاق النار لدواعٍ إنسانية، بينما صوَّتت 10 دول ضده، من ضمنها الولايات المتحدة الأمريكية و»إسرائيل» والنمسا، بينما امتنعت ألمانيا وهولندا وإيطاليا والمملكة المتحدة. [83] علَّقت ممثلة الولايات المتحدة على القرار محيلة سبب رفض الولايات المتحدة التصويت لصالح وقف إطلاق النار لأن حركة حماس لا ترغب بتحقيق الهدف الأساسي للولايات المتحدة «بوقف الموت والدمار على المدى البعيد.» [84] عند سماع هذا الخطاب وبمعزل عن سياقه الحالي والتاريخي، يبدو وكأن الولايات المتحدة ذات رسالة إنسانية تحاول القضاء على شرور العالم، إلا أن وضع خطابها في سياق دورها التاريخي والحالي لا يظهر «تناقضاً» بين القول والفعل وحسب، بل ويظهر تماهياً تاماً في الموقف. منذ الإبادة الجماعية التي مارسها المستعمِر الأبيض في أمريكا ضد السكان الأصليين، والتي تناولها العكش مطولاً وتفصيلياً، ومروراً بإلقاء أول قنبلة ذرية على هيروشيما قتلت 850 ألف ياباني، وقتل أكثر من مليوني كوري مطلع الخمسينيات، وصولاً إلى النابالم الحارق في فيتنام، وحصار العراق وتجويعه، فهناك للولايات المتحدة سجل حافل بما يتناقض مع أية مقتضيات للموقف الإنساني تجاه الشعوب.

في الجدال الذي دار في الجمعية العمومية للأمم المتحدة حول استخدام أمريكا حق النقض الفيتو على التعديلات المقترحة من قبل روسيا لوقف إطلاق النار بغرض السماح بممر آمن للمساعدات الإنسانية، صرَّح ممثل أمريكا بأن دولته تبذل جهدها من أجل «إيصال المزيد من المساعدات الإنسانية للأشخاص الذين يحتاجون إليها، وزيادة الحماية للمدنيين.» [85] أما التعبير الحقيقي عن هذا الموقف فيظهر على الأرض، على الرغم من خطابها الرسمي في

مجلس الأمن والجمعية العمومية الذي طالما أكد على استمرار أمريكا لجهودها الإنسانية في إدخال المساعدات.

وفي المقابل، في تصريح الرئيس الأمريكي جو بايدن في اليوم المائة للحرب، عبَّر عن حزنه الشديد إزاء اعتقال 100 رهينة «بريئة»، رغم إطلاق سراح الأطفال والنساء وكبار السن من «المدنيين»، ومن ضمنهم 6 من حملة الجوازات الأميركية. بطبيعة الحال، لم تصل عبارات الحزن على المدنيين في قطاع غزة، أو قرابة 60 ألف شهيد، أو حتى حملة الجوازات الأمريكي الذي استشهدوا أو نزحوا أو لم يستطيعوا المغادرة للعلاج، والذين تقدر أعدادهم بـ 900 مواطن أمريكي. [86] في هذا السياق، قامت عائلتان أمريكيتان من أصول فلسطينية برفع دعاوى على الرئيس بايدن بسبب تقاعس أميركا في إجلاء أقربائهم من حملة الجوازات الأمريكية بنفس مستوى المجهود الذي قامت به لـ«الإسرائيليين» من حملة الجواز الأمريكي. [87] وبالتالي فإن «زيادة الحماية للمدنيين»، حتى من هم من حملة الجنسية الأمريكية، لا يمكن أخذه على محمل الجد مع سقوط مئات الشهداء والجرحى يومياً وتدمير عشرات المنشآت الحيوية من منازل ومرافق ومدارس ومستشفيات، وزيادة الدعم لمثل هذا التدمير.

أما في المؤتمرات الصحافية التي عقدها وزير الخارجية الأمريكي آنثوني بلينكن خلال حرب الإبادة، فيمكن التوقف عند أبرز ما يتكرر في تلك التصريحات. فمصطلح «المزيد من المساعدات»، وكما سنلحظ لاحقاً، هو مصطلح تكرر في كل التصريحات، سواء تلك التي صدرت في المؤتمرات الصحافية، أو التي أصدرتها الخارجية كبيانات لإعلان موقف. ومع ذلك فقد أكدت منظمة الأغذية والزراعة أن قطاع غزة يعاني من المجاعة، [88] حيث إن ما يزيد عن 90 % من السكان يعانون من مستويات عالية من انعدام الأمن الغذائي، ويشمل ذلك 15 % من السكان المصنَّفين في حالة «الكارثة.» [89] وهذا يعني أن ما يتمُّ تقديمه كهدف لم يتحقق، بينما يسود اعتقاد مؤكَّد أن أمريكا يمكنها، إن أرادت، ممارسة الضغط، وهي تملك على الأقل عوامل الضغط، وأهمها التسليح والتأييد في المحافل الدولية، لإجبار الكيان على إدخال المعونات.

إن مراجعة التقارير الصحافية والإعلانات الأمريكية تكشف الدعم الأمريكي العسكري. فمنذ اليوم الأول للإبادة وحتى 27 آذار 2025، حطَّت في الكيان 800 طائرة و140 سفينة محملة بأسلحة أمريكية لدعم «إسرائيل» [90]. ومع نهاية العام 2024، قدمت أمريكا دعماً إجمالياً بقيمة 22 مليار دولار [91]، تبعها 12 مليار دولار إضافية تمَّت الموافقة عليهم في شهر آذار 2025 [92].

ينبغي الإشارة إلى أن المطلبين المركزيين، أي وقف إطلاق النار وإدخال المساعدات الإنسانية، يتمُّ تقديمهما بمعزل عن مسببهما، وهو العدوان الصهيوني، فالكيان الصهيوني هو الذي أعلن بوضوح «لا غذاء، لا وقود، لا كهرباء، لا ماء،» بحسب وزير الحرب غالانت. [93] وبالتالي فقبل الحديث عن مطالب إنسانية، ينبغي توجيه إصبع الاتهام، والإدانة، لمن أعلن صراحة أنه سيخلق كارثة إنسانية، وقد خلقها فعلاً. نحن هنا أمام الموقف الغربي التقليدي ذاته الذي يغلِّف التمويل الغربي، والذي يتناول المعونات والدعم دون التطرُّق إلى المسببات. لا معنى للحديث عن معونات إنسانية طالما لا تجري ممارسة الضغط أولاً على من أعلن حرمان قطاع غزة من مقومات الحياة، وهو الكيان الصهيوني. بل إن سامح شكري، وزير الخارجية المصري، ربط إدخال المساعدات بالاتفاق مع «إسرائيل،» [94] في موقف يتَّسم بالغرابة، خاصة وأن مصر هي المسؤولة عن معبر رفح من جهتها ولا حاجة للموافقة «الإسرائيلية» إلا إذا كان هناك تهديد «إسرائيلي» بقصف الشاحنات أذعنت له الحكومة المصرية. ليس هذا فحسب، بل ولا معنى لهذا الطرح طالما لم يجرِ وقف العدوان، ذلك أن العدوان يحول دون وصول المعونات لمستحقيها، وهم 90 % من سكان القطاع، حسب تصريح أنطونيو غوتيريش، الأمين العام للأمم المتحدة، مطلع الشهر الرابع للعدوان الذي اعتبر الهجوم «الإسرائيلي» هو المشكلة الحقيقية أمام إدخال المساعدات. [95]

أما الحديث عن «حماية المدنيين» في ظل الحقائق على الأرض، فيفتح المجال لفهم أعمق للرواية الغربية من الحرب بأسرها. لقد جرى تدمير حي سكني كامل في مخيم جباليا بقصفه بست قنابل أمريكية الصنع زنة كل واحدة منها طن ما أدى لاستشهاد وجرح أكثر من 400 فلسطيني في مجزرة مروِّعة. [96] وقد زعم الاحتلال أن القصف جاء لاغتيال إبراهيم البياري أحد قادة حركة حماس في المخيم، فكانت النتيجة، ليس استشهاد البياري فحسب، بل واستشهاد 110 فلسطينيين وجرح المئات. أمريكا، كما أشرنا سابقاً، تقوم بإمداد الكيان بأسلحة متطورة بقوة تدميرية عالية، وبالتالي، تدرك أنه سيقع الآلاف من المدنيين. وعليه، فلا معنى لمطلب حماية المدنيين، أو تقليل حجم الضرر الواقع عليهم، في ظل الدعم الأمريكي العسكري. إن السياق التاريخي للمستعمر الأبيض في إبادة السكان الأصليين بشكل وحشي في أمريكا، لا يجعل حقائق كهذه عشوائية. فالحرب البيولوجية التي أطلقها المستعمرون على السكان عبر إعطائهم بطانيات ملوثة، تجعلها مؤهلة تماماً لتزويد الكيان بأسلحة دمار شامل ومهددة لحياة المدنيين. [97] مرة بعد أخرى يتأكد للجميع عمق الترابط الأيديولوجي في سلوك طريق الإبادة تجاه الشعوب الأصلانية بين مشروعي الرجل الأبيض في أمريكا وفلسطين.

وعلى الرغم أن موقف الإدارة الأمريكية المتمثِّل برفض وقف إطلاق النار، والذي عزلها بشكل ما على المستوى الدولي، إلا أنها أصرت على رفض القرار، ما يؤشر على حجم الدعم الذي يحظى به الكيان في حرب الإبادة، ما يمكن اعتباره، لحدة

طبيعته كموقف، أكثر من مجرد تلاقي مصالح سياسية واقتصادية، بل ويجعله، كما أسلفنا، ترابط مشروع الرجل الأبيض بفرعيه الأمريكي والصهيوني. فلا غرابة بعد ذلك أن يعلن بايدن صهيونيته، [98] فيما يعلن بلينكن وزير الخارجية في 8 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 عند زيارته للكيان أنه قدم كيهودي لا كوزير خارجية. [99] إن إعلان بلينكن هذا، ومن قبله بايدن، يؤكد الطابع العقائدي للعلاقة بين المشروعين والذي كان قد استفاض في شرحه كل من العكش والمسيري.

حقيقة الإبادة الفلسطينية ورفضها الأوروبي

ليس في القانون الدولي أي حق للمستعمِر الأجنبي في الدفاع عن نفسه، بل إن هذا، قانوناً، حق مكفول للمستعمَر الذي يقع تحت الاحتلال العسكري. كما أكَّدت اتفاقية لاهاي واتفاقية جنيف الثالثة وبوضوح على الحق في المقاومة المسلحة للشعوب الخاضعة للاستعمار. [100] وبالتالي، فإن استخدام موقف «حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها» أولاً يحولها إلى ضحية، علماً أنها حسب القانون الدولي دولة محتلة وليست ضحية، وثانياً يلعب هذا الموقف على المعزوفة المتبناة صهيونياً منذ جريمة النكبة في العام 1948 وهي معزوفة تصوير أنفسهم كضحية. واليهود لا الصهيونية فعلاً ضحية الكارثة النازية والفاشية الأوروبية، ولكنها تستخدم كذريعة لتبرير جريمة احتلال فلسطين وتشريد شعبها. إن تصوير الصهاينة لأنفسهم كضحية هو المدخل الأبرز لدعايتهم منذ الحرب العالمية الثانية، ومعها الاتهام لكل من يقف في وجه ممارساتهم الاحتلالية ضد الشعب الفلسطيني باللاسامية.

إن ما يمكن ملاحظته دون عناء هو تبعية الموقف الأوروبي للموقف الأمريكي، ما يضع علامة استفهام جدية حول استقلالية سياسة تلك الدول عن الولايات المتحدة الأمريكية. فمنذ اليوم الثاني لهجوم المقاومة على المستوطنات الصهيونية

والمواقع العسكرية فيما يسمى «غلاف غزة»، لحقت تلك الدول بالموقف الأمريكي. لحقوا بايدن وبلينكن في زيارتهما التضامنية مع الكيان، وإعلان وقوف الاتحاد الأوروبي معه بكل ما يفعل «للدفاع عن النفس،» [101] وذلك على الرغم من موقف خبيرة في الأمم المتحدة بأن «إسرائيل» لا تملك حق الدفاع عن نفسها. [102] لقد أعلنوا، في تطابق مع الموقف الأمريكي، عن تسخير القدرات العسكرية لدعم حرب الكيان على غزة. وهذا ما عبَّرت عنه وزيرة التجارة البريطانية في جلسة لنقاش رخص تصدير الأسلحة مستخدمة مصطلح «الإرهابيين البربريين» لوصف حركة حماس، قائلة: «تدعم المملكة المتحدة الحق الشرعي لإسرائيل للدفاع عن نفسها، واتخاذ الإجراءات ضد الإرهاب، وذلك ضمن حدود قانون الإنسان الدولي،» مشيرة بشكل إضافي إلى منح 114 رخصة تصدير للأسلحة بقيمة 42 مليون جنيه استرليني لـ«إسرائيل» في العام السابق. [103] أما الإعلان عن أن بريطانيا «تعمل مع قطر لإرسال المعونات لغزة، أول حملات المساعدة لهم هي إرسال 17 طناً من الخيام من الحجم العائلي، الخيام سوف توفر مأوى ضرورياً للعائلات التي نزحت بسبب الصراع المستمر،» [104] فيفضح طبيعة التمويه المخادع لخطاب المساعدات والمعونات في ظل المشاركة في الإبادة عبر الدعم العسكري غير المحدود لأدوات الإبادة.

وبأخذ الموقف الألماني كنموذج تحليلي، يمكن القول إنه ليس من الصعوبة بمكان فهم الموقف الألماني المنحاز للكيان الصهيوني خلال العدوان الحالي. فعقدة الذنب الألمانية تجعلها الحليف الثابت للحركة الصهيونية وتدعم تحقق مشروعها مهما بدر منها من ممارسات منافية للقوانين والمواثيق الدولية. لذلك، لم يكن من المستغرب إعلان الحكومة الألمانية تدخلها لصالح «إسرائيل» بتقديم دفاعها في القضية المرفوعة ضدها من طرف جنوب أفريقيا في محكمة العدل الدولية. لقد جاء في تصريح المتحدث باسم الحكومة الألمانية إقرارها الواضح أن أية محاولات لاتهام «إسرائيل» بالإبادة الجماعية، هي «استغلال سياسي.»[105] وقد تمَّ ذلك على الرغم من ثبوت الوثائق والمعطيات المؤكِّدة لارتكاب الإبادة الجماعية ضد سكان القطاع، وبالأخص من قبل المنظمات الدولية كالأونروا، ومكتب تنسيق الشؤون الإنسانية، من قتل وجرح حوالي المائة ألف حتى اللحظة، وقصف

المستشفيات والمدارس والجامعات، واستهداف العاملين في القطاع الصحي، وقصف المدنيين، وترحيلهم تحت التهديد، [106] وإقرار خبراء الأمم المتحدة وجود حالة إبادة جماعية ضد الفلسطينيين، إلا أن ألمانيا ما تلبث أن تزعم خلوَّ هذه الإدعاءات من أية وجاهة بالمطلق. [107] كما تمَّ ذلك كله على الرغم من وجود قوانين في ألمانيا تجرِّم إنكار جرائم الحرب والإبادة الجماعية، [108] إلا أنها ستدافع عن «إسرائيل» في محكمة العدل الدولية، إذ يبدو أن تلك القوانين لا تنطبق إلا على الغرب.

منذ بداية العدوان تستخدم ألمانيا خطاباً يتسلَّح بـ»رفض اللاسامية» لحشد التعاطف مع الكيان الصهيوني. في العدوان الحالي، تمَّ استخدام الشعار التهييجي المنافق لشعار «لن يحدث مجدداً» Never Again، وهو الشعار المرتبط بالإبادة الجماعية الحاصلة في الهولوكوست، الذي تجذَّر في الهوية الوطنية الألمانية، كموقف ضد النازية الألمانية، تحاول عبره ألمانيا التنصل من ماضيها في ممارسة الإبادة. [109] في ذكرى «ليلة البلور» التي تصادف 19 تشرين الثاني من كل عام، أضاءت ألمانيا بوابة براندنبورغ بالشعار «ليس مجدداً هو الآن» خلال ذكرى الاحتفاء. كما عبَّر المستشار الألماني، من الحزب الديمقراطي الاجتماعي، عن حقيقة موقفه قائلاً إن «معاداة السامية تسمِّم المجتمع.» [110] وكانت المفوضة الألمانية لسياسات حقوق الإنسان قد قالت: «هناك حدود للحق في التظاهر السلمي المرتبط بالأفعال الاجرامية» و»لقد حظرنا المظاهرات عندما يكون من أجل التحريض على معاداة السامية، ويجب عدم إساءة استخدام حرية الرأي لنشر الكراهية.» [111] إن استخدام الشعار هذا لا يدعو فقط لحشد التعاطف مع الكيان الصهيوني، بل يعزز أيضاً الخطاب المكرور الذي يتهم من يعادي دولة الكيان الصهيوني وممارساتها العنصرية والمجرمة، بمعاداة السامية.

ولقد تجسَّد هذا الموقف أخيراً في إعلان ألمانيا وقوفها إلى جانب «إسرائيل» في محكمة العدل الدولية.

في السياق ذاته، شاركت فرنسا ألمانيا هذا الخطاب، واعتبر وزير خارجيتها اتهام الدولة الصهيونية بالإبادة الجماعية على أنه تخطَّي «عتبة أخلاقية» مشيراً إلى ضرورة عدم جواز استغلال مفهوم الإبادة الجماعية لأهداف سياسية. [112] وجاء ذلك أيضاً في سياق خطاب ماكرون الذي أشار إلى أن «إسرائيل» «تواصل عمليتها لمكافحة الإرهابيين،» في غزة، [113] دون الدعوة لوقف إطلاق النار.

وللتدليل أكثر على مواقف الدول الاستعمارية الأوروبية، يمكن التمعُّن في حجم القمع الذي مارسته تلك الدول ضد المحتجين على الإبادة والمناصرين للشعب الفلسطيني، إذ يتبين إنه «في العشرة أيام الأولى، تم اعتقال ما يزيد عن 40 شخصاً، وإصدار مخالفات بحق ما يقارب 830 شخصاً في فرنسا بسبب المشاركة في مظاهرات، تحت قرار الشرطة بإصدار حظر على «تواجد وتجمع الأفراد الذين يعرفون أنفسهم على أنهم داعمين لفلسطين. وفي ألمانيا تم اعتقال 190 شخصاً.»[114] ففرنسا وألمانيا تدَّعيان أن هناك حاجة لحماية المجتمعات اليهودية في ظل تصاعد اللاسامية بعد 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، كما يعتقدون. أما المستشار الألماني أولاف شولتز، فقد صرَّح بالقول: «تاريخنا، ومسؤوليتنا تجاه الهولوكوست تجعل من واجبنا دعم وجود إسرائيل.»[115]

إن حجم الاندفاع الألماني، وغيره من الدول الأوروبية ذات التاريخ الاستعماري المماثل كفرنسا وبريطانيا وهولندا، سواء في الخطاب أو في الممارسات ضد كل مؤيد للحقوق الفلسطينية بالتوقيف والاعتقال والتهديد بالترحيل، [116] يطرح على بساط التفكير والبحث مدى عمق حالة تأنيب الضمير الألماني، وعقدة نقص الألمان تجاه نازيتهم ضد اليهود. وعلى ما يبدو أن هناك ما هو أعمق من ذلك، فالتلاقح بين العنصرية الألمانية والأوروبية والعنصرية الصهيونية التي تجسِّد عنصرية الرجل الأبيض الأوروبي في الشرق ثابت بالدليل القطعي. وهنا نستذكر رسالة رئيسة الاتحاد الأوروبي، الألمانية الأصل، في «ذكرى استقلال» الكيان الصهيوني. [117] تلك الرسالة التي تحتفي بالجهد الصهيوني بتحويل الصحراء إلى جنة، مع ملاحظة أن الحديث يطال الثيمة ذاتها عن «الرسالة الحضارية» في خطاب الرجل الأبيض الأوروبي، ولكن هذه المرة لوليده الأبيض الأشكنازي في الشرق-»إسرائيل.»

وبشكل لافت، يبدو أن الموقف الأمريكي يتفهم الموقف «الإسرائيلي»، رغم ذلك الحديث عن ضرورة تجنب السقوط الواسع للمدنيين، فيقرر بلينكن في مؤتمر صحافي: «نحن نعلم أن مواجهة عدو يتجذر بين المدنيين –يختبئ ويطلق النار من المدارس والمستشفيات– يجعل هذا الأمر صعباً للغاية.» [118] هنا نعود مجدداً لتصريح الممثل الأمريكي الذي أكَّد فيه «الاستمرار في دعم إسرائيل في جهودها للتأكد من أن ما حدث في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 لن يتكرر مرة أخرى.» [119] كما كان هذا واضحاً في الموقف من وقف إطلاق النار، يلحقه التبرير المكرور «وقف إطلاق النار لن يعود بالنفع إلا على حماس.» [120] غير أنه في واقع الأمر، وكما يظهر من حجم الكارثة البشرية والإنسانية، يعني فعلياً استمرار الإبادة الجماعية، خاصة أنه مع اقتراب الحرب من منتصف عامها الثاني، لم يتمكَّن جيش الاحتلال «الإسرائيلي» من تحقيق أي من أهدافه المعلنة. وبالتالي، فإن استمرار الحرب ليس سوى استمرار للإبادة. إننا نضع اليد هنا على ذلك القدر من التبنِّي الأوروبي والأمريكي للخطاب الصهيوني، والذي نعتقد، كما مر آنفاً في التأطير النظري، أنه تعبير عن الأصل المشترك لمشروع الرجل الأبيض بفرعيه الأوروبي والصهيوني.

خاتمة

بتأكيد «حق إسرائيل في الدفاع عن النفس» و«حماية المدنيين» واتخاذ موقف «لا لوقف إطلاق النار»، يمكن تأكيد «الشيك السياسي المفتوح» الذي منحته الدول الغربية للعدوان الصهيوني وحرب الإبادة. ومع ذلك، في ضوء هذين الموقفين، من اللافت للنظر، إصرار هذه الدول الغربية على التمسك اللفظي بمطلبي ضرورة «إدخال المساعدات الإنسانية» و«حماية المدنيين» كمطلبين إنسانيين. وهنا، ليس تبني الموقف الصهيوني بـ«حق الدفاع عن النفس» تبنياً للمقولة الصهيونية المغلفة ببكائية الضحية المكرورة فقط، بل ويعتبر تشريعاً للممارسات الصهيونية كلها، ومن ضمنها الإبادة الجماعية بتمثُّلاتها المختلفة: القتل الجماعي للمدنيين، والتدمير الممنهج للمنشآت الحيوية كالمستشفيات والمدارس، ومنع سبل الحياة، كالماء والكهرباء والغذاء والوقود، وهو ما أعلنه الصهاينة صراحة على لسان وزير الحرب غالانت، [121] طالما أن كل ذلك يتم وفق شعار «الحق في الدفاع عن النفس.» بهذا، إن الحديث عن المعونات لا يغدو كونه غطاء لاستمرار الإبادة الصهيونية، إبادة تجد جذرها في مجمل مشروع الرجل الأبيض الأوروبي للأعراق غير الأوروبية. وفوق ذلك كله، فإن العلاقة بين الدول الغربية والكيان الصهيوني، كما بينا آنفاً، تتجاوز حدود العلاقة السياسية والاقتصادية، لتصل إلى حدود التلاقح الأيديولوجي بين المشروعين: مشروع الرجل الأبيض الأوروبي الاستعماري في العالم، ومشروع الرجل الأبيض الصهيوني الأشكنازي في فلسطين، بحيث يبدو الأخير الممثل الشرعي للأول في الشرق، وتأكيداً لكونه أداة الأول الاستعمارية وفق المثل الدارج: «مَنْ شابه أباه فما ظَلَم.» إن الانحياز للكيان الصهيوني في سعيه اليومي للقتل الجماعي وتدمير كل مرافق الحياة في قطاع غزة، أي في تنفيذه للإبادة الجماعية، أكَّدته هذه الدراسة في تحليلها للخطاب والسياقات التي تمظهرت فيها جزئياته.

الإحالات

[67] للمزيد حول معايير المعونات الإنسانية، انظر: «الجمعية العامة- الدورة السادسة والأربعون،» شوهد في 1 آذار 2025. https://2u.pw/d8RSM.

[68] Fifteen years of blockade of the Gaza Strip,» UNICEF, July 3 2022, Accessed 12 December 2024. https://bit.ly/4kVUifm.

[69] Lisa Ann Richey, «›Tinder humanitarians‹: The Moral Panic around Representations of Old Relationships in New Media,» Javnost-The Public, Vol. 23, No. 4 (2016): 398-414; Kristina Roepstorff, «A Call for Critical Reflection on the Localisation Agenda in Humanitarian Action,» Third World Quarterly, Vol. 41, No. 2 (2020): 284-301; Natasha Marhia, «Some Humans Are More Human than Others: Troubling the ‹Human› in Human Security from a Aritical Feminist Perspective,» Security Dialogue, Vol. 44, No. 1 (2013): 19-35; David Jefferess, «Humanitarianism and White Saviors,» in Handbook of Critical Whiteness: Deconstructing Dominant Discourses Across Disciplines, ed. by Alexander Workman and others (Singapore: Springer Nature Singapore, 2022), 1-15.

[70] Linda Tabar, «Disrupting Development, Reclaiming Solidarity: The Anti-Politics of Humanitarianism,» Journal of Palestine Studies, Vol. 45, No. 4 (2016): 16-31, 17.

[71] Ibid., 18-27.

[72] Leila Farsakh, «Undermining Democracy in Palestine: The Politics of International Aid since Oslo,» Journal of Palestine Studies, Vol. 45, No. 4 (2016): 48- 63; Sari Hanafi, and Linda Tabar, «The Intifada and the Aid Industry: The Impact of the New Liberal Agenda on the Palestinian NGOs,» Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East Vol. 23, No. 1 (2003): 205-214; Tabar, «Disrupting Development,» op. cit.

[73] Leila Farsakh, op. cit., 1.

[74] Ibid.

[75] Tabar, «Disrupting Development,» op. cit., 16.

[76] Ibid., 17.

[77] Ilana Feldman, «Gaza›s

Humanitarian Problem,» Journal of Palestine Studies, Vol. 38, No. 3 (2009): 22- 37, 23.

[78] للمزيد حول حقيقة دوافع التمويل الغربي، انظر: خليل نخلة، وطن للبيع (رام الله: مؤسسة روزا لوكسمبورغ، 2011)؛ جميل هلال، الطبقة الوسطى الفلسطينية: بحث في فوضى الهوية والمرجعية والثقافة (رام الله: مواطن- المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، 2006)؛ جميل هلال، تكوين النخبة الفلسطينية: منذ نشوء الحركة الوطنية الفلسطينية إلى ما بعد قيام السلطة الوطنية (رام الله: مواطن-المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية ومركز الأردن الجديد للدراسات، 2001)؛ آيات حمدان، المساعدات الخارجية وتشكيل الفضاء الفلسطيني (رام الله: مركز بيسان، 2010)؛ ساري حنفي و ليندا طبر، بروز النخبة الفلسطينية المعولمة: المانحون والمنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية المحلية (رام الله: مواطن- المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، 2006).

[79] وسام رفيدي، «الاتحاد الأوروبي في قفص الاتهام من رفض التمويل المشروط لرفض الوجود أصلاً،» جريدة القدس، 20 تشرين الثاني 2023، شوهد في 1 حزيران 2024. https://bit.ly/3HxJ5mS .

[80] منير العكش، «أيديولوجيا الإبادة،» جريدة الأخبار، 11 تشرين الثاني 2023، شوهد في 5 كانون الأول 2025. https://al-akhbar.com/Palestine/372883.

[81] «ألمانيا في ناميبيا.. مئة عام على ‹أول إبادة جماعية› في القرن العشرين،» الجزيرة الوثائقية، 15 كانون الثاني 2024، شوهد في 1 آذار 2025. https://2u.pw/OUsZo.

[82] محمد علال، «8 مايو/ أيار... يوم قتلت فرنسا 45 ألف جزائري،» الجزيرة الوثائقية، 12 أيار 2019، شوهد في 3 شباط 2025.

https://2u.pw/GamV2

[83] «UN General Assembly votes by large majority for immediate humanitarian ceasefire during emergency session,» UN News: Global perspective Human stories, 12 December 2023, Accessed 7 January 2025.

https://news.un.org/en/story/2023/12/1144717

[84] «تصريحات أنتوني بلينكن في مؤتمر صحفي،» وزارة الخارجية للولايات المتحدة، 11 كانون الثاني 2024، شوهد في 15 آب 2024. https://bit.ly/43RVr0u .

[85] المصدر نفسه.

[86] Ivana Saric, «How many U.S. citizens live in Israel, Gaza and the wider region,» AXIOS, 3 November 2023, accessed 5 August 2024. https://bit.ly/3FwjMRI .

[87] Doina Chiacu, «Palestinian Americans sue Biden administration over relatives stuck in Gaza,» Reuters, 15 December2023, accessed 1 September 2024.

https://2u.pw/AZCg2.

[88] «FAO expresses deep alarm over acute hunger in the Gaza Strip,» Food and Agriculture Organization of the United Nations, December 21 2023, accessed 1 March 2025. https://bit.ly/3FPqX7q.

[89] «Gaza Strip: IPC Acute Food Insecurity November 2023 - February 2024,» reliefweb, 21 December 2023, accessed 1 March 2025.

https://2u.pw/bB9Csud.

[90] Middle East Monitor, «Israel Receives 940 US Arms Shipments Since Gaza War: Defense Ministry,» Middle East Monitor 27 May 2025, accessed 7 June 2025.

https://bit.ly/43Pcosz.

[91 «US Spent over $22 Billion on Weapons for Israel in Gaza War,» The New Arab, 28 May 2025, accessed 7 June 2025. https://bit.ly/4mRQyxn.

[92] «Military Assistance to Israel,» U.S. Department of State, , accessed 7 June 2025. https://bit.ly/3FNMyx4

[93] «Israeli defense minister orders ‹complete siege› on Gaza,» Al Jazeera, October 9 2023, accessed 2 March 2025.

https://2u.pw/fgIKK .

[94] «وزير خارجية مصر: معبر رفح... ودخول المساعدات يتوقف على الاتفاق مع إسرائيل و»الأمم المتحدة،» الشرق الأوسط، 15 تشرين الثاني 2023، شوهد في 2 آذار 2025. https://2u.pw/iikLo.

[95] «UN chief says Israeli forces creating ‹massive obstacles› for aid in Gaza,» The Guardian, 23 December 2023, accessed 2 March 2025. https://rb.gy/xi2jp1.

[96] «وزارة الداخلية بغزة: مخيم جباليا تعرض لقصف بـ 6 قنابل تزن كل واحدة طناً من المتفجرات،» الجزيرة، 31 تشرين الأول 2023، شوهد في 3 آذار 2025. https://rb.gy/bduoyt.

[97] «Colonizers and Resistance: Britain wages biological warfare with smallpox, 1763-64,» Native Voices, accessed 3 March 2025. https://rb.gy/3loa3e.

[98] للمزيد انظر جزءاً من خطاب بايدن المذكور، «بايدن: ‹أنا صهيوني›،» شوهد في 2 آذار 2025.

https://rb.gy/88n0z9

[99]»أزور إسرائيل بصفتي يهودياً وسنلبي جميع حاجاتها الدفاعية،» الجزيرة، 10 تشرين الأول 2023، شوهد في 3 آذار 2025. https://2u.pw/dRYN0OFJ.

[100] «Right of peoples to self-determination – GA resolution», UN, accessed 2 March 2024. https://rb.gy/11ga2w.

[101] «Statement of the Members of the European Council of the Situation in the Middle East,» European Council, 15 October 2023, accessed 3 March 2025. https://2u.pw/q8uWb.

[102] Francesca Albanese, UN Special Rapporeur, via press conference, «UN Official Says Israel Has No Right To Self-Defence,» 14 November 2023, accessed 3 March 2025.https://short-link.me/-RUG.

[103] مداخلة وزيرة التجارة البريطانية خلال جلسة حول رخص تصدير السلاح لإسرائيل، جلسة مجلس عموم المملكة المتحدة بتاريخ 30 تشرين الثاني 2023، للمزيد انظر:

«Business and Trade,» Hansard/ Uk Parliament, 30 November 2023, accessed 3 March 2025. https://2u.pw/NqgUW.

[104] «UK announces new aid support for Gaza on Foreign Secretary visit to Middle East,» GOV UK, 25 January 2024, accessed 3 March 2025. https://2u.pw/cd1x8.

[105] Press and Information Office of the Federal Government (BPA), «Statement by the Federal Government of the proceedings at the International Court of Justice,» 12 January 2024, accessed 30 December 2024. https://2u.pw/mpu02.

[106] للمزيد حول مراجعة التحديثات اليومية الصادرة عن مكتب تنسيق الشؤون الإنسانية، انظر:

الموقع الإلكتروني لمكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية لأرض فلسطين المحتلة، شوهد في 16 آذار 2025. https://www.ochaopt.org/updates.

[107] Rachel Fink, «Germany Announces Decision to Intervene on Israel›s Behalf in ECJ Case,» Haaretz, 14 January 2024, accessed 1 January 2025. https://2u.pw/eDVc.

[108] Lisa Hanel, «Germany criminalizes denying war crimes, genocide,» DW, 25 November 2022, accessed 23 January 2025. https://short-link.me/-RWb.

[109] Manuel Schwab, «Opinion: Germany pledged ‹never again.› Here›s how it›s grappling with Israel›s bombing of Gaza,» Los Angeles Times, 17 December 2023, accessed 14 February 2025. https://2u.pw/mqxV2.

[110] Kate Connolly, «›Never again is now: 1938 Nazi program anniversary marked in Germany,» The Guardian, 9 November 2023, accessed 12 March 2025. https://2u.pw/G1Xzj.

[111] Sarah Marsh, «Germany accused of silencing pro-Palestinian voices at U.N. rights forum,» Reuters, 9 November 2023, accessed 7 March 2025. https://2u.pw/GXMT6.

[112] French Foreign Minister Stephane Sejourne speaks during a joint press conference with his Polish counterpart in Warsaw, 15 January 2024. https://short-link.me/13WGb.

[113] «فرنسا تعتبر أن تحسُّن الوضع الإنساني في غزة من مصلحة الجميع «بما فيهم إسرائيل،» القدس العربي، 8 تشرين الثاني 2023، شوهد في 3 آذار 2025. https://2u.pw/SSjCD.

[114] Riham Alkousaa, Thomas Escritt, and Layli Foroudi, «In France and Germany, Palestinian Supporters say they struggle to be heard,» Reuters, 19 October 2023, accessed 8 March 2025. https://2u.pw/6pfcl.

[115] Marsh, Op.Cit.

[116] دول أوروبية تضيِّق على المتضامنين مع فلسطين وتسمح بتأييد إسرائيل،» الجزيرة، 17 تشرين الأول 2023، شوهد في 3 آذار 2025. https://2u.pw/thNCfCB .

[117] Statement by President of the European Commission Ursula von der Leyen,» 26 April 2023, accessed 16 March 2025. https://short-link.me/-RVs.

[118]»تصريحات أنتوني بلينكن في مؤتمر صحفي،» وزارة الخارجية للولايات المتحدة، 9 كانون الثاني 2024، شوهد في 7 حزيران 2025. https:// short-link.me/-RVA .

[119] «تصريحات أنتوني بلينكن في مؤتمر صحفي،» وزارة الخارجية للولايات المتحدة، 11 كانون الثاني 2024، شوهد في 15 آذار 2025. https://short-link.me/-RW6.

[120] Erica L. Green and Michael Crowley, «White House Says a Cease-Fire Would Only Benefit Hamas,» New York Times, 24 October 2023, accessed 17 March 2025. https://2upw/QOig6 .

[121] «Israeli defense minister orders ‹complete siege› on Gaza,» Al Jazeera, 9 October 2023, accessed 3 March 2025. https://2u.pw/fgIKK.

ترجمة

«نُصوّر كأهداف»:
كيف تضع وحدة إسرائيلية سرية صحفيي غزة في مرمى النيران

أنايل جوناه/ فرانس -24 (25 أغسطس 2025)

ترجمة: نور نوارة

لم تُحَرَّك الحرب الإسرائيلية في غزة بالطائرات من دون طيار والدبابات والغارات الجوية فقط. فقد خاضت أيضاً حرباً بالكلمات ومقاطع الفيديو والسرديات المصوغة بعناية. وفي قلب هذا الجهد تقف ما تُعرف بوحدة الجيش السرية «خلية إضفاء الشرعية»، وهي وحدة اتصالات مكلفة بصياغة تصورات دولية عن الصراع.

ووفقاً لصحيفة)972+(المستقلة، فإن مهمتها واضحة: تتفحّص حياة الصحفيين - أحياءً وأمواتاً - بحثاً عن أي أثر يمكن ربطه بحماس، وإن كان واهناً، لتبرير قتلهم.

قُتِل أكثر من اثني عشر صحفياً في غارات جوية إسرائيلية على غزة خلال الأسابيع الأخيرة، ما يسلّط الضوء على ما يصفه محلّلون بأنه إستراتيجية عسكرية متعمَّدة لتجريم العمل الصحفي الفلسطيني.

قال عالم السياسة آهرون بريغمان: «المهمة الأساسية لـ(خلية إضفاء الشرعية) هي تقويض عمل الصحفيين الفلسطينيين وتقديم الذريعة لقتلهم».

حرب سردية تتجسّد هذه السياسة في عدة حالات بارزة. في أوائل أغسطس، قُتل مراسل قناة الجزيرة أنس الشريف إلى جانب أربعة من زملائه في غارة قرب مستشفى الشفاء بمدينة غزة. وسرعان ما نشر الجيش الإسرائيلي مستندات تزعم أنه كان عملياً مرتبطاً بحماس منذ عام 2013. وحتى إن قُبلت هذه الملفات على عواهنها، فإنها بيّنت أن آخر اتصال له بحماس كان في 2017 — أي قبل سنوات من الحرب الحالية.

كان أنس الشريف، البالغ من العمر 28 عاماً، قد قضى شهوراً يُغطّي شمال غزة، ناشراً تقارير عن الجوع والغارات المستمرة. وقال في رسالة أعدّها قبل وفاته: «لم أرتَح ليومٍ واحد عن نقل الحقيقة كما هي، بلا تحريف أو تزوير».

وتكرر الأسلوب نفسه بعد مقتل الصحفي إسماعيل الغول في يوليو 2024، مع مصوّره. وبعد أسابيع وصفته القوات الإسرائيلية بأنه «إرهابي من نخبة (نخبة حماس)»، مستندة إلى وثيقة منسوبة إلى عام 2021 استُخرجت من جهاز كمبيوتر تابع لحماس. لكن الوثيقة نفسها أوردت أنه نال رتبته عام 2007 — عندما كان الغول يبلغ من العمر عشر سنوات فقط.

قال أحد الصحفيين العاملين في غزة، تحدث لفرانس 24 شريطة عدم الكشف عن هويته، إن تكتيكات خلية إضفاء الشرعية «مقلقة»، وإنها تُعرّض حياة الصحفيين للخطر بربطهم بجماعات مسلحة.

وأضاف: «نحن نعمل بالفعل تحت خوف دائم — غارات جوية، فقدان زملاء، الصمت القسري. والآن هناك تهديد سمعي أيضاً، يقصّر من دعمنا وحمايتنا الدوليَّين. إنه جهد منهجي لتشويه شرعية أصواتنا ومنع وصول حقيقة غزة إلى العالم. نُرسَم كأهداف، لا كمحترفين ينقلون الحقائق».

في 2024، حقّقت منظمة Forbidden Storiesالتي تجمع صحفيين من أنحاء العالم، في مقتل ما يقرب من مئة صحفي فلسطيني على يد الجيش الإسرائيلي كجزء من مشروعها «غزة».

قال لوران ريتشارد، المدير التنفيذي للمنظمة، في مقابلة مع راديو فرنسا: «الجيش الإسرائيلي يشارك في نشر معلومات مضلِّلة حول الصحفيين ليُلمح إلى أن كل الصحفيين العاملين في غزة عملاء لحماس».

وأضاف: «الواقع أكثر دقة وتعقيداً... كثيراً ما تبدأ العملية بالشائعات ومقالات في مواقع قريبة من الحكومة الإسرائيلية، تزعم أن صحفياً ما هو في الحقيقة إرهابي. ثم بعد أسابيع أو شهور يُستهدف ذلك الصحفي بطائرة مسيرة».

«أسوأ صراع للصحفيين» في يوم الإثنين، ضربت إسرائيل مستشفىً رئيسياً في جنوب غزة مرتين، ما أسفر عن مقتل ما لا يقل عن 20 شخصاً، من بينهم خمسة صحفيين، وفقاً لمسؤولين طبيين. وأدانت منظمة مراسلون بلا حدود الضربات ووصفتها بأنها جزء من «القضاء التدريجي على المعلومات في غزة»، ودعت إلى عقد اجتماع طارئ لمجلس الأمن الدولي.

وتقدّر منظمات مراقبة الإعلام أن حوالى 200 صحفي قُتلوا في نحو عامين من القتال بين إسرائيل وحماس، ما يجعل غزة أكثر الصراعات دموية للصحفيين في التاريخ الحديث. في أبريل، وصفها معهد واتسون بجامعة براون بأنها «ببساطة، أسوأ صراع على الإطلاق بالنسبة للصحفيين».

قال بريغمان: «إسرائيل تقتل الصحفيين الفلسطينيين كما لو كانوا ذباباً. الطريقة الإسرائيلية بسيطة: تسمح بدخول إلى قطاع غزة الصحفيين والمؤثرين الذين تعتقد أنهم سيدعمون السرد الإسرائيلي، وتُصمّت — غالباً بالرصاص — من يعارضون ذلك».

السيطرة على القصة بعيداً عن قضية أنس الشريف، تُصر إسرائيل على أن عملياتها لا تستهدف الصحفيين عمداً، وتؤكد أن الغارات تستهدف مسلحين وبُنى تحتية عسكرية فقط. ولم ترد قوات الدفاع الإسرائيلية فوراً على طلبات التعليق حول وجود أو نشاطات خلية إضفاء الشرعية.

وبعد الضربة الأخيرة على المستشفى، أمر رئيس الأركان بفتح تحقيق تمهيدي، مؤكداً أن جيش الدفاع «لا يستهدف الصحفيين بحد ذاتهم بأي شكل من الأشكال».

لكن مجموعات تدافع عن حرية الصحافة ترى أن النمط واضح: تشويه سمعة الصحفيين بوصفهم مسلحين، ثم قتلهم في غارات تُبرَّر بتلك المزاعم نفسها. وبالنسبة لبريغمان، فالمنطق قائم على التحكم بالمعلومات وليس على الضرورة العسكرية.

قال: «كل هذا يتعلق بالهاسبارا والسيطرة على السرد الذي تريد إسرائيل أن يؤمن به العالم. ولا علاقة له بالأمن أو العمليات العسكرية».

تمتد سيطرة إسرائيل على سرد غزة إلى ما وراء منطقة الصراع، إذ تنظّم بشدة تغطية الأجانب عبر السماح فقط للصحفيين المرفقين بقواتها بالدخول.

وقال ريتشارد: «هذه من النادرات في التاريخ الحديث حين يمنع بلد بمثل هذا الحجم تغطية الصراع على الأرض من قِبل صحفيين يرغبون في ذلك، وهو ما يشكل مشكلة ديمقراطية كبيرة تتعلق بالوصول إلى المعلومات».

تتخطى خلية إضفاء الشرعية كونها مجرد أداة دعاية. فهي تجسِّد عسكَرة المعلومات، حيث تُفحَص كل كلمة وصورة وتقرير باعتبارها تهديداً محتملاً. في هذا الإطار، لا يعود الصحفيون رسلاً فحسب، بل يصبحون أهدافاً أيضاً.

وختم الصحفي الغّزي المجهول: «كونك صحفياً لا يعني أن تكون هدفاً، لكن للأسف يحاول الجيش الإسرائيلي تسميتنا كذلك، مما يروّع الجمهور والصحفيين على حدٍّ سواء».

تحقيق الهدف

مشكلات (نهب الممتلكات) في مخيم اليرموك

وفاء حميد ـ صحفية فلسطينية ـ سورية

على الرغم من الفرحة التي اعترت مشاعر الكثير من أهالي مخيم اليرموك، الذين وجدوا أخيراً طريقاً للوصول إلى أرض الشتات بعد سقوط النظام السابق، والبدء بحياة جديدة، إلا أن المشكلات لا تنتهي أبداً، وقد تواجه الكثير من أصحاب البيوت، الذين يتوقون إلى ترميم بيوتهم أو محالهم التجارية والانتهاء من عناء التشرد والإيجار.

وهنا رصدنا بعض المشكلات التي واجهت عدداً من أهالي المخيم، عندما أتوا إلى بيوتهم ليصطدموا بواقع أليم، وبأن ممتلكاتهم قد أصبحت ملكاً لغيرهم....

وبهذا الصدد حول هذه المشكلات، حاورنا المحامي الأستاذ غياث دبور الناشط الحقوقي وعضو لجنة الصلح ومكتب التمكين المجتمعي في المخيم... وطرحنا عليه الأسئلة التالية:

■ • **حدثنا أولاً عن الوضع القانوني للبيوت في مخيم اليرموك (أرض مؤسسة، أرض حرة)؟**

تقسم الملكيات في مخيم اليرموك إلى عدة أقسام ملكية الطابو، وعددها قليل من الأبنية، موجودة في شارع الثلاثين ملكية طابو، يعني ملكية مفرزة توجد في السجل العقاري، وتعني أن كل بناء يأخذ رقم الفرز، ويمكن لهذا العقار، نقله عن طريق السجل العقاري بطريقة قانونية ويسجل باسم هذا الشخص إلا أنها ملكية جداً قليلة، وقسم آخر، أرض المؤسسة تابعة ملكيتها للهيئة العامة للاجئين الفلسطينيين وطريقة التملك، هي منح إذن السكن لهذا الفلسطيني وهي عقارات مؤجرة للهيئة لمدة /99/ عاماً وتعد أملاكاً خاصة للهيئة، والشخص الذي يملك هذا العقار لا يملك الأرض. أما الملكية الأكثر شيوعاً في مخيم اليرموك - ملكية كاتب العدل أو وكالة العقارات أو البيع الموجز الذي كان معظمها منظم في الحجر الأسود واليرموك ـ وقسم ببيلا وقسم بالقصر العدلي، بالنسبة للوكالات الموجودة في القصر العدلي، موجودة إلا أنه تم تنظيمها في الحجر الأسود ومخيم اليرموك، وبالنسبة لسجلات الحجر الأسود تم إتلافها وحرقها... أما بالنسبة لمخيم اليرموك فقسم قليل تم إخراجه إلى كاتب العدل مقابل قصر العدل بالحميدية، وهناك مشكلة بالملكيات، أنه خلال حصار المخيم كانت هناك مساعٍ من قبل المحامي العام في دمشق لإخراج السجلات من محكمة اليرموك وسجلات زواج وسجلات كاتب العدل المتعلقة بالفراغ والبيوع، وقد قطعت المساعي شوطاً كبيراً، وكان هنا بعض المحامين المتطوعين والقضاة يتعاونون لدخول الشباب أثناء الحصار بالاتفاق مع الثوار، والتنسيق معهم لتجهيز السجلات لكن النظام كان يقوم بالقنص- لهذا لم يتم إخراج إلا القليل من السجلات والباقي تم إتلافه وحرقه من قبل الجيش..

■ **هل وردت إليكم شكاوى حول نهب ممتلكات الأهالي حين عودتهم إلى مناطقهم؟**

نعم للأسف، هناك حالات كثيرة وكوننا لجنة مصالحة ويجب علينا معالجة أمور بعيدة عن العقارات والملكيات، إلا أن الواقع يفرض علينا الكثير من هذه الحالات، هناك قسم يمكن حله عن طريق القضاء، وقسم يمكن حله عن طريق مخفر قسم شرطة اليرموك، وهناك قسم قليل يمكن لنا أن نحله من خلال معرفة شخص يقوم بالتزوير ويتم تجريمه، ويتم مواجهته بالقانون، والوقائع، وإن حالات تزوير الوكالات والعقود نسبة لا بأس بها..

■ **هل تُشكّل نهب الممتلكات ظاهرة أم هي حالات فردية؟**

أكيد ليست حالة فردية، هي بدأت كما يدعي النظام عند تحرير المخيم عام /2017/ وكان موجود الحاجز الأمني فبدأ من هنا الإشكال، لأن أي شخص يريد الدخول إلى المخيم يجب عليه أن يبرز أوراق ملكية هذا البيت، ويتم الكشف عنه بشكل

هندسي وإعطائه رقماً، كان هناك الكثير من الأشخاص مطلوبين من الأمن فلم يكن بإمكانهم الدخول، فكانوا يعتقدون أن الأمور انتهت، ولهذا كان يستغل هذا الموضوع... وكان هناك أناس يدخلون البيوت التي هُجّر أصحابها بموافقة من قبل النظام، والمشكلة أننا لا نستطيع إنكار ملكيتهم عندما يبرزون ملكية البيت ووجود عقد (ولم يقل إن النظام هو من أعطاني هذا البيت).

■ ما أنواع الممتلكات التي تم نهبها؟

لقد جاءت عندي حالة قبل يومين، أحد أصحاب المحال قد وجد باباً لمحله، وقد أزيل الجدار الذي تم وضعه، مما اضطرني أن أخبره أن يقوم بعمل ضبط شرطة، وهذا يشمل العقارات السكنية وغير سكنية، وتجارية وكل على حد سواء...

■ ما الأسباب التي دفعت إلى نهب الممتلكات؟

السبب الأساسي وجود النظام والحواجز الأمنية التي كانت مسؤولة عن الدخول والخروج، فهناك أشخاص يريدون العودة إلى بيوتهم وكان لا بد لهم من مراجعة فرع فلسطين ـ وفرع المنطقة، وهناك دراسة أمنية وبيان عائلي، وأنا من الأشخاص الذين كانوا يريدون العودة إلى بيتهم، وطُلب مني مراجعة فرع فلسطين، ومكثت في ضيافتهم من الساعة 8 حتى 3:30 وقد طُرحت علي أسئلة حول عائلتي والحمد لله تمت الأمور على خير، لكن هناك أناساً تم ابتزازهم إما بدفع المال إن كان لهم أقارب مطلوبون، أو يتم الاستيلاء على بيوتهم..

■ هل من أطراف متورطة في هذه العملية مثل منظمات أو جهات أخرى أو حالات فردية؟

لا أعتقد أن هذا الموضوع منظم، لكن هناك شخصية مطلوبة وأتحفظ عن ذكر اسمها كان يقوم بعمل منظم مع الحواجز الأمنية وأتت شكاوى كثيرة عليه، وقد أخرجت بحقه مذكرة توقيف، وهي قيد التنفيذ...

■ ما مدى تأثير عمليات النهب على الصعيدين النفسي والاجتماعي لدى السكان؟

نحاول أن نضبط الأمور فقد جاءني أستاذ مدرسة معروف، وجد أن أحدهم قد استولى على بيته وقال: (يا بروحي يا بروحه)، لهذا نحن نحاول ضبط الأشخاص وتهدئة النفوس...

■ هل تم توثيق طرق عمليات النهب؟ وهل هناك إحصاءات؟

لا يوجد إحصاءات لأن هناك حالات معينة جاءت عندنا، وحالات أخرى أحيلت إلى القضاء وحالات نحن حوّلناها إلى القضاء وحالات إلى المخفر وذهبت إلى القضاء، ولا توجد نسبة محددة إنما هي بالمجمل نسبة متوسطة...

■ ما أكثر المناطق التي شهدت عمليات نهب واسعة النطاق؟

أكثر المناطق التي وردت الشكاوى منها هي منطقة شارع عين الغزال ومناطق مثل العروبة والتقدم وصفد، ولا يوجد مكان محدد، إنما هناك ناس تقوم بترتيبات هذا العمل، يجدون أن أصحاب هذا البناء مسافرون أو مطلوبون للأمن- منهم أشخاص محترفون – خاصة إذا وجدوا الشارع مأهولاً، فيقوم بدراسة مسحية قبل السطو على البيت...

■ هل هناك محاولات لاستعادة الممتلكات المنهوبة؟

نعم، أكيد، نحاول، أولاً، أن نستدعي من استولى على البيت، وإيصال الحق وعندما نعجز نوجهه قانونياً، أن يلجأ إلى القضاء برفع قضية على طرد غاصب، أو حتى المخفر يحوله إلى القضاء ولا أحد له سلطة عليه في حال أبرز الشخص ما يثبت ملكيته للعقار...

■ هل من إجراءات قانونية يتوجب اتباعها لاسترداد هذه الممتلكات والتعويض؟

بالحالات القضائية هناك عدة حالات، حالة إعادة حيازة، أو طرد غاصب، هي حسب الحالة الموجودة، والقضاء يأخذ الوثائق وعند التأكّد من الملكية سيرجع العقار إلى أصحابه، لكن المسألة تحتاج إلى وقت بالإضافة إلى التكلفة والأتعاب...

■ هل هناك جهود من الدولة لمحاسبة المسؤولين عن عمليات النهب؟

طبعا هناك حالات كثيرة وخاصة بداية التحرير تم استرداد الكثير من العقارات التي تم نهبها من قبل النظام، ومن ضمنها بيت الرئيس الشرع، وهناك نسبة كبيرة من البيوت تم استردادها من قبل الدولة الجديدة، وإعادتها إلى أصحابها، أما بالنسبة للمخيم فالدولة لم تتدخل لعدم معرفتها بالأمر أو أن أحداً لم يرفع شكوى، بسبب عدم وجود ثقافة لدى الناس للمطالبة في استرداد بيوتهم، لكن الوضع الحالي والطريق الصحيحة هي مراجعة القضاء.. مثلاً بناء في ساحة الحريقة كان مخفر الشرطة، وله عائلة وبمجرد أن تم إخلاؤه ومراجعة العائلة للهيئة تم استرداده.

■ ما العقوبات القانونية لمرتكبي التزوير والنهب؟

معظم الجرائم تعتبر جرائم نصب واحتيال من الشخص الذي يبيع العقار أكثر من مرة، ويعد تزويراً جنائياً في وثائق رسمية، التزوير الجنائي تكون مدته من 10-15 سنة مع استخدام مزور، ومع ظروف مشددة، وهي تجرم هذه العقوبة...

■ هل هناك مشكلات جانبية نجمت نتيجة لعمليات النهب وأثرت على الاستقرار؟

هناك حالات فردية أدت إلى الاصطدام بين شخصين لا أكثر، ولم تأخذ أبعاداً ولم تتوسع...

إن مخيم اليرموك عاصمة الشتات، وبرغم من كل ما جرى ويجري فيه، من أحداث وقد تجدها في كل مكان في العالم، إلا أن الأيادي البيضاء مازالت موجودة وبكثرة، وهو مازال حاضنة لأبنائه ومحبيه ومازالت روح الحب والتعاون متأصلة بجذوره...

حوار الهدف الثقافي

الروائي الفلسطيني صبحي فحماوي

حـوار: أمينة عباس ـ صحفية سورية

كاتب روائي أردني/فلسطيني، في رصيده أربعة وخمسون كتابًا منشورة، تنوعت ما بين الرواية والقصة والأقصوصة والمسرحية والنقد. ولم تكن كتاباته ترفًا فكريًا أو فنيًا، فكل رواياته مسكونة بالهمّ والرعب الفلسطيني، والظلم الذي يعانونه. وحين يصف نفسه يقول: «أنا حادّ في كتاباتي ولستُ حياديًا، وأشير إلى الصح والخطأ، ولا أتخفّى وراء الأشياء، ولا أكتب كتابة رمزية، بل أكتب بوضوح وأسمي الأشياء بأسمائها». رشّحت دار الهلال روايته «الأرملة السوداء» الصادرة في العام 2011 للتقدم لمسابقة جائزة البوكر العالمية للرواية العربية، كما رشحت روايته «سروال بلقيس» لنفس الجائزة. وفي العام 2014 نال جائزة الطيب صالح عن مسرحية بعنوان «حاتم الطائي المومياء»، في حين حاز في عام 2023 على جائزة أفضل رواية مقدسية من اتحاد كتاب فلسطين عن روايته «زهرة المدائن». وهو عضو في رابطة الكتّاب الأردنيين، واتحاد كتّاب مصر، ونادي القصة المصري، واتحاد الكتاب العرب في سورية.

■ **كيف تجلت المأساة الفلسطينية في كتاباتك؟**

أعتقد أن المأساة الفلسطينية في كتاباتي هي سيرة حياة شعب تعرّض لزلزال طويل الأمد، ما تزال مكوناته ترجُّ وتدمّر كيانه، وتباعًا، تهدم الوطن العربي تدريجيًا، وذلك منذ بداية القرن العشرين وحتى اليوم. ومنذ أن أصدرت روايتي الأولى «عذبة»، كانت الأحداث تقطر مآسي وعذابات ودماً لأناس لا ذنب لهم، سوى أن ماكينة الحصاد الصهيونية الرأسمالية المتوحشة قد مرّت عليهم في بيوتهم، فحصدتهم هم وحجارة بيوتهم ومزارعهم في طريقها، التي لا تميّز ولا ترحم. ولا مساحة هنا لتفصيل تلك المعاناة المستمرة، وذلك بذكر فقرات من تلك المآسي، التي يكمن معظمها في ترهيب وقتل المواطنين الذين يعيشون آمنين في بيوتهم ومزارعهم وأعمالهم.

■ هل كل ما كتب حول هذه المأساة قد عُبِّر عنها بما يكفي؟

المأساة مستمرة منذ مؤتمر بازل في سويسرا عام 1897 الذي اقترح إقامة دولة لليهود في أوغندا، ثم حوّلته بريطانيا بقدرة قادر إلى فلسطين، بكذبة كبرى مفادها أنها أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، وكانت فلسطين غاصّة بشعبها وبيوتها ومزارعها ومصانعها. ولكن قوة الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية جعلت بريطانيا تدعمها، وتهجّر اليهود للتخلص من شرورهم عبر باريس بالسفن إلى ميناءي يافا وحيفا. وقد قالت لي امرأة بريطانية كنت أنزل في بيتها سائحًا عام 2005 في بورتسموث، على الشاطئ الجنوبي لبريطانيا، إن زوجها كان يخدم في الجيش الإنجليزي في القدس، وقد رفض إعطاء فلسطين لليهود- حسب قولها- وقال: «لماذا لا نأخذها نحن الإنجليز للسياحة والاستجمام، لتبقى محمية لنا، فهي أجمل بلاد العالم، إذ إنها دافئة معتدلة وخضراء، بدل الهند المتخلّفة والبعيدة». وأضافت أن زوجها قُتل ضمن من قتلتهم عصابات (إتسل + ليحي + الهاجانا) الصهيونية بقيادة مناحيم بيغن، بتفجيرهم لفندق داود عام 1946، والذي قتل فيه 92 ضابطًا وخادمًا إنجليزيًا. فقلت لها: وهل فلسطين قطيع مواشٍ تفضّلون استبقاءه لكم، بدل إعطائه لصهاينة اليهود؟ أليس لها شعب من حقه أن يعيش، كما تعيش بريطانيا وألمانيا وساحل العاج وجنوب أفريقيا وغيرها من الشعوب؟

إن المأساة الفلسطينية مستمرة منذ السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، الذي كان يراوغ كاذبًا بقوله: «فلتُقطع يدي إذا وقّعت لليهود على شبر من فلسطين»، بينما استقبل هرتزل بحفاوة بالغة، ووصفه بالصديق المخلص، وهو يرجوه إنقاذ دولته من الإفلاس. ولهذا بنى هرتزل مفاوضاته على حاجة العثمانيين الملحّة للمال، وعرض على عبد الحميد 20 مليون جنيه إسترليني، مُنح على إثرها المهاجرون اليهود امتيازات وتسهيلات استثنائية. عندئذٍ عاد هرتزل لأوروبا وعقد المؤتمر الصهيوني الأول في سويسرا عام 1897، معلنًا أهدافه الصهيونية بإنشاء وطن قومي للشعب اليهودي برعاية عثمانية، وذلك ما أكده الأكاديمي اللبناني حسان علي حلاق في كتابه "موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية" وغيره من الأساتذة الباحثين.. من هناك بدأت المأساة الفلسطينية بين مراوغة الأشقاء الأعدقاء والحلفاء الغربيين الذين حصلوا على جائزة كبرى نتيجة نجاحهم في الحرب، وكانت الجائزة هي التخلص من يهود شايلوك الذين كانوا يمتصون أرباح المسيحيين بالربا، حيث إن المسيحية كانت ترفض الربا المسمى الفوائد البنكية، ولكن اليهود كانوا يتعاملون بها، فيمتصّون خيرات أوروبا وحتى الولايات المتحدة. فتخلصوا منهم بقذفهم إلى فلسطين، فانتشوا من هناك، ونشطوا ليغزوا العالم بدهائهم وأحابيلهم التي استغلت الإنسانية وقهرتها، ابتداءً من مأساة فلسطين، حيث قتلت شعبها بأسلحة الحلفاء، وشتّتت من لم يمت إلى الفيافي والقفار في أرجاء الوطن العربي ودول العالم، وبقيت تلاحق مخيمات الشتات بالقتل ومواصلة التهجير، بما يكمن في فحوى هذه الملاحقات القاتلة من مآسٍ ما يزال يكابدها الشعب الفلسطيني.

■ أكثر رواية من رواياتك تعتبرها خير توثيق للمأساة الفلسطينية؟

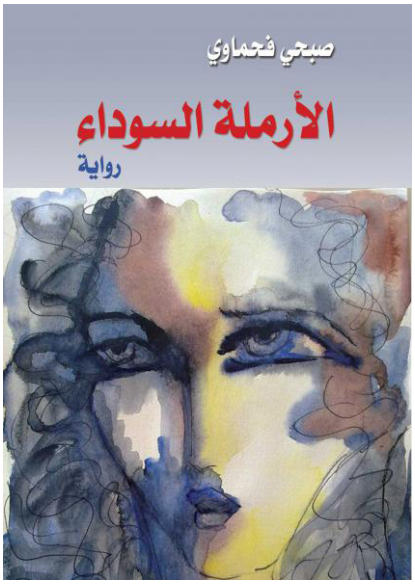

كل رواياتي مسكونة بالهمّ والرعب الفلسطيني، والظلم الذي يعانونه، تحت باب: «الجمل الذي يقع، تكثر سكاكينه». فروايتي «عذبة» تسرد المأساة الفلسطينية منذ ما قبل النكبة 48، وحتى ما بعد اتفاقيات كامب ديفيد وأوسلو ووادي عربة. أما رواية «حرمتان ومحرم» فلقد سردت فيها حال شعب قطاع غزة الواقع تحت الاحتلال والحصار الخانق، «وظلم ذوي القربى أشد مضاضة».. ويستمر هذا الحصار لنجد مدينة غزة الوحيدة تقاوم العالم المتصهين، مدافعة عن الكرامة العربية قبل الكرامة الإنسانية للعالم كله. وصورت في روايتي «سروال بلقيس» مجتمعًا فلسطينيًا يعيش بين البرتقال في حيفا والناصرة ويافا، وقد وجد نفسه مُجرَّفًا بالجرافات ومكوَّمًا في بقعة مهجورة تم تشكيلها على شكل مخيم، لنشاهد العذابات والرعب الذي يعيشه أهل المخيم بعد تهجيرهم المدمِّر. وأما روايتي «قاع البلد» فهي تصور شخصية الهربيد، الذي كان ينتفع من أغنام أبيه، في منطقة بيت لحم وشرقها، ويتثاقف مع مجتمع بيت لحم الراقي، فإذا به بعد احتلال 1967 يجد نفسه مُشردًا في منطقة أردنية جنوب عمان، حيث يشاهد أباه يغرق في قاع مائية رملية، أمام عينيه المُعذبتين، وهو لا يستطيع إنقاذه، وتستمر معاناته وعذاباته حتى يستطيع اختراق حدود نهر الأردن، والعودة بعملية فدائية مرعبة. وفي رواية «الإسكندرية 2050» سلطت الضوء على حياة الطالب مشهور شاهر الشهري الذي درس الهندسة في جامعة الإسكندرية، وعمل في الخليج، وخلف ولدًا اسمه برهان، استطاع هذا البرهان أن ينتج ولدًا وبنتًا لونهما أخضر، ويتغذيان بالتمثيل الضوئي كالأشجار، ليتحول الإنسان ومن ثم الحيوان إلى إنسان أخضر، فتنقى البيئة، وتتوقف الصراعات، وتقل الأعمال، ويتفرغ الإنسان للتمتع بالحياة وكأنه في خيالات الجنة، بينما يعود مشهور إلى وطنه الفلسطيني في عكا. ونجد أن باقي الروايات تتناول القضية الفلسطينية، كلٌّ في مسرب مختلف وبأسلوب مختلف.

> **المأساة الفلسطينية في كتاباتي هي سيرة حياة شعب**

■ **ما هي المطبات التي وقع فيها الروائيون في تناولهم للقضية الفلسطينية برأيك؟**

أكثر المطبات أن بعضهم غير مثقف ثقافة عالية، فنجده يجهل تفاصيل ما حصل لفلسطين، وبعضهم يتحدث من فم العدو، كأن يكتب أحدهم «أورشليم» وهي «أورسالم» باسم الملك الكنعاني سالم، وأن يكتب البعض أن إبراهيم سكن الخليل، بينما لا توجد أية أدلة تاريخية على هذه الإقامة، وهذا ما يورطنا حاليًا باحتلال مسجد الإبراهيمي في الخليل، وصولًا إلى الديانة الإبراهيمية، مع العلم أن «الدين عند الله الإسلام» وليست الإبراهيمية. وقد يعتمد البعض على الكتب الدينية التي لا تُعتمد مصدرًا للتاريخ، بل هي مجرد أساطير الأولين. وأن يكتب بعضهم عن داود وسليمان وموسى في القدس، بينما المؤرخ اليهودي الأمريكي نعوم تشومسكي قال في حوار مع غسان بن جدو على قناة الجزيرة، إن اليهود لم يدخلوا فلسطين في التاريخ، وإن تلك هي أساطير من مخيلة دهاقنة كتّاب يهود. وردًا على سؤال، قال إن نبوخذ نصّر قد فعل السبي الكبير من اليمن، وليس من فلسطين، وإنه إذا سبى نبوخذ نصّر جماعة من فلسطين، فهم من الكنعانيين المتمردين المعارضين للتوسع البابلي نحو بلاد الشام والبحر الكنعاني. وأن زاهي حواس، رئيس الآثار المصرية الشهير، قال: إن تاريخ مصر لا يوجد فيه خروج موسى من مصر وتوهانه في سيناء. ولهذا صارت كتب هؤلاء الكتّاب أو رواياتهم تصدر منقوصة، أو تزيد الجهل جهلًا، حتى إن بعضًا من الروائيين الذين تكالبوا على الجوائز كتبوا عن علاقات فلسطينية طيبة مع شخصيات صهيونية، بدل أن يكشفوا عن عيوب الشخصية الصهيونية المحتلة لفلسطين. وقد كان نص روايتي «صديقتي اليهودية» معاكسًا، إذ إنها صورت سلوك اليهود الفردي والثمانين هجرة لهم عبر التاريخ، وأوضحت بالوثائق، بمحاضرات وكتب أستاذ أمريكي محاضر، أن اليهود الذين يسمون أنفسهم بالساميين هم ليسوا من بلاد العرب، وإنما هم من «قبيلة سامي» السويدية النرويجية، والذين جاؤوا من شمال أوروبا، فكوّنوا مملكة الخزر على بحر قزوين، ثم دالت دولتهم، فانتشروا في أوروبا ثم الأندلس حيث عملوا على إضعاف العرب هناك، وبالتالي هزيمتهم شر هزيمة. ثم انتشروا في بلاد العرب كيهود أشكناز. وأما اليهود الساميون، فهم مثلنا، وقد بقوا في اليمن حتى يومنا هذا.

■ **إذا أردت أن تكتب رواية تصف ما جرى مؤخرًا في غزة، ماذا يمكن أن تسميها، وعلى ماذا تركز فيها بالدرجة الأولى؟**

أجدني أفكر في كتابة رواية تصف الأحداث المروِّعة في غزة والضفة الفلسطينية، هذا الدمار الذي لم يسبقه دمار في التاريخ، فلم يكن هتلر يقتل الناس المدنيين ويهدم عليهم بيوتهم وهم نيام، بل كان يحارب الجيوش بالجيوش. ولا أستطيع أن أوضح لك تقنيات هذه الرواية، التي أُفضل أن تبقى لحين صدور الرواية إذا صدرت، والتي أطالب فيها بعودة فلسطين إلى أهلها وورثتهم، من النهر إلى البحر.

■ **احتلت الروايةُ حيزاً كبيراً من إبداعك، فماذا يعنيك فيها بالدرجة الأولى؟**

أقدّم من خلال الرواية المتعة، لأن الرواية أولاً وأخيراً عمل ممتع، فيها لذة القصّ، وأنا عندما أكتب أطمح لأن يستمتع القارئ بما أكتبه، إلى جانب سعيي لتقديم المعرفة فيها، لأن كثيراً من الناس يجهلون وقائع كثيرة، فأحاول أن أضيء على الزوايا المعتمة التي لا يراها الناس العاديون، لأوضح لهم أن هناك مشكلة أو قضية عبر جماليات النص واللغة، لأنني أؤمن أن لغتنا أجمل لغة في العالم، وهي لغة فريدة من نوعها، ثرية وغنية ودقيقة، وهذا لا يتوفر في اللغات الأخرى.

كل رواياتي مسكونة بالهمّ والرعب الفلسطيني

■ **من أين اكتسبت المهارة الكبيرة التي تتمتع بها في قصّ الحكاية؟**

أنا قارئ نهم منذ طفولتي، وأقرأ بلا توقف وبتركيز عالٍ، وكنتُ من متابعي السينما والمسرح، وبذلك تشكّل عندي مخزون ثقافي كبير، والأهم أنني كنتُ في طفولتي شخصاً صامتاً لا يتكلم إلا قليلاً، وكانت الكتابة وسيلتي للتعبير.

■ **وما الذي جعلك تشبّه الروائي بزرقاء اليمامة؟**

زرقاء اليمامة كانت ترى المستقبل، ومن هنا أرى أن الروائي يجب أن يكون كزرقاء اليمامة بعيد النظر، وفي روايتي «الإسكندرية 2050» نظرتُ إلى البعيد وتحدثت عن الحياة عام 2050 كنوع من استشراف المستقبل.. الروائي يجب أن يفكر بالمستقبل ويقرأ الواقع، ويجب أن يكون مثقفاً، وأن يمتلك معرفة ليوظفها في كتاباته، ويجب ألا يكون تابعاً لأحد، وأن ينطق بلسانه لا بلسان أحد، وهذا يعني أن الكاتب يجب أن يكون حراً وغير مقيّد.

■ **كيف تنظر للكاتب المأجور؟**

الكثير من الكتّاب يكتبون لمن يدفع لهم أكثر، وهؤلاء ليسوا كتّاباً بل مرتزقة، وأحتقر كلّ كاتب ليس لديه موقف وقضية، ويكتب لمن يدفع له أكثر.. الكاتب الحقيقي يجب أن ينطق بمشاعره، وأن يكون له مبدأ أو قضية أو وجهة نظر، لأنه عندما تكون له قضية يسير حسب بوصلة توجهه إلى الهدف المنشود.

■ **تميل في كتاباتك إلى الرواية التاريخية، فما الذي يغريك فيها؟**

اعتدتُ على قراءة كتب التاريخ، وأرى أنني أضيف عمراً إلى عمري حين أغوص فيها، ومَن يكتب رواية تاريخية يحتاج إلى بذل المزيد من الجهد، وإلى التدقيق والبحث والدراسة للتأكد من صحة ما تتضمنه هذه الكتب، فالأمر لا يخلو من تزوير الحقائق فيها في بعض الأحيان.

■ ما الطريقة التي تتعامل فيها مع التاريخ بحيث لا يطغى على الأدب الذي تكتبه؟

أؤمن أن الرواية أصدق أنباءً من المؤرخين، لأن معظم المؤرخين يكتبون ما يريده الأقوياء، ويجب أن نعرف أن بعض المؤرخين زوّروا الأحداث، ولا أنكر أن الروائي قد يفعل ذلك أيضاً، إلا أنني أؤكد أنني أكتب الحقيقة في كتبي، وبقناعتي أن المؤرخين ليسوا صادقين، والروائي يكتب بحرية أكثر منهم، ويؤرخ بشكل أفضل.

■ تحدث كثيرون عن السخرية في كتاباتك، فهل أنت كاتب ساخر؟

قد يكون أسلوبي في بعض الأحيان ساخراً، لكن يحدث هذا دون أن أقصد، فأنا بطبعي أمزج المرح مع الترح، وبالتالي لا أتقصد السخرية وإنما يأتي الأمر بشكل طبيعي، وأنا لا أخطّط لذلك.

■ مسيرة غنية بالرواية والمسرح والقصة، فما سبب هذا التنوع؟ وهل هو نوع من التشتت؟

المسرح هو أبو الفنون، والرواية أم الفنون، ففيها نجد الشعرَ والقصةَ والحكاية والموسيقى والفكر، وأؤكد أن هذا التنوع ليس نوعاً من التشتت، لأن ما أكتبه يكمل بعضه بعضاً.

■ بمن تأثرتَ على صعيد المسرح علماً أن لك نصوصاً عديدة في هذا المجال؟

تأثرتُ بالمسرحيات الإغريقية لسوفوكليس ويوريبيدس وأرسطوفان، ومعظم مسرحيات شكسبير، والفرنسي موليير، وجان راسين، وآرثر ميللر، إضافة إلى المسرح العربي ابتداءً من مسرح القباني، والكاتب المسرحي السوري سعد الله ونوس، بالإضافة إلى الكتّاب العرب كاتب ياسين، وتوفيق الحكيم، ومحمود دياب، ونعمان عاشور، وغيرهم. وللأسف توقفتُ عن الكتابة للمسرح حين أُطفئت أنواره في الوطن العربي.. المسرح يعاني الكثير في الوطن العربي، وقد نجح التلفزيون في استقطاب جمهوره.

■ وهل كتبتَ الشعرَ كما فعل معظم الكتّاب؟

بدأتُ بكتابة الشعر من خلال كتابة عدة قصائد، وحين عرضتُ هذه القصائد على أحد الأصدقاء نصحني بترك الشعر والالتفات إلى دراستي، فتوقفتُ عن كتابة الشعر واستمررتُ بالقراءة، وكنتُ كثيراً ما أنجز كتاباً في اليوم، وعندما جئتُ من فلسطين إلى الأردن كان لديّ جوع للقراءة، فالتهمتُ كل ما كان يقع بين يدي من كتب.

■ رأيك بموضوع الجوائز التي تُمنَح للكتّاب والمنتشرة في الوطن العربي؟

الجائزة لا تُعتبَر معياراً للحكم على جودة عمل الروائي، وقد قال أحد النقاد إنهم ذاهبون لمنح جائزة هذه الدورة إلى فلان قبل قراءة النصوص، وهذا مؤسف حقاً، فالعديد من المبدعين الرائعين لم يحصلوا على جوائز.. صحيح أن هناك تهافتاً من قبل معظم الكتّاب للحصول على جوائز مالية، لكن الأهم من قيمة الجوائز المالية هو الحصول على مزيد من القراء لجعل أعين النقاد تتجه صوب أعمالهم، وحتى تنال قسطاً من الشهرة ويزداد الاهتمام بها بسبب حصولها على الجائزة، وهذا يدل على الركود الذي يغرق فيه مجال النقد، فبعض النقاد حالياً ليس لهم الوقت ولا القدرة على النبش والبحث عن الأعمال الجيدة الجديدة ودراستها، لهذا فهم ينتظرون نتيجة جائزة ليتهافتوا على نقد العمل الفائز بها.

■ ولكنك نلتَ جائزة الطيب صالح عام 2014، فبماذا تختلف هذه الجائزة عما ذكرتَه؟

نلتُ هذه الجائزة من شعب عظيم، ودون ذلك لم أحاول أن أشارك في الجوائز الأخرى التي يتم الإعلان عنها، مع قناعتي أن الكاتب يجب أن يكتب ما يريده هو، وليس من أجل الحصول على الجائزة، وأنا لا أكتب حسب الطلب، بل أكتب للناس البسطاء، ومتطلباتي قليلة، ولستُ بحاجة لهذه الجائزة، فأنا بحاجة لأن أكتب بحريةٍ لأفرغ ما في جعبتي، وأكتب وأبدع ليس من أجل الجوائز، وليس لدي ميل لتقليد الآخرين، بل لأقدّم بصمتي الخاصة، لذلك يسعدني من يقول إنه يعرف كتابتي بمجرد قراءة النص حتى لو لم يكن اسمي مذكوراً عليه، وهذا ما أريده.

> **بعض المؤرخين زوّروا الأحداث**

■ كيف تفسر غياب النقد الحقيقي عن الساحة الإبداعية؟

النقد يحتاج إلى ناقد موسوعي، والناقد الأصيل يتوقف عن الكتابة لأنه لا يحصل على المقابل، وبالتالي فهو يريد أن يعيش، وهذا يجعله يبحث عن مصدر رزق آخر، وأصبح الناقد في حالة يُرثى لها، وبقي المرتزقة في الساحة، ولذلك لم ينصفني النقد ويتجاهلني رغم العدد الكبير من رواياتي وقصصي ومسرحياتي.

■ زرعتَ كمهندس زراعي أكثر من مليون شجرة في الأردن، وملايين الشجيرات والحوليات. وكعضو في الجمعية الأمريكية لمهندسي الحدائق، من هنا أسألك: ماذا قدّم عملك للأدب الذي تكتبه؟

هناك تصور لدى العامة أن كل من يكتب في الأدب يجب أن يكون دارساً أكاديمياً للأدب، وأنا أرى أن العيش وسط الزرع والورود والأزهار هو أقرب للإيحاء بالكتابة والإبداع من غيره، فالكتّاب القدامى مالوا إلى الإبداع لأنهم تأملوا الطبيعة واستنطقوها، إذ إن عالم الزراعة هو الأكثر انفتاحاً من المهن الأخرى التي تُمارَس بين أربعة جدران، فهي تتم في الهواء الطلق.. ومن هنا، لا حدود لخيال الكاتب الذي يعيش وسط الطبيعة.

من مواليد أم الزينات/ حيفا/ 1948، خريج جامعة الإسكندرية 1970، من رواياته: «الحب في زمن العولمة»، «قصة عشق كنعانية»، «على باب الهوى»، «سروال بلقيس» وغيرها، في رصيده أكثر من عشر مجموعات قصصية والعديد من المسرحيات، وأصدر عدد كبير من الباحثين كتبًا نقدية عن كتبه.

حوار افتراضي بين حنظلة وناجي العلي

الإعلامي أحمد طنيش - المغرب

يعتبر حنظلة جزءاً هاماً من سيرة ناجي العلي، فإذا كان ناجي العلي الفنان الرسام والمناضل والإنسان، فكذلك حنظلة الإبداع والكاريكاتير الناطق والفنان والمناضل والإبداع المؤنسن، في عصرنا الحالي وصلنا إلى مرحلة «الميتافيرس» حيث ادمج الإنسان مع الآلة، وذلك حينما انخرطنا في أدوار تداخلية، لكن ناجي العلي وحنظلة كانا لهما السبق إلى هذا التلاقح والتداخل وتبادل الأدوار؛ لذا نستحضر في هذا الحوار الافتراضي ما صرح به ناجي العلي للصحافة والرأي العام الفني والسياسي عن حنظلة ونستحضر إبداعات حنظلة وصورته وبلاغاته..

يعد حنظلة الجناح الطفولي لناجي العلي، والجناح الحي والحقيقي والصادق في البشرية، ويعد وصية الرجل للعالم.

حنظلة: أنا أيقونة فلسطينية مثل ناجي العلي ومثل كل الكبار والشهداء الذين قضوا نحبهم والذين ينتظرون منذ سنة 1948، إلى غزة الحالية، أنا أشهر الشخصيات على الورق، بل أنا الضمير العربي الذي رسمه ناجي العلي في كاريكاتيراته وقد قدمني سنة 1969 بجريدة «السياسة الكويتية». تاريخ الولادة إذن هو 5 حزيران 1967، جنسيتي، كما صرح ناجي العلي: لست فلسطينياً ولا أردنياً ولا كويتياً ولا لبنانياً ولا مصرياً، باختصار ليست لدي هوية ولا حتى لي نية التجنيس، أنا إنسان عربي فقط..

ناجي العلي: يوجد حنظلة في المنزلة بين المنزلتين بين اللامبالاة واليقظة، بين غض الطرف والامتعاض الصامت حيال ما جرى ويجري. لا يتكلم قط، ولم نسمع صوته بتاتاً، ولكنه قال كل شيء امتنعت عن إظهار حنظلة متكلِّماً. فقط تركته يحتجُّ بالصمت والعراء، متحوِّلاً بوجهه عن مخاطبتنا. الصمت احتجاج الحكماء، إيحاءات لامتناهية، بلاغة البلاغات. إنه واجم تشغله هواجس ثقيلة.

حنظلة: أنا الغاضب دوماً، مكتفياً باقتفاء الأثر السلبي في هذا العالم حضرت الحروب والمنافي ودخلت السجون ومخافر السلطة وعشت بين اللاجئين والمنفيين، ألقيت بكل شيء خلف ظهري، احتجاجاً وموقفاً، أبدعني ناجي العلي الأب والصديق والرفيق، وأبدع أيضاً ثلاث شخصيات أخرى، وهي فاطمة تلك المرأة التي لا تهادن على مستوى تصورها للقضية الفلسطينية، والسمين صاحب بطن ومؤخرة كبيرتين إشارة إلى الأوليغارشيات العربية العاجزة، ثم الجندي الإسرائيلي صاحب الأنف الطويل، المرتبك حين مواجهة أطفال الحجارة، لكن في نهاية المطاف بقيت البطل خارج النص، وكانت استمراريتي عبر يوميات تمرد ناجي العلي واحتجاجه.

عمري بحسابكم وصلت الآن إلى 56 سنة لكن ناجي العلي أرادني ذاك الطفل الدائم والصدق الدائم وجعلني ذاك الصبي الذي وقف عند العد 10 سنوات، اغتالوا أبي بعد أن عشت معه 18 سنة، ولكن ناجي العلي أراد لي 10 سنوات وكلنا تواطأنا لأبقى في عشر سنوات. والآن يحضرني ناجي العلي في ذكراه، في ذكرى رحيله واغتياله سيان، وأدركت لماذا عمري 10 سنوات، لقضية لا تشيخ..

ناجي العلي لماذا تركتني وحدي، وتركتني طفلاً في العشر سنوات فقط؟

ناجي العلي: كنت أعلم أنه لك الخلود ولو أنك شخصية من ورق، فقد أصبحت طفل العالم طفل يخاطب العالم، عشت بعد موتي وقد ظلت شخصيتك يا حنظلة باقية لأنها تجاوزت الزمان والمكان فعاشت بين الأجيال، ولم ولن يستطيعوا اغتيالك.

حنظلة: وظفتني في انتقاد إسرائيل وأمريكا، والعرب بل حتى بعض الفلسطينيين.

ناجي العلي: أعطيت ظهرك للعالم ومشيت، ومن يستحق النقد واجهته بوجهك المخصص لهم.

حنظلة: من أين اقتبست اسمي؟

ناجي العلي: من نبات الحنظل وهو معمر محلي في منطقة فلسطين يحمل ثمرة مرة، وينمو مرة أخرى عند قطعه وله جذور عميقة، مثل الفلسطيني في وجه من يريد اقتلاعه..

حنظلة: لماذا أوقفت عمري في 10 سنوات؟

ناجي العلي: أبدعتك ذاك الصبي الذي له عشرة أعوام الذي يمثل سني حين أجبرت على ترك فلسطين ولن يزيد عمرك حتى تستطيع العودة إلى الوطن، جعلتك ترتدي ملابس مرقعة حافي القدمين تمثل الفقراء، صرحت مراراً أنك ولدت في العاشرة من عمرك وستظل دائماً في العاشرة من عمرك، ففي تلك السن غادرت فلسطين وحين يعود حنظلة إلى فلسطين سيكون في العاشرة من ثم يبدأ في الكبر، فقوانين الطبيعة لا تنطبق عليه لأنه استثناء، كما هو فقدان الوطن استثناء.

حنظلة: ولماذا أمشي مكتف اليدين إلى الخلف؟

ناجي العلي: سبب تكتيف يديك إلى الخلف مرجعيته أنه بعد حرب أكتوبر 1973 كانت المنطقة تشهد عملية تطويع وتطبيع شاملة، وهنا كان تكتيف الطفل دلالة على رفضه المشاركة في حلول التسوية الأمريكية في المنطقة، فهو ثائر وليس مطبع.

حنظلة: وصلني أنك سئلت متى يُرى وجهي؟

ناجي العلي: نعم، وكان ردي كالتالي؛ موعد رؤية وجه حنظلة عندما تصبح الكرامة العربية غير مهددة، وعندما يسترد الإنسان العربي شعوره بحريته وإنسانيته.

حنظلة: إذا سألني الناس بكل أطيافهم مناضلون خونة سياسيون مدعون، نقاد أنقاض، مفكرون شعراء، عسس وبصاصون، إلخ بماذا أجيبهم:

ناجي العلي: قل لهم إن حنظلة وناجي العلي، تختزل سيرتهما معاً في رحلة حياتية نضالية وصولاً إلى لحظة اغتياله وطريقتها المؤلمة والمريبة، وقل لهم إن سيرتنا معا تختزل في هوية أيقونة طفل اسمه حنظلة كأنه ناجي العلي، وناجي العلي كأنه حنظلة الطفل الشاهد عبر الزمن، الذي تمرَّد على ولادته منذ أولى لحظات الولادة، وعلى مفهوم الولادات المعتادة، لأنه أبدى رفضه المبدئي حيال ظلم في عالم يعيش خلاله الفرد مشرَّداً في سعة وطن له جغرافيات وتاريخ مسبي محروم من حضانة سيرته وتاريخه.

حنظلة: تركتني في قسوة عالم بهذه الشاكلة، أرغمت وأنا الطفل الذي وعى حضوره المتوقف زمنياً وله الرجع الزمني بين الشتات وأفق العودة، ومسارات نضال وخيانة وتطبيع. طفل أصله رؤية، يحيا بطريقة مختلفة عن وضعية الجميع، يدير ظهره تماماً لهذا الجميع، منصرفاً دون اكتراث، وجسده عارياً، حافي القدمين، دون أن يقف أحد قط بعدها على قسمات وجهه.

ناجي العلي: أعلم أنك توءم روحي، عشت معي ومن بعدي، وأنت ابني من إبداعي من جيناتي من ألمي من حزني من موقفي، من انتظاري من نضالي، أعلم ما إن يجري على اللسان نعت حنظلة، فتجلى تَوًّا معالم شخصيتي وتحضر تراجيدية الواقع الفلسطيني العربي، وتتمدَّد نطاقه باستمرار على أسِّ الهزيمة، أنساق وأجيال تجترُّ اجتراراً سرديات خيبات الهزائم.

أتذكر، قدمتك للقرَّاء وأسميتك حنظلة، كرمز للمرَارة. في البداية قدمتك كطفل فلسطيني، لكنه مع تطور الوعي والأحداث أصبح لك الأفق القومي ثم الأفق الكوني والإنساني. في المراحل الأولى، رسمتك ملتقياً وجهاً لوجه مع الناس، وكنت تحمل الكلاشينكوف، وكنت أيضاً دائم الحركة وفاعلاً ولك دور حقيقي، تناقش باللغة العربية والإنجليزية، بل أكثر من ذلك فقد كنت تلعب الكاراتيه، تغني الزجل وتصرخ وتؤذن وتهمس وتبشر بالثورة... ستظل في العاشرة حتى تعود للوطن.

حنظلة: أنا الطفل حنظلة إبداع الطفل الفلسطيني الذي يسكن ناجي سليم حسين العلي المزداد سنة 1937، في قرية الشجرة بمنطقة الخليل. في سنة 1948 مع أولى بواكير تاريخ النكبة والتشرد والمنافي والمخيمات، هاجر مبدعي رفقة أسرته صوب جنوب لبنان، كي يعيش في مخيم عين الحلوة جنوب لبنان. خلال تلك الفترة اعتقل من طرف الجيش الإسرائيلي، بسبب أنشطته الرافضة للاحتلال واقتيد وجهة غياهب الزنازين، حيث تعلَّم عبر التخطيط على جدرانها أولى خيوط الرسم، (وكأنني انطلقت وتكونت من هناك). بعد سنوات المدرسة الابتدائية، انتقل إلى مدرسة مهنية في طرابلس كي يحصل على شهادة لميكانيكا السيارات.

صنَّفته صحيفة يابانية ضمن قائمة أشهر رسامي الكاريكاتير العالميين، انطلق فعلياً مشروعه الفني الموصول بنيوياً دون فكاك بالقضية الفلسطينية عام 1961 بفضل تقدير بنَّاء من طرف غسان كنفاني، عندما اكتشف صاحب رواية رجال في الشمس، لأول مرة ثلاثة أعمال أنجزها ناجي العلي، فشكَّل الأمر انطلاقة عمله في الصحافة؛ تحديداً مجلة الحرية التي نشرت له سنة 1063 صورة خيمة تعلو قمتها يد تلوِّح.

انتقل مبدعي إلى الكويت لمواصلة العمل في منابر الصحافة ثم بعد ذلك إلى لندن، حيث ترسَّخ اسمه بقوة ولفظ أنفاسه الأخيرة على أسِرَّة إحدى مستشفياتها ودفن في مقبرتها بروكود يوم 29 غشت1987، بعد أن أطلق عليه شخص مجهول يوم 22 يوليو رصاصة نحو رأسه في شارع إيفز جنوب غرب لندن، تتويجاً لسلسلة تهديدات توزعت مصادرها بين الموساد، منظمة التحرير الفلسطينية، وكذا أجهزة النظم العربية.

حنظلة حارس متحف ناجي العلي:

ترك ناجي العلي نتاجاً نوعياً، بلغ أربعين ألف لوحة كاريكاتير، سَخَّر جل موضوعاتها قصد السخرية من ديكتاتوريات المنطقة، وكذا توجُّهات منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة الراحل ياسر عرفات. توَّجه الاتحاد الدولي لناشري الصحف سنة 1988بجائزة «قلم الحرية الذهبي»، ويعتبر أول رسام عربي يحظى بهذا التكريم.

الفلسطيني وفلسطين
في رواية (عن أفياء والعهن) لأيمن الحسن

بسام سفر ـ كاتب من سورية

نادراً ما تخلو روايات وقصص الروائي والقاص السوري أيمن الحسن من فلسطين والفلسطينيين، لكن شكل وكيفية الحضور هو الذي يختلف ما بين رواية وأخرى، وما بين مجموعة قصصية، وأخرى، فالفدائي الفلسطيني في زمن المقاومة في لبنان، والاجتياحات الصهيونية، يختلف حضوره وحضورها عن زمن التسوية السياسية، والحضور الإنساني الفلسطيني لبعض الشخصيات أو شخصية أخرى، في الرواية الجديدة «عن أفياء والعهن حي المشتل2003»، الصادرة في العام الجاري عن دار بعل.

تتحدث الرواية عن مجموعة من الأصدقاء يعيشون في دمشق خلال فترة الإعداد للاحتلال الأمريكي للعاصمة العراقية بغداد أي منذ العام2003، بوجود العراقية، ونهلة، وأكرم، وقصي، والمهندس رامز، وهم زملاء في حب القراءة وتعاطي الأدب.

في إحدى اللقاءات يخرج أكرم قصاصة ورق من جيبه يقرأ منها:(يا أصدقائي: لن تضيع ينابيعي وسط جفافكم، لأنني أبحث عنها في داخلي، ليطمئن إليها قلبي المتكسر على شطآن بحاركم المتصارعة من حولي على الدوام، أيها العرب، (على هذه الأرض، سيدة الأرض، ما يستحق الحياة» كما يقول شاعرنا محمود درويش.)

حضور فلسطيني:

يتخذ الحضور الفلسطيني شكلاً جديداً في التعبير عن التراث الفلسطيني، ويبدأ ذلك من خلال سؤال أكرم للمجموعة - هل تعرفون معنى كلمة بيلا؟، ثم ينظر إلينا واحداً واحداً، ويقول: ببيلا تعني باب إيلا، أي باب القدس. يا أخوان،-فلسطين ليست قطعة من الجنة، مثلما يصورها الحالمون. أو أرضاً مقدسة، كما في الديانات كلها. ولكنها أرضنا التي هي وطننا. أيا كانت، ولا نرضى فصلها عن الواقع المصنوع من حياة بشر، عاشوا على أرضها منذ آلاف السنين. ومازالوا يعيشون حتى الآن، فلئن كانت الممارسة النضالية أوصلتنا إلى قول الشاعر نزار قباني:» إلى فلسطين طريق واحد يمر من فوهة البندقية»، فلقد تناسينا جوانب النضال الأخرى، إذ نخطئ حين نقول: إن صورة بلادنا ترسمها فحسب البندقية والرشاش والمدفع، وحتى الطائرة أي باختصار السلاح. وإلا فأين الجذر الإنساني لهذا الصراع؟، من خلال الدفاع عن التفصيلات الصغيرة في فلسطيننا الغالية كالحب، والطفولة، والفرح، والورد، مقابل ما يقوم به عدونا من كراهية، وقتل للأطفال، وفرض الحزن علينا حين يلزمنا بتهديم بيوتنا بأيدينا إذا خرج منها مقاومة؟

إذن على المقاومة الفلسطينية أن تسير على رجلين: واحدة بالسلاح، والأخرى بالجمال الإبداعي، فالقصة، والشعر، والمسرح، والرواية، واللوحة التشكيلية، والأغنية، وغيرها من الفنون كلها أسلحة أيضاً.

فنحن بالأخلاق الرفيعة نتأبى استهداف الأطفال والمدنيين مقابل مجازر يقوم بها عدونا. الذي يمارس أخلاقاً عدوانية وعنصرية ضدنا، فمعركتنا معه متنوعة، ولا أقل من أن ننتصر عليه في معارك الأخلاق الإنسانية النبيلة.

لأننا أبناء حضارة كنعانية، تمتاز بأخلاق أبنائها الرفيعة مقابل وحشية، وعنصرية عدونا. باختصار صراعنا مع «اليهود» ليس على المكان فحسب. لأن لديهم عشقاً لهذا المكان أيضاً. بل هو صراع على الأرض، والجمال، والقيم الإنسانية، ونحن- أقصد أبناء البلد- إذ نقاوم فإننا نطالب بحكم ذاتي ثقافي على أرضنا. يا إخوان.

ويوسع أكرم من الحضور الفلسطيني الثقافي في الحديث عن الشاعر خالد حسين المعروف ب»خالد أبو خالد»، إذ يقول كان أبي يحبه، ويجلسني في حضنه، وهو يشاهد برنامجه عبر التلفزيون السوري. وقد عرفني إليه:»- هذا شاعر من فلسطين. أبوه الشاعر القسامي محمد صالح الحمد، وكان الناس يلقبونه (أبو مصطفى الشامي) لكثرة مجيئه إلى الشام. وقد استشهد في ثورة1936، يا أكرم».

ويودع الشاعر جمهوره من خلال الشاشة الصغيرة ملوحاً ببندقية الكلاشينكوف عالياً:-أنا ذاهب إلى حيث يجب أن أكون، إلى الأغوار حيث النهر المقدس لأكون مقاتلاً مع رفاقي الذين سبقوني من أجل استعادة البلاد الحبيبة فلسطين. ومن أجل أن أنال شرف الشهادة.

ويسرد أكرم حكاية أبيه مع الشاعر « كانت كلمات الشاعر تتدفق من فمه شلال نار. وقد ذهب فعلاً إلى الأغوار في الأردن، ومضى بعده أبي الذي كان يعشقه حد العبادة، ثم جاءنا خبر استشهاده في عملية فدائية جريئة، وبقي جسده هناك في الأرض المحتلة».

ويعمق الروائي سيرة أكرم من خلال توضيحها» نزح أكرم من مدينة القنيطرة التي لجأ إليها من إحدى قرى الجليل الأعلى مع أمه وأبيه. وجاء بعد هزيمة حزيران ليسكن في بنايات مساكن برزة التي كانت على العظم تلك الأيام. ولم تسمح القيادة

لأحد من أصحاب هذه البنايات بإلزام ساكنيها الإخلاء بالقوة. كما جرت العادة سابقاً، وما زالت هذه المساكن تسمى بنايات النازحين حتى الآن».

ويقص أكرم حكاية جده الذي بقي في الأرض المحتلة فلسطين وهو يبعث له الرسائل عبر الأردن إلى صندوق بريده في جامعة دمشق، كلية التربية. وأنه يردد دائماً «نحن بخير طمنونا عنكم». وأن الجد يشبه المرأة بالأرض» جاء من جاء،المهم يبسطها».

ويدير أكرم إحدى جلسات منتدى أفياء عن فلسطين وحل الدولتين، إذ يؤكد أن الأرض المختلة هي أراضي 1967 يا أخوان وعلينا أن نخلص إسرائيل من عنصريتها كي نصل إلى دولة ديمقراطية. يتساوى فيها مواطنوها، أياً كانت قومياتهم الدينية، كما حصل في جنوب أفريقيا، بينما كان يصر قصي أن صراعنا مع اليهود صراع وجود لا صراع حدود، موضحاً باختصار: -وجودنا أو وجودهم. لا خيار آخر.

حضور فني:

يوظف الروائي أيمن الحسن الأغاني في الرواية، إذ نجد أغاني لطفي بوشناق، وصباح فخري، وفيروز وغيرها، لكنه يفرد مكاناً واسعاً للأغاني الفيروزية التي لحنها الأخوان رحباني، ويربطها بزيارة فيروز للضفة الغربية في العام1964، إذ يصفها أكرم: « إن نسيت لا أنسى زيارتها إلى الضفة الفلسطينية في العام1964 حين أهداها الأهل (في القدس) هناك مزهرية، وغنت لهم:

مريت بالشوارع شوارع القدس العتيقة
قدام الدكاكين
البقيت من فلسطين
حكينا سوى الخبرية
عطيوني مزهرية
قالوا لي هيدي هدية
من الناس الناطرين».

ويندمج الجميع في حالة الغناء ويكملون بصوت واحد:» كان في بيوت وكان في إيدين عم بتعمر

كان في ولاد وبأيديهن في كتاب
وبليل كلو ليل
سال الحزن بفية البيوت
والإيدين السودا خلعت البواب
وصارت البيوت بلا صحاب
بينن وبين بيوتن صار في الشوك والنار والإيدين السودا».

ويترافق مع هذا الاندماج الإنساني، رد فعل واضح: « فإذا عيوننا تدمع»، ويستكمل النقاش حول الغناء والكلمات والألحان» ضي القناديل» التي كتبها الأخوان رحباني في العام1962، كي يلحنها الموسيقار محمد عبد الوهاب، وهي الأغنية الوحيدة التي جمعت بين الأخوين رحباني، والفنان المحبوب عبد الحليم حافظ، والجدير بالذكر أن السيدة فيروز رفضت تسجيلها بصوتها لأنها في حال غنتها ستبدو فتاة ليل، تقف وحيدة على قارعة شارع طويل، يملؤه الضباب. مؤكدة: هذه الأغنية تصلح لرجل لا امرأة.

ولا ينقطع نقاش الحب في الرواية إذ تعبر عنه نهلة في قولها» عشقت مي زيادة جبران خليل جبران، ما يقارب عشرين سنة من دون أن يجتمعا تحت سقف واحد، فلما مات دخلت مستشفى الأمراض العقلية، ثم توفيت بعد مدة قصيرة، ومع تقلب أهواء غادة السمان تجاه غسان كنفاني، وعلى الرغم من زواجها وزواجه إلا أنه قال لها: «أعود إليك مثلما يعود اليتيم إلى ملجئه الوحيد».

خلاص فردي:

رغم كل هذا الفعل الجماعي في منتدى» أفياء»، ينسحب أكرم من المنتدى ويعتكف في عمله بحراسة معهد الصم والبكم ويشرب القهوة (سادة) لأن المثقف يشربها هكذا، ويحدث ذاته عن أفعال الرئيس الراحل ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ورئيس السلطة الفلسطينية حيث يقول:» النكران في لبنان. ثم في العراق لمناصرة صدام حسين (زمن عربي رمادي، فمن يرأب صدع النكبة، ثم الهزيمة، وصولاً إلى احتلال الكويت، لأن طريق القدس يمر منها؟!).

ومن سوء حالته التي يعيشها في دمشق يحرق كتبه وسط أرض خربة قريباً من بساتين الحي. وفي ظل الظلام الدامس الذي عاشته المنطقة منذ احتلال بغداد في 2003/4/9، تصل إلى أكرم رسالة من جده بداخلها صورة فوتوغرافية لقبر كتب على شاهدته:» يارب هيئ لهذا الشهيد مكاناً في الجنة». تحتها رسالة من جده» أكرم أبو ضو» الذي يعمل حارساً في إحدى المستوطنات، يخبره أنه قد أمن له الوثائق اللازمة لدخول الأرض المحتلة. وهو يدعوه للمجيء إليه في أسرع وقت ممكن. وقد دون أكرم بخط يده (رداً على جده):» كان على هاملت أن يعدل سؤاله بحيث يصبح: القضية أن نكون أو نكون، إذ لا خيار إلا أن نكون على أرضنا هناك».

نقاش:

على هامش خطوط الرواية المتعددة التي كتبها الروائي أيمن الحسن يوظف الحضور الفلسطيني والقضية الفلسطينية في متن روائي جاء من نسيج الرواية والبناء الدرامي للشخصيات خصيصاً شخصية أكرم التي تعيش واقعها السوري غير متناسية واقعها الفلسطيني والقضية الفلسطينية، وموقفه السياسي الفلسطيني حيث يظهر في نقاش حل الدولتين، والإقرار بالقرارات الدولية التي تعد الضفة الفلسطينية(الغربية) مع غزة هي مكان الدولة الفلسطينية الوليدة من خلال الحل السياسي، ويكمل هذا الخط المفاهمي الخاص بالقضية الفلسطينية إذ يعد أنه يجب تخليص(إسرائيل من عنصريتها كي يصل إلى دولة ديمقراطية، يتساوى فيها مواطنوها، أياً كانت قومياتهم، ومعتقداتهم الدينية كما حصل في جنوب أفريقيا). وبهذا يتخذ مسار الحل السياسي الذي يرغب به أكرم في دولة فلسطينية في الضفة وغزة، ودولة ديمقراطية (يهودية، عربية) في مناطق الاحتلال في أراضي1948، وبذلك تكون القضية الفلسطينية والاحتلال الصهيوني على سكة الحل السياسي في المنطقة العربية.

لكن مع تعثر السياسة والحلول السياسية في المنطقة، واحتلال بغداد في العام2003، وتعنت اليمين الصهيوني في حكم (إسرائيل) وعدم قبوله في حل الدولتين، والإصرار على الحل العسكري الأمني بعيداً عن المفاوضات السياسية لتسوية القضية الفلسطينية يجد ذاته مجبراً على العودة إلى فلسطين، لكي يجرب نقيض المقولة الشكسبيرية على لسان شخصية هاملت في أن»نكون أو لا نكون» لتصبح على لسان أكرم «نكون أو نكون».

وأخيراً إن رواية عن أفياء والعهن، (حي المشتل2003-م) للروائي أيمن الحسن تستحق أكثر من قراءة لما تتمتع به من حضور درامي- روائي سواء فلسطيني، عراقي، سوري.

محمود درويش:
الحاضر الذي لا يغيب

د. ثائر يوسف عودة
ناقد وأستاذ جامعي فلسطيني - سورية

بات من غير الممكن بل من المستحيل التفكير بمحمود درويش دون التفكير مباشرةً في فلسطين، وفي المأساة الرهيبة التي حلَّت بشعبها المظلوم، ومن ضمنهم الشاعر، وإنَّ الاتِّساق عينه ينطبق على الكتابات عنه، إذ لا يمكن الفصل بين الشاعر ووطنه. فقد صاغ درويش قصائد مختلفة تتبنَّى رؤية عالميَّة متميَّزة عبر استخدام صور تجريديَّة تلامس كل إنسان مهمّش ومقهور في أي بقعة من العالم؛ لأنه كرّس علاقة حميمية مع الأرض، علاقة تتعدّى مفهوم الملكية إلى نوع من الإيمان الصوفي، حيث تصبح الأرض كائناً هشّاً يجب حمايته.. «كأنّي أخافُ على عِشْبةٍ مِن يديّ».

الأرض الأنثى:

تتخذ الأرض صورة الأنثى، في كثير من نصوصه، فهي الأم، والعشيقة، والمرأة التي يُقاتَل من أجلها. وقد استخدم هذه الصورة لتأكيد فكرة الانتماء الحميمي والعاطفي للأرض، وإضفاء طابع مقدّس عليها. «أحبك أكثر... من امرأةٍ، ومن أرضٍ، ومن نجمةٍ».. وهنا تختلط الأرض بالحبيبة، ويصبح العشق لها فعلاً مزدوجاً: عشق امرأة وعشق وطن.

وفي الرموز الدرويشية تظهر الأرض بوصفها الخصوبة والجمال، لكنها في الوقت نفسه، ضحية للنهب والانتهاك، مثلما تُنتهك حقوق المرأة. وهذا التوازي يعطي النصوص بُعداً مزدوجاً، وطنياً وإنسانياً. «على هذهِ الأرضِ ما يستحقّ الحياة، تردّد إبريل: رائحة الخبزِ في الفجر.... آراء امرأة في الرجال، كتابات أسخيليوس...».

الأرض الأسطورة:

يوظّف درويش الأسطورة، والصورة الشعريّة في عبارة «رَائِحَةُ الخُبْزِ فِي الفجْرِ». هذه الصورة تعرض أمامنا عالماً كاملاً، بعضنا ما زال يذكره، ولكنّ أجيالنا الشابّة تفتقده. الخبز هو الحياة، والفجر هو البداية، ولا بدّ أن تكون للبداية نكهتها الجميلة المستفزّة. تضعنا الصورة أمام الحياة وجمال بداياتها، وتضعنا أيضاً أمام الذاكرة. فبما أنّ المشهد قديم وغير موجود اليوم، إذن في عرضه الكثير من التحريض على الحفاظ على ذاكرتنا كشرط للحفاظ على حياتنا وبداياتها التي يجب أن تكون مشرقة كالفجر، وكلّنا نتوق إلى بداية مختلفة. ويخلط درويش التاريخ بالجغرافيا، والشعر بالنثر، والموسيقى بالفوتوغرافيا، ثم يكتفي بالشعر ملاذاً أخيراً وهو يستعيد صورة من صور الحنين للأرض.

عالمية الرؤية:

صاغ درويش قصائد عديدة متنوعة تتبنَّى رؤية عالميَّة متميِّزة عبر استخدام صور تجريديَّة. يقول في قصيدته الإنسانية المؤثرة (مقعد في قطار):

مناديلُ ليست لنا / عاشقاتُ الثواني الأخيرةِ / ضوءُ المحطة /
لكننا لا نحبّ القطارات حين تكون المحطات منفى جديداً /
كُلّ أهلِ القطارِ يعودون للأهلِ، لكننا لا نعودُ إلى أيِ بيتٍ/
وفي قصيدته الإنسانية (فكّر بغيرك) التي تعني كل المشردين والمظلومين في العالم، يقول:
وأنتَ تُعدُّ فطورك، فكِّرْ بغيركَ... لا تَنْسَ قُوتَ الحمامْ
وأَنتَ تخوضُ حروبكَ، فكِّر بغيركَ... لا تَنْسَ مَنْ يطلبون السلامْ
وأَنتَ تُسدِّدُ فاتورةَ الماء، فكِّر بغيركَ... مَنْ يرضَعُون الغمامْ
وأَنتَ تعودُ إلى البيت، بيتكَ، فكِّرْ بغيركَ... لا تنس شعبَ الخيامْ
وأَنت تنام وتُحصي الكواكبَ، فكِّرْ بغيركَ... ثَمَّةَ مَنْ لم يجد حيّزاً للمنام
وأَنتَ تحرِّرُ نفسك بالاستعارات، فكِّرْ بغيركَ... مَنْ فَقَدُوا حَقَّهم في الكلامْ
وأَنتَ تفكِّر بالآخرين البعيدين، فكِّرْ بنفسك... قُلْ: ليتني شمعةٌ في الظلامْ

تشكيل الزمن الفلسطيني:

تضعنا نصوص درويش إزاء ظاهرة جوهرية، عنوانها الأساسي (التشكيل الزمني) أو إعادة كتابة الزمن الفلسطيني، لأن الزمن إحدى الرسائل الرئيسية التي لعبت دوراً رئيساً في صناعة عالم القصيدة الدرويشية وتشكيله في مواجهة عالم الواقع... إحساسٌ عالٍ بالزمن دون البكاء على الماضي بل رفض اللحظة الراهنة وتطلع إلى المستقبل بشغف، وقصائده تسقي بذور التحول والرفض وتجنح نحو المستقبل مقابل عوامل العجز والضيق التي تفرضها اللحظة الراهنة (تضيق بنا الأرض/ تحشرنا في الممر الأخير/ فنخلع أعضاءنا كي نمر) والزمن الحاضر رمز للضعف والعجز، وما يفعله درويش ليس الانكفاء نحو الماضي بل عند لحظة الانطلاق لاستشراف الآتي الذي يحمل بقية من أمل في استرجاع كل ما فُقد، وفي المقاومة وفي استعادة الهوية التي يجب أن تعود.

ومن الطبيعي أن يوظّف هذا التشكيل الزمني كل البنى الاستفهامية التي تطرح تساؤلات وجودية تستحق التفكّر، وجديرة بالتأمل، ولعل طرائق توظيف الاستفهام في شعره تعد من أهم ملامح الخصوصية لديه، فاللحظة الراهنة المرتبطة بفكرة الفقد والخوف من الواقع الراهن جعلته يعبّر عن عدم منطقية ما يحدث له ولشعبه مستخدماً صيغ الاستفهام التي لا يريد من خلالها أن يعرف الأسباب قدر ما يريد أن يستنكر محاولات وأد القصيدة والشاعر، وفي هذا الاستفهام تعبير عن الصراع بين الفلسطيني والعالم، بل محاولة احتجاج هادئ حيناً وصاخب غاضب أحياناً على غياب منطقية التاريخ، لأن هذه المفارقة التناقضية لا تتضح إلا بالسؤال، ذلك السؤال الذي لا يثار رغبة بالمعرفة وحسب، قدر ما يكون تشكيلاً لهذه المفارقات وبسطاً لها بين يدي المتلقي إذ ينقلب كل شيء إلى نقيضه في حركة غير معللة لا يعبّر عن مفارقتها سوى بالاستفهام، وفي تتابع وحدات الاستفهام يتشكل نوع من الرغبة في الاستقرار في مقابل الإحساس بالضياع، ضياع الإنسان والبيت والبيئة وكل جزئيات الحياة من حيوان وطبيعة:

«لماذا تركت الحصان وحيداً يا أبي؟»
«يا أبي هل غابة الزيتون تحمينا إذا جاء المطر؟»
«وهل الأشجار تغنينا عن النار؟»
«هل تنبت الأشجار في ظل الصليب؟»
«من أنا بعد ليل الغريبة؟»
«من أنا بعد هذا الرحيل الجماعي؟»
«أين الطريق إلى أي شيء؟»

إن تداعي مثل هذه الأسئلة وغيرها كثير، يتجاوز حدود الإجابات السهلة والقديمة ويعكس كيف تفارق الفطرةُ كلّ ما يقوم به هؤلاء الغرباء؟

من نافل القول التأكيد على أنّ الإحاطة والإلمام بمفاصل العوالم الشعرية الدرويشية التي امتدت على أكثر من نصف قرن تبدو مهمة عسيرة بل عصية، لأننا أمام شاعر مليء ملأ الدنيا وشغل الناس ابتداء من صرخة التحدي «سجّل أنا عربي» وليس انتهاء بـ «فكّر بغيرك»...

لقد استطاع درويش أن يشكّل بوجدانه ومشاعره وقدراته التعبيرية ظاهرة شعرية عالمية تزداد مع الأيام ألقاً وبريقاً وتقع في الضمير الإنساني موقع المأساة في قصائد شعرية عالمية، وخاصة تلك التي توظّف الأساطير فتبني قصائد ملحمية لها شكلها الخاص. فممارسة الحق الإنساني في أبسط صوره أصبحت ضرباً من الجنون في مواجهة فجور هذا الغريب. إلا أن التمسك بالحق مع قليل أو كثير من الأمل الذي اشتغل عليه درويش طوال حياته الشعرية سيمنح القوة اللازمة للمقاومة، وتبصر الطريق الذي يجب أن يسلكه الفلسطيني ليعلن عن وجوده وحقه وكينونته ليبقى الوطن، ويبقى للغريب أن يأخذ ما يشاء من حصته من دمنا وينصرف.

صباح الخير يا غسان صباح الخير يا إبراهيم

حاتم إستانبولي ـ كاتب سياسي فلسطيني ـ القدس

صباح الخير يا قدسنا وعكانا وَيافانا ورَملَتَنا وطيرَتنا صباح الخير يا غزة لشِمالها ووسطها وجنوبها صباح الخير أطفال القنديل الصغير صباح الخير لأمي وخالتي صباح الخير أبو علي صباح الخير أبوعثمان صباح الخير دلال ونادیا صباح الخير لصديقٍ في سكرامنتو صباح الخير للطفل الذي ولد من دمعات شهيد يصلي في أيار وبقيَ تحت الأرض وعاش في السواد لكن بقلب شديد البياض ينتظر فرصة الانبعاث من جديد عندما يكبر ويستطيع أن يكون ندى صباح الخير للفلسطيني غير المرئي.

صباح الخير يا أرض البرتقال الحزين صباح الخير لأبي الذي حزنت عليه برتقالة أرض البرتقال الحزين صباح الخير لمسدس ينتظر يد ذلك الطفل الذي وُلِد من عين الشهيد في أيار.

صباح الخير لأفُق يُنتظر أن يُشرِقَ من الغرب. صباح الخير للجندي البطل.

لا صباحا ولا خيرًا لعبد الله وفاروق والضابط والمحقق والمدير.

كل هذه شخصيات هي وردت في ١١ قصة من مجموعة أرض البرتقال الحزين.

المدقق في تسميات القصص أسماء شخصياتها ورمزيتها ما بين دور الضحية والجلاد المكانية والزمانية وعكسها للوقائع ما بين جريمة الإبادة الأولى التي أطلق عليها النكبة عام ١٩٤٨ وحتى ١٩٦٢ يلاحظ أن المسميات لم تكن اعتباطية بل كانت مقصودة.

في هذه المجموعة القصصية الصغيرة ظهرت شخصية الشهيد غسان الجامعة التي تحمل إبداعية سياسية واجتماعية وثقافية وأدبية وفلسفية وإنسانية نضالية. ظهرت هذه الخصائص في عملية مركبة من تفكيك وتركيب إبداعي متلاحم فيها السياسي والنضالي والفلسفي والتحدي والانهزام والإرهابي والقمعي وترابطهم عبر أداة واحدة وإن اختلفت التسميات.

إبداعه الفلسفي تجلى إبداعية حوارية انتقل فيها بين الوحيد والخاص والعام جيئة وذهابا في المكان عبر صور أدبية ينقل القارئ بين تفاصيل الصورة المتداخلة ألوانها زمانيا بين الماضي والحاضر ويرسم خطوط أفق المستقبل ووضع شروطا لتخطي المستقبل إذا لم نأخذها بعين الاعتبار فإننا سندخل من جديد بوابة الإبادة والنكبة لأن المطلوب هو إذابة الشعب الفلسطيني كما تذوب حبة السكر في الشاي.

مهمة الإذابة التي تناوب عليها المحقق في بلا حدود وواجها طيف الفلسطيني الذي حملته الريح و استغل حالة الهذيان التي عاشها المحقق بين الوعي واللاوعي فأطلق خطابه ليشرح ما يعيشه مليون فلسطيني غير مرئي في بقاع الأرض وبين آلة القتل الإرهابية التي واجهها أبو عثمان بصمته بعد مقتل كل من ابنته وزوجته ليِفجر غضبه في قاتليهم في ورقة من الرملة. مرورا بشخصية أبو علي (قصة السلاح المحرم) الذي يعطي مدلولا للاسم الذي يحمل صفة الإقدام والشجاعة في الثقافة العامة.

أبو علي الذي استطاع أن يصارع الجندي الأجنبي ويأخذ سلاحه.هذا الجندي الذي رفض أهل القرية إعطاءه سكنا بينهم.

أبوعلي أخذ السلاح وهرب واستطاع الهروب رغم آلامه ولكن اصطدم بكل من الشخصيتين التي أعطاهما غسان كنفاني اسمي عبدالله وفاروق في رمزية للنظام الرسمي لِيقوما بطلب السلاح من أبو علي الذي رفض إعطاء السلاح وبدء يصرخ هذا السلاح حلالي . فهاجم كل من عبدالله وفاروق وأمسكا برقبته واقتادوه إلى اللاعودة إلى خارج القرية وهو يصرخ هذه البندقية حلالي.

وفي هذه الصورة أعطى غسان دورا وصورة متناقضة للسلاح عندما كان في يد الجندي الأجنبي كان وسيلة احتلال وعندما أصبح في يد أبوعلي أصبح وسيلة دفاع ضد الضباع الذين يهاجمون القرية.

في هذه القصة وضح غسان أن السلاح كان محرما ممنوعا للفلسطينيين لمواجهة الضباع والجنود الأجانب في إشارة رمزية إلى سيادة الأحكام العرفية البريطانية في الأرض المتبقية ناهيك عن الأرض المحتلة هذين المصطلحين الذين استخدمهما في قصة الأفق في وصفه بوابة مندلبوم في القدس هذا الجدار الحجري الذي يفصل بين الأرض المحتلة والأرض الباقية .

القصة التي غطى الفلسطيني غير المرئي موت أخته دلال وعندما امتلك الشجاعة ليقول الحقيقة لأمه القابعة في الأرض المحتلة إن أخته قد قتلت وإن قبرها يبعد أمتارا عنها أبلغته خالته أن أمه قد ماتت لحظتها شعر بضياع و مدت خالته يدها على كتفه وهو ينظر بهدوء إلى الأفق خلف بوابة مندلبوم وعاد إلى مكان استقصد غسان أن لا يذكره في قدومه أو رجوعه في إشارة عميقة إلى حالة الهروب والضياع غير المرئية للِفلسطيني التي تتداخل في الأمل في الأفق خلف البوابة.

هذا الهروب والضياع تلاشى في قصة ورقة من غزة في رسالة حوارية بعثها الفلسطيني غير المرئي إلى صديقه مصطفى في سكرامنتو (كاليفورنيا) يشرح فيها سبب رفضه فكرة الهروب من غزة التي تفوح فيها رائحة الهزيمة وتربطه فيها الشعور بالشفقة على أمه ولأرمَلة أولاد أخيه. حتى أنه عندما سمع خبر أن اليهود قصفوا غزة اعتبره خبرا عاديا.

وأنه لا يستطيع أن يفي بوعده بالهروب للتخلص من وحل الهزيمة ويطرح سؤالا على صديقه وعلى ذاته : ما هو الشيء الذي يربطنا إلى غزة فيحد من حماسنا إلى الهروب؟ لماذا لا نترك هذه الهزيمة ونمضي إلى حياة أكثر ألوانا وأعمق سلوى ..لماذا؟ لم نكن ندري؟

في دوامة هذه التساؤلات وجد الفلسطيني غير المرئي إجاباتها بعد أن زار ابنة أخته

ناديا في المشفى التي اعتاد على حبها ومن خلالها كل هذا الجيل الذي رضع الهزيمة والتي أصبحت الحياة السعيدة ضربا من الشذوذ الاجتماعي.

ذهب الفلسطيني غير المرئي إلى المستشفى وهو لا يعلم سبب وجود ناديا (التي اعتاد على حبها) في المشفى .

ليكتشف أن ابنة أخته التي وعدها أن يحضر لها بنطلوناً أحمر كانت تحبه لقد كانت ضحية هذا القصف اليهودي الذي سمعه كخَبر عابر و بترت ساقها وأشارت له بصمت لهذه الحقيقة بعد أن رفعت الشرشف الأبيض ليرى أن لا لزوم لِلبنطلون الأحمر.

عندها خرج من المستشفى وسمع أن ابنة أخته أصيبت عندما كانت تضم وتخيم بجسدها فوق إخوتها لتحميهم من القذائف في حين كانت تستطيع أن تهرب وتنجو.

هذه اللحظة كانت فاصلة بين حالة الهذيان والهروب وانتقال من الضياع إلى وعي المكان وساكنيه وما يربط غزة بفلسطين التي رأى فيها نفقا يمتد منها إلى صفد .

وبدء حوار وعي الذات ووعي المكان بين ذاته وصديقه ليخبره أنه لن يهرب وعن ضرورة حماية المكان ومن فيه كما فعلت ناديا الطفلة التي عاشت الهزيمة. وبِبراءتها وعفويتها وفطرتها خيمت بجسدها على إخوتها وحمتهم من همجية القصف الصهيوني مما أدى إلى فقدانها ساقها من أعلى الفخذ. هذا الحوار بين الفلسطيني غير المرئي وذاته وبين ذاته وصديقه تضمن انتقالا سلسا من الوحيد إلى الخاص ليدرك صورة جديدة لم يرها لغزة من قبل. غزة التي كانت الشمس الساطعة تملأ شوارعها بلون الدم . كانت غزة يا مصطفى جديدة كل الجدة ، أبدا لم نرها هكذا أنا وأنت. حتى حي الشجاعية والحجارة المتراكمة على مدخله كأنها وضعت لأسباب لم ندركها.

هذا الوعي الذي انتقل من حالة اللامبالاة إلى حالة ضرورة أن تكون هنالك فكرة تعبر عن هذا الوعي أظهرها في قصة قتيل في الموصل عندما مر على حالة صديقه معروف من الأردن الذي يدرس في بغداد وسمع أنه مات في الموصل.

وفي وصفه لصديقه معروف الذي عاش حياته بين كوز الماء الذي أحضره لأمه العطشى بعد عشرة أيام من طرده وأمه من اللد. أمه التي ماتت قبل أن تأخذ كوز الماء الذي قاتل من أجل الحصول عليه بالرغم من قصر قامته لكنه استطاع أن يحصل على كوز ماء لأمه (كلمة كوز هي وصف ل شكل مخروطي عادة ما يكون من الورق يلف) وبين دراسته في بغداد.

معروف كان أصبح إنسانا غير مبالي ولا يؤمن بشيء وفي سياق سؤاله إذا ما كان يريد العودة لفلسطين ولبلده اللد كان يقول: نعم. ولكن قطع كلام السائل وأجاب على السؤال التالي من خلال قصة هانيبال الذي أراد أن يعبر جبال الألب سار جنوده خلف الفيلة وقال أنا لست فيلا وحينما يعبرون الحدود أنا سأكون خلفكم أنا صرصار صغير سأحتمي بِظلال فيلة هانيبال في وصف لحالته . هنا يطرح تساؤل عن كيفية تغير معروف بعد قوله إن هناك ضرورة لمن يقود الفيلة في إدراك عميق لدور الفرد الواعي الفلسطيني وعندما كرر الجواب الذي أطلقه معروف كانت الإجابة الثورة. في إشارة لما حصل في العراق كان معروف يرى أن هنالك أملا في أن تكون طريقا للعودة إلى اللد لكن هذا الأمل سقط وقتل معروف في الموصل .

أما في قصة لا شيء فإن هذا الوعي العفوي الفردي للذات وضرورة مواجهة الواقع عبرت عن نفسها بشكل أوضح في خبر إقدام الجندي على الحدود بإطلاق الرصاص على الأرض المحتلة مما أدى لقتل اثنين منهم فاقتيدَ إلى مستشفى الأمراض العصبية.

دار حوار بين الجندي والممرض الممسك به الذي يريد أن يقتاده إلى الرئيس وهو لا يعرف لماذا .

بالإضافة للجندي والممرض كان هنالك وصف لِعنكبوت (في اشارة لحالة تشويش وعي وإرادة الجندي الذي لم يعطه اسما) في جبين الجندي بدأ يعمل لبناء شبكته التي كانت تتمزق ويعود لبنائها مرتبطة بوتيرة حدة الحوار بين الجندي والممرض.

هذا الحوار الذي يدور عن حالة الجندي الذي شخص أنه يعاني من مرض عصبي أدى إلى إطلاقه النار على الأرض المحتلة وسبب أن هذا التوصيف جاء بعد سؤال الطبيب عن شعور الجندي ما قبل إطلاق الرصاصات وبعده وكانت إجابة الجندي لا شيء والتي عدلها بعد ما رأى علامات الأسى على وجه الطبيب ليقول نعم شعرت أن الرصاصات انتهت بسرعة.

وفي سياق الحوار الذي كان يتخلله إصرار الجندي على التوقف والسؤال وانتظار الرد وعمل العنكبوت في الجبين في إشارة لإيهام الجندي أنه مريض عصبيا. يسأل الجندي الممرض هل إطلاق الرصاص يعتبر سببا للمرض العصبي وهل الحالة الطبيعية هو أن لا نطلق الرصاص في إشارة للأرض المحتلة. فأجاب الممرض الفرق أن المصاب بانهيار عصبي لا يتعمد ذلك (في إشارة إلى إطلاق النار على الأرض المحتلة)؟.

فأجاب الجندي: يعني هم يحسبون إذن أني لم أتعمد؟ واستمر في الحديث ليقول: إنني تعمدت ذلك وإطلاق كان سهلا وسريعا وهم لا يعطوهم سوى مخزن واحد في إشارة إلى حالته الواعية والمتعمدة لإطلاق النار على الجنود في الأرض المحتلة . وأصر على الوقوف ليعود ليسأل ليتأكد هل أنني مصاب بمرض عصبي لأنني تعمدت ذلك وهم غير مصابون بمرض عصبي لأنهم لا يقومون بذلك؟ أجاب الممرض نعم . عندها تمزقت شبكة العنكبوت وأصبحت الرؤية عند الجندي بيضاء واضحة ومشى بخطوات واثقة إلى المدير.

إحدى عشرة قصة إذا ما أخذنا أحداثها الزمانية والمكانية وعباراتها التي كانت تحمل مدلولات عميقة تعبر عن تداخل بين الفلسفي والاجتماعي والسياسي وصف فيها غسان حالة الفلسطيني الذي انتقل من الحالة غير المرئية إلى المرئية عبر عنها في حالة إدراك دور الذات التي تطورت عبر الزمان إلى حالة وعي الدور الفردي وتحول الوعي من فكرة إلى ممارسة جسدها الجندي الذي أدرك أنه الصحيح وكل من حوله مرضى أعصاب.

غسان استقرأ في هذه المجموعة القصصية ضرورة الفكرة والأداة واستقراء الأحداث ستتكرر كحادثة الجندي الواعي لسلوكه الذي يمثل الحالة الشعبية كحالة الجندي المصري سليمان خاطر والجندي الأردني الدقامسة.

إحدى عشر قصة مع بقية قِصصه تؤكد أن غسان كنفاني يحمل بكل جدارة صفة الأديب القائد السياسي الذي طوع المقولات الفلسفية بأدوات أدبية تحمل بعدا إنسانيا واجتماعيا يغلفها عنوان تحقيق العدالة عبر إبراز وحشية الممارسة الصهيونية الإرهابية بكل ما تعنيه الكلمة.

غسان أدرك أن الطفل الذي ولد من عيون الشهيد صاحب القلب الأبيض والذي عاش في الظلمة سوف يكبر وينمو ويتطور ويبعث كمارد يسعى للحرية والتحرر.

الثالوث الفلسطيني المقدس

(1 من 2)

غرز الدين جازي ـ ناقد أدبي ـ سورية

تعددت ركائز الثالوث الفلسطيني لدى معظم المفكرين والباحثين الفلسطينيين، بل وحتى الأدباء والفنانين، وتراوحت بين الكوفية، والمفتاح، والبطيخ الأحمر، وحنظلة، والبرتقال، والزيتون.. فاتخذ كل منهم ثالوثاً من هذه الأيقونات والأعلام بنى عليه رؤاه الوطنية لتعميق مفهوم إثبات الحق الفلسطيني على تراب وطنه كشكل من أشكال التعبير الثقافي التي تمثل رمزاً لفلسطين وثقافتها، ومنهم من تجاوز ذلك إلى الأبعد ليدخل في العمق الوجداني، فيراها مثلما يراها د. محمود الفطافطة ثالوثاً يضم «التاريخ، الكرامة، الحرية» ..

*التاريخ، كما يقول، مدين لفلسطين بأنها مزجته بوسطية الجغرافيا وملتقى الحضارات والقارات، ومنبع الرسالات النبوية.

*والحرية، يؤكد على أن فسطين بلد الحرية رغم ما يلاقيه أبناؤها من ظلم وقتل وتشريد وسواها، إلا أنهم يبدعون يوماً بعد آخر في فنون المواجهة والتحدي لمحتل فاشي مجرم .

*أما الكرامة، فيرى أنه لا كرامة لإنسان إلا في وطنه، ولا وطن لنا إلا فلسطين.

أما «سعيد زيداني»، فيراها فيما أسماه «الثالوث المشتهى»: الأرض، الهوية، السيادة، وتراه «حنين زعبي» أنه على الفلسطيني إعلان انتهاء ثالوثهم القاتل «التنسيق، المفاوضات، التشرذم»، والإعلان عن المقاومة الشعبية بدل التنسيق، ومحاصرة إسرائيل بدل مفاوضتها، والوحدة بدل التشرذم .. وذلك في معرض ردها على ثالوث إسرائيل القاتل: «الحصار، الجدار، التنسيق الأمني» .

فيما اعتبر غيرهم أن فلسطين قضية ثالوث «حق فلسطيني، حق عربي، حق إنساني عالمي» .

وإنني إذ أستذكر ما أسميته ثالوث إسرائيل القاتل برؤيتي الشخصية تتمثل في «النكبة 1948، النكسة 1967، المقتلة 2.23» فإنه يتوجب عليّ لزاماً الإشارة إلى «زهرة الثالوث»، والتي تُعرف أيضاً بزهرة السعادة أو زهرة الفرح، وهي واحدة من أجمل الزهور التي تُزيّن الحدائق بجمالها وألوانها المتنوعة، وتُعتبر رمزاً للجمال والنقاء، وتُمثّل الأمل والحب.. استُخدمت في طقوس دينية، وارتبطت بالأساطير والروايات الشعبية التي تتحدث عن معاني السعادة والحب في العديد من الثقافات .

تُرى ألسنا الأجدر كفلسطينيين، قدّمنا ما قدّمناه من دماء وشهداء، أن نكون الأَولى من كل شعوب العالم بزراعة الثالوث في حدائق وجداننا وروحنا

وثقافتنا وعقيدتنا؟

لقد تعددت أيقونات ورموز مواجهة الإلغاء الثقافي التي يفرضها علينا الاحتلال، ومجابهته، فتراوحت بين الكوفية، والمفتاح، والبطيخ الأحمر، والزيتون، والبرتقال، وحنظلة، وأنها الرموز التي تواجه الطمس الهوياتي لفلسطين، فاختار كل باحث ومفكر ثالوثه الذي يعتقد أن يُكرّس ويُؤطّر ويبني عليه مقاومته ونضاله ضد الاحتلال الصهيوني وبما يتلاءم مع رؤيته السياسية والفكرية: والعقائدية، فيقول «عدنان زقوري»: «لم يعرف الفلسطينيون المقاومة بالسلاح وحده، لربما السلاح دفاعاً عن النفس، لكن للحفاظ على الهوية والتاريخ لا بد من الرموز التي تعيش، تُتوارث مع الأجيال، وتُبيّن بحق أن للأرض شعبها ، والرموز خير دليل على ذلك» .

لقد تجاوز الثالوث الفلسطيني حدود الجغرافيا الفلسطينية ليصبح عالمياً يُعبّر عن ثورات وحقوق شعوب العالم المضطهدة، وتتمثل برموز فلسطينية تاريخية وتراثية: الأقصى وخاصة قبة الصخرة، حنظلة، المفتاح الذي يطلق عليه المفتاح الرمزي تارة وتارة مفتاح العودة، النكبة، الكوفية، البطيخ الأحمر، وقد تمتد هذه الأيقونات لتشمل البرتقال والزيتون ..

من هذه الأيقونات استُمدّ ما سميّ بـ»الثالوث الفلسطيني» وركائزه الثلاثة وفق رؤية كل باحث ومفكر وما يمثله لديهم من انعكاس للواقع الفلسطيني بألمه وآماله، وانكساراته، وإرهاصاته، وتشظّيه، وأفق تطلعاته النضالية والصمود، والرمز واليقين في الحفاظ على الوجود والهوية الفلسطينية وتراثها وتصدّيها لكل أشكال العنف والإبادة والتهميش وتزوير التراث والتاريخ الفلسطيني، فتعددت التشخيصات الفلسطينية المستخدمة لتخليد القضية، فكان نشيد «فدائي» نشيداً وطنياً، ثم رمز الطيور الفلسطينية كطائر وطني محتمل لفلسطين المستقبل، ووُصف جواز سفر السلطة الفلسطينية بأنه «رمز حاسم للأمة» إضافةً إلى الطوابع البريدية رمزاً وطنياً لفلسطين أيضاً .

وبذلك تشمل قائمة الرموز التأسيسية للهوية الفلسطينية عدة أيقونات كانت الأقرب إليّ كرأي شخصي هو «حنظلة، الكوفية، المفتاح» فيما تبقى من رموز وأيقونات لا تزال تحمل دلالتها النضالية والتراثية والتاريخية دون انتقاص منها ومن قيمتها النضالية والمقاومة لمرارة الاحتلال ومجازره.

وإنني إذ أُركّز على الثالوث المقدس ذاك «حنظلة والكوفية والمفتاح» فذلك لأنني رأيتُ فيه خير تعبير عن مقولة مفادها «لقد أرادوا دفننا، لم يعرفوا أننا بذور» واختياري لهذا الثالوث كان هو البذور التي تنبت صلابةً ومقاومةً وتضامناً حقيقياً يتطلب فهماً أعمق وأدق للرموز المتأصلة في الثقافة والتاريخ الفلسطيني دون أن أبخس باقي الرموز والأيقونات إرثها التاريخي والتراثي.

وهنا أجدُ لزاماً عليّ استعراض دلالة كل أيقونة من هذا الثالوث وما تمثله لدى روح الفلسطيني ووجدانه ومشاعره.

حنظلة :

حنظلة أيقونة فلسطينية رسمها الفنان الشهيد ناجي العلي بدمه وقدّمها عام 1969 بجريدة «السياسة» الكويتية.. ابتكرها بعد سنتين من النكسة 1967 .. شخصية فلسطينية أسطورية خارقة وخارجة عن الطبيعي والمألوف.. صامت، أدار وجهه عن كل العالم، واختار الرثّ والمرقّعَ من الثياب .. اختاره ناجي العلي رمزاً لمواقفه الوطنية، وتوقيعاً للوحاته ودلالاته الرمزية والمعنوية.

• الحنظل نبات معمّر تقصّه فيعود، يعيش في فلسطين، جذوره عميقة، يُضرب المثل بمرارته، ويُستعمل في الطب.

• اسم قليل الوجود، غير متداول رغم وجود شخصيات تاريخية عربية تحمل ذات الاسم، لها أثرها في التاريخ، مثل :

• حنظلة بن عمرو شيباني، الذي قُتل في كربلاء، وكان من معسكر الحُسين بن علي.

• حنظلة بن صفوان الكلبي، قائد كبير من قادة الدولة الأموية في حرب الخوارج.

• حنظلة بن ثعلبة، حنظلة بن سيار بن سعد العجلي، سيّد بني عَجْل يوم ذي قار، وصاحب «قبّة حنظلة» التي ضربها يوم ذي قار.

• حنظلة بن الربيع بن صيفي، صحابي من كتبة وحي القرآن.

• حنظلة بن أبي عامر، صحابي من الأنصار، من الأمس، قُتلَ في «أُحد» وهو «جُنب» فقال عنه رسول الله أن الملائكة غسّلته، فسُميَ «غسِّل الملائكة» .

• حنظلة بن أبي سفيان الجمحي، من أئمة الحديث بمكة .

• وقد يجتمع كل ذلك في سبب اختيار ناجي العلي «حنظلة» رمزاً وتوقيعاً باسمه.

ومن المهم الإشارة إلى أن الفنان الشهيد ناجي العلي كان لديه شخصيات أخرى رئيسية أوجدها في رسوماته الكاريكاتيرية :

• فاطمة، شخصية المرأة الفلسطينية التي لا تهادن ولا تسكت على ضيم أو تخاذل، بعكس شخصية زوجها المنكسر أحياناً، فهي ترد عليه بغضب: «الله لا يسامحك على هالعملة» حين قال لها باكياً شاكياً: «سامحني يا رب، بدّي بيع حالي لأي نظام عشان طعمي ولادي»..

كما يتجلّى موقفها من الشعارات الفارهة أيضاً بظهورها في كاريكاتير تحمل مقصاً وتخيط ملابس أولادها وتقول لزوجها: «شفت يافطة مكتوب عليها عاشت الطبقة العاملة بأول الشارع، روح جيبها بدّي خيّط أواعي للولاد» ..

فاطمة التي شاركت زوجها حياته البائسة لكنها كانت في الوقت ذاته حريصة كل الحرص على مظهرها الجميل، فتكحّل عينيها بعلم فلسطين،

وتضع سلسلة على صدرها إشارة لمفتاح العودة، وقرطاً على أذنيها رمزاً للقنبلة اليدوية، وتلف وشاحاً حول عنقها أو كتفها دلالة الكوفية، وترتدي الثوب الفلسطيني بألوانه الزاهية، فكانت بذلك بندقية ناجي العلي: فاطمة التي لا تهادن، وحنظلة الذي لا يساوم .

• شخصية زوج فاطمة الكادح والمناضل النحيل ذي الشارب، وكبير القدمين واليدين دليلاً على خشونة عمله.

• شخصية السمين ذي المؤخرة العارية والذي لا أقدام له سوى مؤخرته ممثلاً به القيادات الفلسطينية والعربية والخونة الانتهازيين .

• شخصية الجندي الإسرائيلي طويل الأنف، المرتبك أمام حجارة الأطفال، وخبيثاً شريراً أمام القيادات الانتهازية.

«حنظلة» انتُزِعَ من أرضه وهو في العاشرة من عمره كشجرة اقتُلعت من تربتها ولم تستطع أن تنغرس في أي تربة أخرى كما قال عنه أحد النقاد واصفاً خروج ناجي العلي من أرضه في قرية «الشجرة» .

وعن حنظلة يقول ناجي العلي :

«ولدفي العاشرة من عمره وسيظل دائماً في العاشرة من عمره، ففي تلك السن غادر فلسطين»، ومن الواضح هنا أنه يتحدث عن نفسه، وحين يعود إلى فلسطين سيكون لا زال في العاشرة ثم يبدأ بالكبر، فقوانين الطبيعة لا تنطبق عليه لأنه استثناء، كما هو فقدان الوطن استثناء» .

وإن كان «حنظلة» قد أدار ظهره للعالم ويداه خلف ظهره، فهو غير مهادن ولا يخشى أحداً، بل مراقباً لكل ما يحصل ومستشرفاً آفاق المستقبل، يحتج على ما يحصل من مساومات وخذلان، ويعبر عن ذلك بإيماءة من جسده يرصدها ناجي العلي بدقة الفنان وأصالة المقاوم ليرسخ معنى الصمود والنقاء السياسي .

أمّا عن سبب تكتيف يديه، يقول ناجي العلي :

«كَتفتُهُ بعد حرب 1973 لأن المنطقة كلها كانت تشهد عملية تطويع وتطبيع شاملة، وهنا كان تكتيف الطفل دلالة على رفضه المشاركة في حلول التسوية الأمريكية في المنطقة، فهو ثائر وليس مطبّع» .

وعندما سُئل عن موعد رؤية وجه حنظلة، أجاب :

«عندما تصبح الكرامة العربية غير مهدورة، وعندما يسترد الإنسان العربي شعوره بحريته وإنسانيته».. وإننا نراه أيضاً يقول: «لا أريد رؤية الوجوه المنكسرة.. لا أريد رؤية معالم الإرهاصات والألم محفورة على الوجوه، فقد لا أتمالك دمعتي حزناً وألماً، ولست أريدها كذلك، بل أريدها فرحاً استعدنا به حقنا في العودة، وحينذاك سأُريكم وجهي».. هكذا قال لنا «حنظلة في مشهد تخيّلي لذهننا القابع تحت الخذلان والترهل، وإننا نستشعر الشهيد ناجي العلي يمثل لنا الوفاء بومضة عين سددها لـ«حنظلة» وكأنه يُؤيد ما قاله» .

«حنظلة»، كان مؤرخاً، راصداً لمجريات الأحداث، يبثّ الأمل والتفاؤل والعنفوان والإصرار على نيل حقوقه المغتصبة.. «حنظلة»، أيقونة الثالوث الفلسطيني المقدس، حَقّ له أن يكون ثالثة الأثافي في هذا الثالوث، فها هو يقدّم نفسه :

«أنا وأعوذ بالله من كلمة أنا، اسمي حنظلة،

اسم أبي «مش ضروري»،

أمي اسمها «نكبة»، أختي الصغيرة «فاطمة»

نمرة رجلي «ما بعرف لأني دايماً حافي»

تاريخ الولادة 5 حزيران 1967، جنسيتي، أنا مش فلسطيني، مش أردني، مش كويتي.. مش حدا

باختصار «معيش هوية»، ولا ناوي أتجنس، محسوبك إنسان عربي وبس»

• عام 1973، كَتّف ناجي العلي يدي «حنظلة» وأدار ظهره للعالم رافضاً السياسة الأمريكية لتسوية بعد حرب 1973 .

• عام 1982، نشر ناجي العلي لوحته الشهيرة «صباح الخير يا بيروت» إبّان الاجتياح الإسرائيلي للبنان، ظهر فيها حنظلة وهو يقدّم وردة لبيروت التي جسدها فتاة جميلة، حزينة، تُطلّ من فجوة جدار محطّم .

• عام 1987، ظهر حنظلة وهو يرمي الحجارة مع أطفال فلسطين وكاتباً على الحائط .

فهو ليس شخصية سطحية ولا نمطاً مغلقاً للإنسانية.. هو الفلسطيني بماضيه وأبعاده النفسية وحاضره الساخر المقاوم، النابذ للتخاذل والرضوخ، المتعالي فوق الجراح.. يرتدي الألم درعاً للأمل وتأجيج الإصرار على حقوقه المغتصبة..

هو ذا حنظلة، الرمز الفلسطيني المُعذّب والقوي، الذي جعلنا نستشف حضوره ضوءاً يفضح المستور المتهاون المهادن، وينير روح المقاوم بعزيمة منحتها لنا إدارة ظهره للمطبعين ومن لفّ لفّهم.. فهو من أكثر الشخصيات المؤثرة في الوعي العربي..

هو الشاهد على صدق الأحداث، ولا يخشى أحداً..

يهابه المتخاذل قبل العدو..

يكتبُ الـ «لا» بصمته القاتل..

يقذفُ حمم المفردات حجارة للانتفاضة..

ويفيضُ أملاً بالعودة..

فحقّ له أن يكون أيقونةً، وحقّ أن يكون عموداً من أعمدة الثالوث الفلسطيني المقدس .(يتبع)

فيلم ناجي العلي
رحلة في عوالم شهيد الموقف والكلمة

موسى سعيد مراغة - كاتب وإعلامي - سورية

حنظله، هذا المخلوق الذي ابتدعته، لن ينتهي من بعدي بالتأكيد، وربما لا أبالغ إذا قلت إني استمر به بعد موتي».

ناجي العلي.

كلمات نتذكرها في ذكرى رحيل الفنان المبدع ورسام الكاريكاتير العربي الفلسطيني «ناجي العلي» ففي التاسع والعشرين من آب عام ١٩٨٧، أسلم ناجي العلي الروح في إحدى مشافي لندن بعد أن عاش يصارع آثار محاولة اغتياله التي جرت في ٢٢ تموز من نفس العام.

وباغتيال ناجي العلي صمتت الريشة، وتيبست الخطوط، التي كانت تجسد إرادة الشعب الفلسطيني وأمتنا العربية بالمقاومة ورفض شروط المهانة والاستسلام، لم يكن القتلة هذه المرة مجهولين، لقد كانت أوامر القتل رسمية لما كان لناجي العلي ورسوماته التي أقضت مضاجع الذين تورطوا في اغتياله. لأنهم كانوا يرون في رسوماته إدانات فاضحة لهم ولسياساتهم الانهزامية، وهم وجدوا في ناجي العلي بأنه قد تجاوز الخطوط الحمر، وقد آن الأوان لإسكات ذلك الصوت، وكسر الريشة وبعثرت الأوراق، وفعلاً كان لهم ما عزموا عليه.

نعم لقد اغتالوا الجسد، ولكن حنظلة بقي يطاردهم وما زال ورسومات العلي كانت ولم تزل إلى يومنا هذا تشير وتؤشر إلى القتلة وتفضح السماسرة وكل المتورطين في بيع دماء الشهداء والمتاجرة بقضية الشعب الفلسطيني وحقوقه في أسواق النخاسة وعلى طاولات المفاوضات العلنية والسرية.

وفي عام ١٩٩٠، انبرى المخرج الراحل عاطف الطيب لتقديم فيلم سينمائي حمل عنوان اسم الشهيد نفسه، قام ببطولته الراحل أيضاً الفنان العربي المبدع نور الشريف. الذي جسد بتألق شخصية ناجي العلي.

يبدأ الفيلم بتصوير محاولة اغتيال ناجي العلي في أحد شوارع لندن أثناء توجهه إلى مقر جريدة القبس الدولية التي كان يعمل فيها حيث كان يتأبط بعض الرسومات التي أنجزها في الليلة السابقة.

تلك الرصاصات الغادرة التي أطلقت على ناجي العلي في نهار ذلك اليوم جعلته يصارع الموت في غرفة الإنعاش أسابيع عدة. ومن تلك الغرفة ينطلق فيلم المخرج عاطف الطيب، في رحلة إلى الزمن الماضي «فلاش باك» ويستعرض أعمال العصابات الصهيونية ضد الفلسطينيين، وما يتبعه من تشريد وطرد أهالي المدن والقرى الفلسطينية، إلى أن يأتي إعلان قيام دولة الكيان الغاصب، وصور الفيلم نزوح عائلة ناجي العلي من قرية الشجرة في الجليل الفلسطيني إلى لبنان، وقد تطرق الفيلم إلى حياة ناجي ومراحل تفتح وعيه السياسي والفكري، مروراً بمرحلة بيروت وحصارها وخروج المقاومة الفلسطينية منها، ومن ثم سفر ناجي إلى الكويت للعمل في جريدة القبس واضطراره بعدها للسفر إلى لندن في ظل التهديدات التي كان يتلقاها نتيجة مواقفه التي كانت تظهر في رسوماته التي تؤكد على إدانته ورفضه لمشاريع الاستسلام الانهزامية وللتخاذل الفلسطيني والعربي اتجاه قضية فلسطين.

لقد قدّم الفيلم ناجي العلي كما كان هو يقدم نفسه شارحاً مفهومه للحياة التي لا تكتمل إلا بعودته إلى وطنه الذي أرغم على النزوح منه، والعيش في قرية الشجرة مسقط رأسه التي لا تزال تفاصيلها مغروسة بذاكرته.

وبعيداً عن التوثيقية وبرؤية إخراجية عالية المستوى وكثيرة، التفاصيل صاغ المخرج عاطف الطيب بلغة سينمائية شفافة فيلمه عن ناجي العلي، وحمله بدلالات فكرية في إطار فني ملتزم بعيداً عن الافتعال والتصنع ومقولات السينما الهابطة.

ومن خلال إشارات لا تحمل التأويل أو الالتباس من جهة، ورسالة حب لمواقف ناجي العلي المتلازم والرافض لكل المواقف السياسية الانهزامية والتي عمل العلي على فضحها، كذلك تناول الفيلم في نفس الوقت عبقري الكاريكاتير الأول في الوطن العربي، وأحد أهم أبرز رسامي هذا الفن على مستوى العالم.

ومن خلال مواقف ناجي ورؤيته الفكرية والوطنية، قام المخرج برصد مرحلة من

تاريخ القضية الفلسطينية التي سيطرت عليها بنى مأزومة ومؤسسات مهترئة، وقيادات بدأت تهرول باتجاه عقد صفقات الاستسلام مع العدو، وكانت الإرهاصات قد بدأت بلقاءات مع قوى وأحزاب وشخصيات صهيونية كانت تتم تحت جنح الظلام أحياناً وبعضها في العلن وتحت مسميات مثل قوى اليسار والسلام «الإسرائيلية».

لذلك ابتعد الفيلم عن التوثيقية لحياة ناجي العلي، في محاولة لقراءة بصرية ومشهديه لناجي وأعماله ومواقفه ورؤيته الفكرية. وحاول الفيلم فك أسرار رسوماته كما تنطق بها، وبما تخفيه بوصفها الضمير الحي لجموع أبناء الشعب الفلسطيني، وقدّم الفيلم حنظله طفل ناجي وصوته المدوي الذي كان يدير ظهره بنقاء روحي قل نظيره لإيصال المواقف والصورة التي كان يتبناها ناجي العلي نفسه.

وفي مفصل هام من الفيلم السينمائي تم فضح تلك الشخصيات الانتهازية التي كانت تتاجر بنضالات الشعب الفلسطيني، وتبني أمجادها وثرواتها الشخصية تحت شعارات النضال في فلسطين، تلك الشخصيات كانت ممثلة بأبي الفوارس التي قدمها الفيلم كمثال لكل الذين ارتضوا لأنفسهم الخروج عن القيم والمعايير الوطنية فارتبطوا بكل شيء عدا الوطن والتضحية من أجله، فظهرت تلك الشخصيات منخورة بالسوس والعفونة عاكساً شريحة مارست الخداع والتزييف حتى داخل بيوتها وتجسد بمحاولة إقامة بيارة برتقال في شقة فاخرة في الطابق العاشر. وفي احتفال يعلن أبو الفوارس عن مشروعه المجنون ذاك، هذا المشهد يستفز ناجي العلي حتى النخاع، فيقوم بالتبول على أول شجرة من بيارة أبو الفوارس، ويغادر مكان الاحتفال تاركاً الجميع غارقين في ذهولهم.

وقد رصد الفيلم فترة عمل ناجي العلي في جريدة السفير والتي كانت من أهم مراحل حياته، وفيها عبر عن بديهيات حقه عن التعبير والديمقراطية، وكانت الصحفية العاملة معه في الجريدة صدى صوته التي تؤكد رؤية ناجي العلي اتجاه الواقع ومفهومه لمعنى الوطن وللديمقراطية، ولعل من أهم الشخصيات التي كانت لها المفاصل المؤثرة في حياة ناجي العلي من شخصية «أحمد» رفيق طفولته وصديقه حتى لحظة استشهاده، إنها شخصية الفدائي المضحي المقاوم والمعادل للنقاء الثوري.

كما كانت شخصية «المتشرد» من أبرز شخصيات الفيلم، والتي مثلت الضمير العربي بتساؤلاتها المتكررة وهي تعيش الثمالة : «أين هي الجيوش العربية ؟ ولماذا لم تصل؟ وهل تحارب في مكان آخر؟».

وكان الفيلم متميزاً على المستوى الفني والحرفي عمل فيه نخبة متميزة من الفنانين والفنيين من مصر وسوريا ولبنان وتحت أشراف مخرج بصير متمكن عاطف الطيب أدار فيه ممثلين محترفين على رأسهم نور الشريف وأحمد الزين ومحمود الجندي، وكتب له السيناريو بشير الديك.

لقد كان فيلم «ناجي العلي» محاولة مهمة في سياق السينما الواقعية وتصدى لهذه المهمة مخرج قدير بأسلوبه الملفت السينمائية المدهشة، وهو بهذا يدخل نفسه في قضايا شائكة كان هو مستعد لخوضها حتى ينتج سينما واقعية تثير الأسئلة، وتحرض الفكر، بعيداً عن سينما التسطيح والأشكال السينمائية الجاهزة، ليؤكد المخرج خلال عمله هذا على أهمية ودور الفن السابع في نقل وتصوير الأحداث والشخصيات المؤثرة في مسيرة النضال الفلسطيني، مؤكداً على دور الفن الملتزم في معركة التحرير إلى جانب البندقية ليحقق النصر على أعداء الأمة والإنسانية.

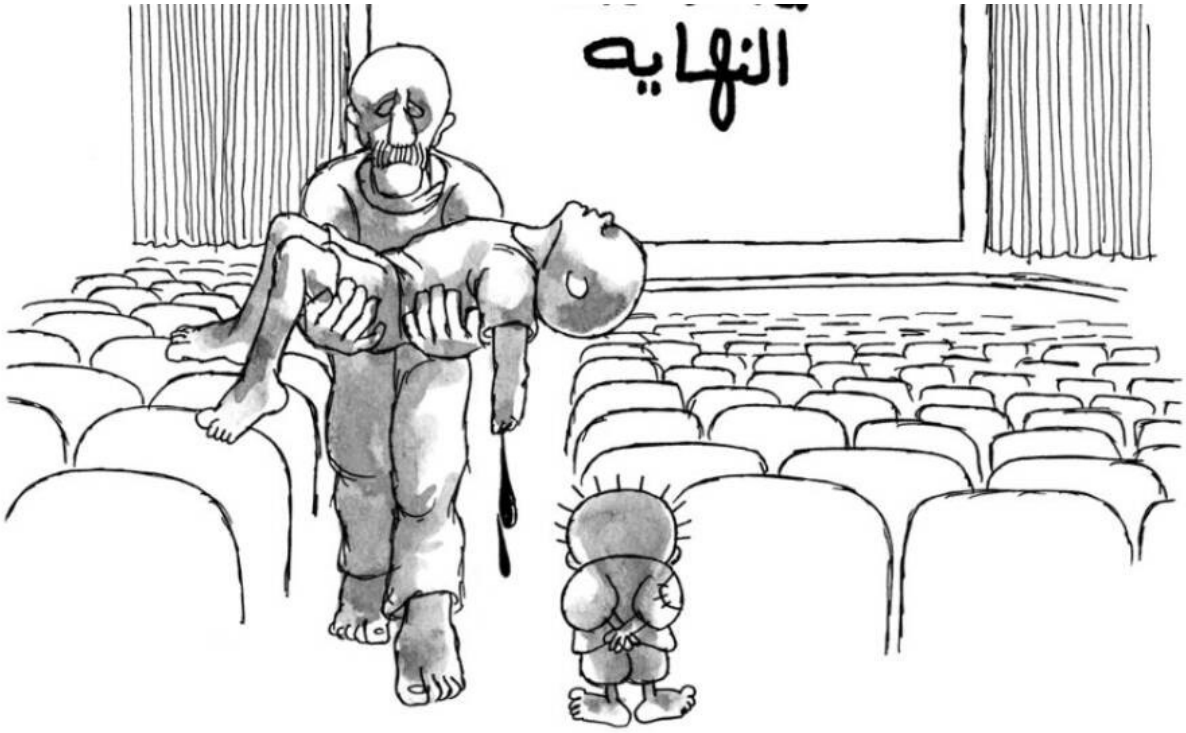

«كأني هنا» لإيمان زيّاد
لغة قاسية وغياب لذاكرة المكان

محمود أبوحامد ـ كاتب فلسطيني ـ ألمانيا

سيدرك المطلع على تجربة الشاعرة الفلسطينية إيمان زيّاد، أن ديوان «كأني هنا» امتداد لعمليها السابقين «شامة بيضا» و«ماذا لو أطعمتك قلبي»، مع إصرارها على تسمية كتبها الثلاثة «نصوص نثرية»، ومحاولاتها الدؤوبة لامتلاك لغتها الخاصة بتراكيبها الغريبة والموحية في آن، وتطوير موسيقى قصائدها الداخلية، وتجريبها المستمر في تحقيق رؤيا متناغمة مع شكل تلك القصائد، وإن تأرجحت، في انزياحات مجازاتها، بين الحلم والحقيقة، والواقع والتخييل.. وربما قد يساهم العنوان «كأني هنا»، الذي لا يشكل تناصاً مع عنوان قصيدة ما، أو مع بعض من كلماتها، قد يساهم في تجسير تلك الحالة مع القارئ.. فهل هي هناك؟ أم كأنها هناك في فلسطين؟

ذاكرة المكان

قد يبدو للقارئ من الوهلة الأولى أن على ابنة قرية «يالو» قضاء القدس، المهجّرة في العام 1967م، أن تكتب عن فلسطين وعن الاحتلال الصهيوني وجرائمه وفاشيته وعنصريته بشكل مباشر، أو تؤرخ لذاكرة المكان الذي نشأت فيه.. لكن عليه أن يتقصى قصائد الديوان ليجد ذلك، فقلما يجد أي تفاصيل عن مكان ما، وإن تم ذكر «يافا وطبريا» فقد تم ذكرهما بالاسم وحسب، وإذا كان القارئ لا يعرف فلسطين أصلاً، فالأمكنة كجغرافيا تغيب في كل الديوان، ولكن في الوقت نفسه تشير الكثير من القصائد إلى أن ثمة ما حدث ويحدث هناك، أكان ضمن تداعيات أو مونولوجات داخلية، أو مجازات توحي بذلك من بعيد، أو ضمن قصائد قد تبدو مباشرة بمعاني مفرداتها وتأويلاتها، لكنها قد تبدو عمومية وتحدث في أي بلد بالعالم، فتجربة السجون والهجرة والنزوح.. ومفردات كالرصاص والموت والقتل والزنازين.. تغدو عامة إذا لم تحددها مشهدية في مكان معين.. ففي قصيدة (200 يوم في الزنزانة)، وبعنوانها المباشر لا يصل القارئ إلى أي جديد أو إلى «رؤيا» خاصة عما يحدث هناك، مع أن القصيدة الحاملة لها تُصاغ بلغة جزلة، وجمل شعرية معبرة، ومجازات وانزياحات موحية، وإن تأرجحت بين الوضوح والغموض، تترك للقارئ مساحات رحبة للتأويل، ودلالات متباينة عن حياة السجون وتداعياتها على من داخلها ومن خارجها.. وتضيف الكثير من الجمل الشعرية المعبرة والتراكيب المكثفة عن عتمة السجون، وربط هذه الحالة بالانتظار، انتظار الضوء وانتظار أحدهم لحريته، أو انتظار الموت ..

(..لا نوافذ في زنزانتي/ أنا الوحيدة نافذة مغلقة متخيلة/ وفي الخارج يرتاح على جسدي الكون./ مئتا يوم في لبّ العتمة/ صرت الليل في حضن الوحدة/ تصغي إلى ندوبي/ وتعيد كل شيء إلى موضعه العدمي/ كأنك أوقفت الانتظار فما عدت تنتظر/ وكأنك ما عدت تقتل نفسك إذا غافلتها الأحلام(.

ظاهرة قتل الأطفال ببرود مريع وبهمجية فاشية مرعبة، باتت من يوميات العدو الصهيوني، وإن لم ترد الشاعرة الإشارة إليه بالاسم تحديداً، فيمكنها أن تحدد ذلك القتل في شارع معين، في مخيم ما، أو قرب الجدار الشهير.. وهذا بالتأكيد لا ينفي أن التكثيف اللافت لشجاعة الطفل وللقتل برصاصة ساخنة، ووضع الجثة في ثلاجة باردة.. يلامس حالة إنسانية تصل إلى الكون كله مثل قصيدة «أشجع مني»:

(أشجع مني.. طفلي أشجع مني/ حين قتلوه برصاصة ساخنة/ ابتسم في وجه القاتل/ وقف معتدلاً/ «لم تصبني»/ ثم اتجه إلى الوميض/ البرد مرعب هناك/ والأبدان حجارة يسكنها الثلج/ لكنه أشجع مني).

في قصيدة «فستان بريّ» تتابع الشاعرة إيمان زيّاد الحالات المأساوية للهجرة واللجوء، وتداعيات النجاة والموت.. وهي القصيدة الأقرب في الديوان لتناول ظاهرة صارت إنسانية بكل مقاييسها وأبعادها.. وقد حققت الشاعرة بلغتها العميقة وحسها المرهف إضافات جديدة لظاهرة الهجرة عبر البحر، حيث تتعدد شواطئ الرحيل، ويصير البحر مقبرة واحدة:

(.. مضى العابرون نحو البحر/ لم يكن البحر لطيفاً كعادة الأطفال/ كانت هناك طفلة فستانها ركام/ كان الصراخُ على شكل الأنين/ والصدور مغدورة ببقع الماء/ والرفات تسمم الأسماك حين تجوع/ وخدوش القوارب المهترئة/ يضمدها الموج/ والطحالب تعلق بثياب مجهولة/ لم أستطع رؤية الشاطئ/ لم أهرب إليه/ كنت أردم الماء/ بالرّمل وبالذكريات/ وبالبحّارة القدماء/ صمّ القراصنة آذانهم بالطين كأني سراب(.

مفردات وتراكيب

تختار إيمان زيّاد مفرداتها بعناية خاصة، مسخرة المرادفات والأضداد، والمعاني الطيّعة لصياغة تراكيبها وجملها الشعرية، واللغة الجزلة بدلالاتها المفتوحة لبناء مجازاتها واستعاراتها.. وصولاً إلى تحقيق «رؤيا» القصيدة.. ليبقى السؤال: أي لغة وتراكيب قد استساغها القارئ؟ وأية رؤيا قد وُفقت في إيصالها له؟

تنجح الشاعرة في مراكمة تجاربها وإضافة الجديد لخصوصيتها، وتتفرد في استخداماتها اللغوية، أكان في توالد استعارات ومجازات مغايرة، أو في تراكيب لغوية جديدة، مسخرة التكرار لربط جملها الشعرية، ولبناء أشكال متنوعة لقصائدها.. لكن ثمة حالات تكون فيها اللغة «سحرية» وتتفلت فيها المفردة من بيئتها ومن سياقها، وتتعدد عند القارئ التصورات والتخيلات والدلالات فتضيع الرؤيا/الحكاية، ويطفو الغبش على الوضوح، كما في قصيدة «أسنان الفراق» مثلاً:

(كنت أتأمل ثغره المنطاد/ إذ يسري بالمريدين إلى ذروة جرح/ وهم يتشبثون بأرجل حبار/ يوغل في معاني الصيد، وكم كنت ألمح في قنبلتي الملح الراكدتين في عيني الذئب/ وجه ليلى(.

وتتابع الشاعرة في القصيدة ذاتها:

(فلا نرد يقربه بالحظ/ إلى مدارك الرؤى/ ولا الماء لو تعطر بالضوء/ سينزح به إلى الضفة الممنوعة/ ولا أناملي سترتل في اللّمى المنسي/ آيات الحياة/ وكلما قطعت الدقائق علينا الطريق/ تتسع المجرة بالندم الآن(.

ورغم السمة الإنسانية العميقة التي تتسم بها قصائد الديوان، قلما نجد مفردات وتراكيب تعبر عن حالة رومانسية، أو جمل شعرية رقيقة تصف الطبيعة وتحولاتها، أو قصيدة غزل شفيفة ترتقي لحالة عشق وجودية.. المفردات والتراكيب في أغلب قصائد الديوان قاسية، بل وقاسية جداً: (انتشل من بدني عشاء الدود.. العشب الذي ينبت على سطح الجثث.. ليل ينهش قلبك المعطوب.. الرصاصة الشهية.. مخالب تحرث ظهري.. جرعة من الطعنات..(.

وثمة عناوين قساوتها أكبر من متن قصيدتها، «كطير يأكل قلبي» وعناوين توحي بذلك، كعنوان قصيدة «معقوف»، وثمة عناوين تتقاطع مع محتوى القصيدة وتعبر عنه، مثل «شهية القتلة:»

)لم يزل يخرج من فمي/ مبردُ لِسان خشن/ وتسقط من المقصات الصدئة/ بقايا أصابعي الملوثة بالخرس/ ومبضع منتشي بلذة الكبد/ وقطن كثير/ كثير/ غارق بانهيار عصبي/ لم يزل يخرج من فمي(.

ربما عدم تعبير الكاتبة التي «هي هناك» بشكل مباشر عما يحدث في فلسطين، أكان بتسمية الأحداث والأمكنة بسمياتها، أو بإدانتها لهذا الواقع القهري من فزع وقتل وظلم واحتلال وعنصرية وفاشية.. قد انعكس لا شعورياً من عقلها الباطني على وسائل تعبيرها، فجاءت لغتها قاسية وجافة أحياناً، ومعبرة عن موضوع القصيدة أحياناً أخرى، وحتى إن كان حواراً وجودياً، أو استحضاراً لمفردات من الطبيعة، كما في قصيدة « فوق آه تحت آه» تظل التراكيب القاسية هي السائدة:

(يا أيها الجرح المطل على دمي/ أتشد حبلك واثقاً أني أموت/ أتجز قمحاً في عيوني/ طمأنه الجفاف/ ما الجفاف يا بلادي من ركود الحظ لكن/ من جراد في الأقاحي/ دون قاع/ دون آخرة لهذا الجوع/ يأكل ما تبقى في القلوب/ أتستبيح في السماء أحلام الطيور/ أتشرد الروح الفراشات فوق الرماد/ أيثقل وجه الماء جسدي المثخن بالوصايا(.

نصوص نثرية

تصرّ الشاعرة إيمان زيّاد على تسمية أعمالها «نصوص نثرية» رغم أنها ضمن المعايير المتبعة والأعراف السائدة حالياً، تعدُّ كاتبة قصيدة نثر بامتياز، أكان من حيث الرؤيا/الحكاية، أو من حيث مضامين نصوصها واختيارها للأصعب والأغرب من المواضيع والأغراض، وسعيها لامتلاك خصوصيتها، أكان باللغة وتكثيفها، والموسيقى الداخلية، أو من حيث تسطيرها لقصيدتها، أي توزيع « النص النثري» على سطور؛ فالشاعرة زيّاد تعتمد في وقفاتها وتقطيعها لجملها الشعرية على أساليب متنوعة، إن صح التعبير، فإضافة لاكتمال الجملة نحوياً، تشتغل على اكتمال المعنى أو الإضافة عليه، ومن ثم الانتقال لمعنى آخر، مسخرة ، بدقة متناهية، علامات الترقيم الظاهرة والخفية، كما في قصيدة «نعشي قارب نجاة»: (منذ أن صعدتُ شجرة اللوز/ أبتغي سماءً/ لاهثةً الأرض تركض خلفي/ وأنا أنهرها؛ أن عودي/ خطوتي سمٌّ الغياب/ وسم فمي/ لما يقصّ الألم/ غيمة تحمل جُنَّتي بإصرار/ فلا أقاوم/ موسيقى الوهم ترافق الجنازة/ ضحكات الضحايا تزفّني/ وبلا عينين؛ كنت أراهُم..(.

وتشتغل الشاعرة على تكرار المفردة أو المفردات، إما بين عنوان القصيدة وخاتمتها، كما في أغلب القصائد، ومنها «غير أن» و»أسنان الفراق» و»به» وقد تضيف للعنوان حرفاً كخاتمة قصيدة «ذيل القط»، أو كلمة كخاتمة «نعشي قارب نجاة»، وقد يكون التكرار بين العنوان وسطور القصيدة، مثل «عام آخر ينقضي».. وتأتي المفردة بتكرارها إما للتأكيد أو الاستئناف أو الاستدراك، أو إضافة معاني جديدة.. مولدة مساحات رحبة للانزياحات والمجازات، ومانحة لقصائدها خصوصية في شكلها وتسطيرها، مثل قصيدة « ليلة واحدة تكفي» :

(ليلة واحدة تكفي/ كي أريق لهفة الماء/ على راحتيك الشغوفتين بكثافة النبض/ ليلة واحدة تكفي لأتطهر من العتمة/ ليلة واحدة تكفي/ لتفيض على شفة الصحراء الأنهار/ وتندف الجباه بالثلج/ ليلة واحدة قاصرة اليد/ تكفي/ كي أتمم يقيني بأنك في الجوار(.

كما تنوع إيمان زيّاد في أغراضها الشعرية ورؤياها، وتنوع في ضمائر الروي أو البوح، فإضافة لضمير المتكلم «أنا» كما في قصيدة «ضوء»، ونحن في «من منا»، ثمة قصائد بضمير الغائب هو وهم وهي، كما في «جارة الموتى» وبالمخاطب أنت وأنتم وأنتنّ، كما في قصيدة « المعطوبة أرواحهنّ». ويتناغم مع هذا كله تنوع في شكل القصيدة وحجمها، فثمة قصائد طويلة، مثل «قال الغريب»، وطويلة من عدة مقاطع، مثل «استراحة خوف، وقصائد قصيرة مثل «قصيدة حلوة»، وقصيرة كالوخزة مثل قصيدة «معقوف»:

أيؤلمك الجرح؟
اسحبه بهدوء
الخنجر معقوف في الداخل.

السينما العربية:
من وجع الأسئلة إلى استسهال الإجابات
بين وهج الماضي وركود الحاضر

تماضر سعيد عودة ـ صحفية فلسطينية ـ سورية

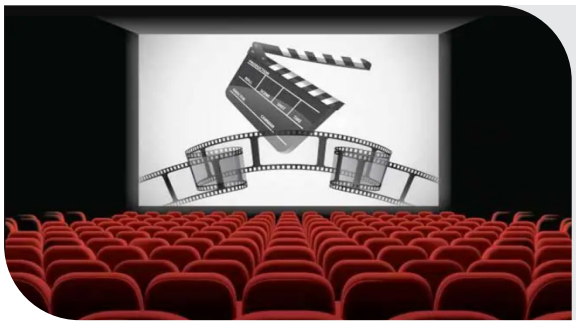

هل السينما مرآة المجتمع؟»
سؤالٌ طُرح كثيرًا، غير أن السينما العربية – في طورها الذهبي – لم تكن مجرد مرآة، بل كانت مطرقة؛ تهدم أوهام السلطة، وتعيد تشكيل الوعي. أما اليوم، فقد تحوّلت إلى سطح لامع يخفي تحت بريقه خواءً روحيًا وفكريًا. بين ما قبل التسعينيات واليوم، ضاع المشروع، وسقط السؤال، وانسحب العقل من خلف الكاميرا.

السينما القديمة: الفكرة أولاً... والمغامرة أخيرًا

قبل التسعينيات، لم تكن السينما العربية ترفًا، بل ضرورة. كانت جزءًا من معركة الهوية والحرية والوعي. ولم يكن غريبًا أن تنطلق هذه السينما من قلب الألم العربي، لتنتج أعمالاً خالدة فكريًا وجماليًا.

مصر: الواقعية والإنسان

في مصر، شكّل جيل المخرجين الكبار ملامح سينما ذات مشروع اجتماعي. صلاح أبو سيف، أحد رواد الواقعية، قدّم شباب امرأة (1956)، والزوجة الثانية (1967)، حيث تتجلى المواجهة بين السلطة الذكورية والأنثى الريفية الصلبة، في قراءة دقيقة للمجتمع المصري.

أما الكرنك (1975) لعلي بدرخان – عن قصة نجيب محفوظ – فقد صوّر بجرأة قمع الحقبة الناصرية، مقدمًا سينما سياسية حقيقية، حتى وهو محاط برقابة أمنية خانقة. والعصفور (1972) ليوسف شاهين كان وثيقة صادمة عن الهزيمة والانكسار بعد نكسة 67، حيث يربط الفيلم بين فساد الداخل وهزيمة الخارج.

سوريا: الحزن النبيل

في سوريا، كانت السينما تتنفس رغم اختناق السياسة. قدّم محمد ملص فيلمه أحلام المدينة (1984)، وبه خلّد الطفولة في مواجهة القمع العائلي والاجتماعي والسياسي، مستخدمًا الكاميرا كأداة للبوح لا للتزييف. في فيلمه الآخر الليل (1992)، حوّل الحرب إلى سرد داخلي مؤلم، متكئًا على الذاكرة لا على الأرشيف.

عبد اللطيف عبد الحميد في رسائل شفهية (1991) صوّر الريف السوري بلغة مليئة بالحياة والتفاصيل، دون تنظير أو بهرجة.

الجزائر: سينما الثورة والهوية

الجزائر، التي خرجت من الاستعمار الفرنسي بجرح مفتوح، جعلت من السينما منبرًا لكتابة التاريخ. وقائع سنين الجمر (1975) للمخرج لخضر حمينة، الحائز على السعفة الذهبية، قدّم ملحمة بصرية عن معاناة الجزائريين في حقبة الاستعمار.

وأتى فيلم ريح الأوراس (1966) لمحمد لخضر حمينة أيضًا، ليُظهر المرأة الجزائرية في مشهد لا يُنسى، وهي ترفض الطعام حتى إطلاق سراح ابنها. كانت السينما حينها لغة مقاومة وصراخًا بصريًا.

السينما اليوم: موت الفكرة تحت ركام السوق

اليوم، تراجعت السينما العربية من حيث كونها مشروعًا فكريًا إلى كونها منتجًا تجاريًا. نشهد أفلامًا تلهث وراء «الترند»، وتحتفي بالتكرار الممل لقوالب ميتة: كوميديا بذيئة، دراما سطحية، قصص حب مصنوعة بالكليشيهات.

أين المشكلة؟

غياب النص العميق: نادرًا ما نجد اليوم أفلامًا عربية تسعى لتفكيك المجتمع أو مساءلة التاريخ أو حتى الاقتراب من وجدان المتفرّج بأسئلة جادّة.

تسليع المرأة: معظم الأفلام المصرية المعاصرة تقدم صورة نمطية للمرأة كجسد أو كأداة إغواء، بلا أي عمق نفسي أو اجتماعي.

هيمنة المنصات: أصبحت المنصات الإلكترونية تفرض منطق السرعة، مما قتل التأمل الفني.

إنتاج بلا مشروع: المنتجون اليوم يبحثون عن الربح لا عن الخلود. السيناريست مُستبدل، والمخرج مُقيَّد، والممثل مجرد أداة شهرة.

استثناءات تحاول النجاة

رغم الرداءة السائدة، هناك من يسبح عكس التيار. السينما الفلسطينية الحديثة، مثل يد إلهية (2002) لإيليا سليمان، وعمر (2013) لهاني أبو أسعد، تُقدّم سردًا مختلفًا للمقاومة والمعاناة، خارج الشعارات.

وفي لبنان، قدّمت نادين لبكي كفرناحوم (2018) كمرآة دامغة لطبقات المهمشين، بواقعية مؤلمة. كذلك فيلم بيك نعيش (2019) للمخرج التونسي مهدي برصاوي، كان جريئًا في تعرية السلطة والصمت.

لكن هذه الأفلام ما تزال محاصرة: إنتاجيًا، رقابيًا، وتوزيعيًا. وهي تشبه – في واقع الأمر – رسائل في زجاجات تُرمى في بحرٍ من الضجيج واللاجدوى.

وأخيرا أيّ سينما نريد؟

في النهاية، لا يمكن الحديث عن سينما جيدة دون مشروع ثقافي. السينما ليست شاشة فقط، بل موقف. ما ينقصنا اليوم ليس كاميرات أو تقنيات، بل موقف جاد من الواقع، وجرأة في الطرح، واحترام لعقل المتلقي. السينما التي لا تجرؤ على الحلم ولا تخجل من تفاهتها، ليست فنًا، بل سلعة عابرة.

لقد أنتجت السينما العربية ماضيًا أفلامًا تُناقَش في الجامعات حتى اليوم، بينما تنتج حاضرًا أفلامًا تُنسى قبل أن تُشاهد.

والسؤال: هل نملك شجاعة العودة إلى السينما كفكرة لا كمنتج؟ كأداة مقاومة، لا وسيلة ترف؟ كصرخة، لا نكتة؟

محمود درويش وذكريات النزق الجميل

محمود علي السعيد ـ شاعر من فلسطين ـ سورية

تنماز الكثرة من الذوات المبدعة بالحساسية المفرطة، والرهافة السباقة، ونزق الشفافية (بالمفهوم الإيجابي جداً للمصطلح) تحليةً للريق وإنعاشاً للحدث فكيف إذا كان يعضدها خيلاء النجومية المحببة التي قُطفتْ باستحقاق وجدارة وامتياز. أسوق وجبةً منها تجسدت في شخصية الشاعر الفلسطيني الاستثنائي محمود درويش عايشتها عن قرب لتتناقلها الذاكرة الشفوية الفردية والجمعية تنضاف إلى مداميك عمارة هذا الرجل الخلاّق الذي رصّع اسم فلسطين بأنصع الحلل في سجل تاريخ القرية الكونية من قبيل التدليل الإيجابي، والانحياز المجاهر، مع الشطب بالأحمر سلفاً التفسير الموارب، والفهم الأعوج لطاقم النيّات الصيادة في الماء العكر، وطرق الضباب، ودهاليز العتمة .

-1 في جلسة ود مع الضيفين القادمين من الأقاصي الشاعر محمود درويش والفنان مصطفى الحلاج في غرفة مجلس إدارة النادي العربي الفلسطيني في حلب همس في أذني أحد رموز اتحاد طلبة فلسطين بالتوسط له لإجراء حوار مع الشاعر محمود درويش، ليصار إلى نشره في مجلة اتحاده شريطة الإلمام الواسع بنتاج ومسيرة درويش الحياتية والإبداعية، فكان له ما كان، دار قرص المسجلة وانطلق السؤال الأول كرصاصة أصابت مرتكزاً معنوياً (أخ محمود تقول في قصيدتك سجل أنا عربي) ولم يكمل مقولته حتى انتفض درويش بقشعريرة نزق مكهرب لذيذ (بعدك في قصيدة سجل أنا عربي) وأغلقت ستارة المقابلة على الرقم صفر .

-2 في بهو المطعم المنشود وبحضور نخبة من مبدعي المدينة ومنصاتها الأمامية دارت دورة الكؤوس والأطعمة بشتى صنوفها ومختلف أفواهها وابتدأ الحوار المرصود بشغفٍ ودقةٍ وأمانة لإغناء صفحات (مجلة المقاومة) التي كانت تصدر عن اللجنة الثقافية للنادي العربي الفلسطيني بالتعاون مع الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين بطلعته البهية الجذابة، انطلق صوت من طاولة مجاورة يستقدم نادل المطعم الذي كان اسمه بالمصادفة (محمود) وإذا أردتم مراعاة دقة النحو العربي القويم (فمحموداً) بتكرار صاخب، استدار محمود درويش بتأفف ملحوظ إلى الوراء ظناً بأنه المقصود وصرخ (محمود.. محمود.. محمود..) فقلت له مداعباً.. هون عليك يا صديقي ففي هذه الصالة العاجة بالحضور العديد من المحاميد، فإذا كان يظهر الكنز على كل ثلاثةٍ فنحن سنحصد في هذه الليلة فيضاً من الكنوز .

-3 اقترب موعد إحدى أمسياته المقررة فاستأذن بالصعود إلى غرفته في فندق السياحي الشهير في حلب لقضاء حاجة أفلتها كمبيوتر الذاكرة المتعبة، استفرد به رقم آدمي عبيط يأتي في مرتبة متأخرة من مجموعة المعنيين بشؤون الأمسية واشياً بنقل مكان الأمسية من صالة كبيرة إلى أخرى أصغر بحجة طارئ فني وتصليحات مفاجئة، استشعر محمود درويش لفرط الرقة الروحية وطلاوتها سهم إهانةٍ أصابت مكمن شاعريته فاستشاط غيظاً ويمم شطر السيارة المرافقة التي كانت تقلُّه ضارباً عرض الحائط ببضع محاولات من بعض أعلام الفكر والأدب في ثنيه بالعدول عن قراره، حاولت ترطيب خاطره وتطمين باله بإضمامةٍ من كلمات الحب مبيناً له الظرف المستجد فصاح بصوتٍ متهدج (حتى أنت يا محمود) أجبته وأنا أتقلب مع الحشد التواق لتغريده الشجي على جمر اللهفة: (هيا بنا إلى مخيم العودة النيرب لنقيم لك أجمل عرس فلسطيني) ولكن سبق السيف العذل وضاعت فرصة من أثمن فرص عمر المدينة.

-4 اكتظ مدرج الجاحظ في كلية الآداب بالحضور لدرجة التخمة بما فيه الممرات الجانبية احتفاء بشاعر المقاومة الأبرز وما إن اعتلى منصة الإلقاء وطفق يغرد دب ضجيج من شدة الازدحام في ميسرة المدرج العلوية فما كان منه إلا أن رشق جملة من الكلمات الغاضبة على مسمع الحضور وغادر القاعة مما حدا بعمادة الكلية ولفيف من الواجهات الأدبية والأكاديمية المرموقة في المدينة إلى ترطيب الحال بقبلات الود وإعادته بمشقة بالغة .

-5 في جولة سياحية لبعض معالم حلب مع لفيف من الصفوة همس محمود درويش في أذني مستفسراً عن كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني وأردف: إنه من أهم كتب التراث العربي، يممنا صوب المستودع الأرضي لإحدى المكتبات العامرة، احتضن محمود أجزاء الكتاب الفاخرة طباعة وإخراجاً بين يديه، أخذنا بتؤدة نصعد سلم الدرج، سارع أحد الأدباء وقد كان بالمصادفة أقل وزناً وأصغر حجماً يريد أن يحمل الكتب عنه تقرباً أو تملقاً (عنّك أخ محمود) لم يرق هذا التصرف لمحمود درويش فرد عليه بعصبية ملحوظة: (شيل حالك) .

-6 في الزيارة الأخيرة (للمدينة البيضاء) حلب وبعد تبادل أنخاب التحيات هاتفياً بالوصول بالسلامة، تنطع دسّاسٌ من الطراز المحترف بإيصال رسالة ملفقة جائرة بدهاء مفادها أن كوكبةً من شعراء المدينة يتصدرها أبناء جلدتك الفلسطينية تستميت بالنيل من مكانتك الشعرية المرموقة، وعلو بنيانك الإبداعي الشاهق فارتفع ضغط شريان بوصلة النزق الدرويشي الأبيض إلى درجة الغليان مما اضطرنا وعلى جناح السرعة بتوجيه رسالة له بعنوان (بطاقة حب إلى محمود درويش) ممهورة بتواقيع المجموعة المومأ إليها نشرت في مجلة الحرية الفلسطينية في حينه لرأب الصدع وترميم الخدوش وامتصاص الشوائب .

أقول: كم هو جميل إحساس المبدع الرهيف غير المبرمج وعفوية النزق الفطري البريء ونرجسية الذات الطيبة الممتلئة بالزهو والفخار والسؤدد- اعصم النفس عن نعتها أنانية الذات- وبخاصة إذا صدرت عن نفس مطهمة، ومضغة أصيلة الأرومة والمقلع، وكينونة طينية محبوبة الخصال والمناقب والسجايا، ومعمار تشكيليٍّ خلاّب، بكل تجليات وجوه الموشور الحياتي الدنيوي المكتظ بالنصاعة والنبل والألق.

«مصائد الرياح» لإبراهيم نصر الله
مقاربة نفسية فلسفية

د. محمد عبد القادر ـ ناقد فلسطيني ـ الأردن

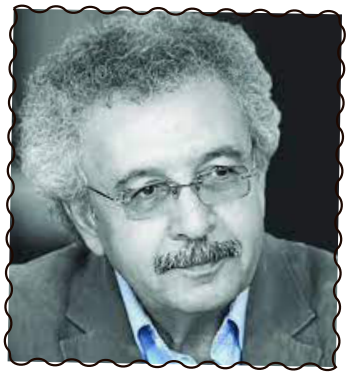

«مصائد الرياح: المنتج الروائي الأحدث عند إبراهيم نصر الله، بدا لي هذا العمل، في بنائه وتنظيمه ولغته، عملاً سينمائيًا جاهزًا ومتكاملاً. يشهد على هذا القول العديد من المقاطع المشهدية في كثير من فصول الرواية، المكتوبة بحرفية عالية تنتظر تحرّكات الكاميرا.

وبالرغم من أن فصول الرواية تنطوي على حركية واضحة، إلا إن جوهر المحتوى السردي فيها ذو طبيعة ذهنية فلسفية نفسية مركّبة، يلتقط القارئ فيها أنفاسًا وجودية وإحالات من عوالم يونج (الإيحاءات الأسطورية) وفرويد (مكبوتات اللاوعي من حاجات ورغبات جنسية)، علاوة على نسبية المفاهيم والقيم والعلاقات.

وسط هذا الحيّز الفلسفي النفسي المركّب، تلعب الخيول دورًا فعّالًا في كشف دواخل البشر، ولعلها تساعدهم على فهم أنفسهم بصورة أعمق وأكثر تنوعًا.

الخيول بين روايتين

حينما انتهيت من قراءة رواية «مصائد الرياح» للشاعر والروائي إبراهيم نصر الله، تساءلت عمّا يدفع كاتبًا أفرد للخيول مساحة واسعة في روايته الملحمية «زمن الخيول البيضاء»، إلى استدعاء الخيول مرة أخرى في «مصائده» الأخيرة. والحقيقة أن إبراهيم، في الرواية الأولى، قد توّج الخيول عنوانًا للرواية، ومنحها ما تستحق من مكانة، فكانت أيقونة قيمة على المستويين الدلالي والرمزي، وكذلك الواقعي.

لقد كان هذا التساؤل حول عودة الخيول في رواية أخرى حافزًا لتأمل غير عابر، واستقراء لتصوّرات وتفسيرات مختلفة، فعزوت هذه العودة إلى اختلاف السياق، وهو ما يستولد المعاني والمبررات والأبعاد، وهو ما يضفي على كل حضور تمايزًا وظلالًا خاصة.

فكيف تجلّت صور الخيول في الروايتين في ظل اختلاف السياق؟

الحصان في «زمن الخيول البيضاء»

تلعب الخيول في رواية زمن الخيول البيضاء أدوارًا مهمة في عمل فني ملحمي يحكي قصة أجيال فلسطينية في مراحل تاريخية ونضالية، إذ كانت الخيول عنصرًا رئيسيًا من عناصر الحياة الفلسطينية، تمحور حوله عنقود من القيم والرموز ارتقت إلى مستوى الروح الإنسانية، وتمتعت بكرامة لا تعادلها إلا قيمة المرأة في بيت لا تُهان فيه امرأة ولا فرس.

ومن يتأمل أسماء الخيول في الرواية، يجد أن أجيالًا متسلسلة منها حظيت باسم «الحمامة»، مع ما يمثّله هذا الاسم من دلالات للسلام والبراءة والجمال. أما «الجليلة»، فكان اسمها يحمل ظلالًا من القداسة والطهر والسمو.

وللخيول بالطبع قيمتها الوظيفية والاجتماعية والوطنية في البيئة الفلسطينية؛ إذ إنها تُعدّ من أفراد الأسرة في حقوقها وواجباتها، علاوة على قيمتها المادية، باعتبارها ملاذًا في أوقات الضيق، وكنزًا ثمينًا للفارس أو الفلاح، لا سيما إن كان الحصان أصيلًا.

والخيول في زمن النضال والقتال، تخوض ميادين الحروب، وتغدو قاطرة تنقل المناضلين من مكان إلى آخر، بل وتحميهم بسرعتها وقوة تحملها وصبرها. وهنا تمثّل الخيل دورًا وطنيًا، ناهيك عن دلالات الحرية والتحرر. وإذا كان ما ورد آنفاً يمثل سياق الخيول في رواية نصر الله «زمن الخيول البيضاء» فما سياقها في المصائد؟

الخيل في مصائد الرياح

في زمن الخيول البيضاء حضرت الخيول ودلالاتها ورمزياتها وقيمها في سياقات إنسانية وشخصية، ووطنية واجتماعية وإنسانية عامة، لكنها جاءت في «المصائد» في سياق علاقات إنسانية شخصية، علاقات وعواطف متبادلة، وتأثر وتأثير متبادلين، بين الإنسان والحصان، بين (الفرس) والحصان.

وما بين زمن الخيول والمصائد اختلف السياق من أفق اجتماعي- وطني (من دون غياب لقيمتها الروحية والرمزية) إلى أفق العاشق والمعشوق، وقد بدت العلاقة المتبادلة بين أحلام والحصان (حس) في تصوري وكأن الأولى قد تنازلت عن نصف كيانها لتمنح حس مساحة يحتلها في ذلك الكيان بما يوحي بتشكل كيان متكامل منسجم تضافرت فيه السمات الأبرز لكل من الكائنين.

حفزني هذا التصور الذاتي لواقع العلاقة بين أحلام وحس (المرأة -الحصان) لاستحضار أسطورة القنطور centaurus/ centaur وهي إحدى الأساطير الإغريقية حول الإنسان والحصان إذ تم تصورهما كياناً واحداً بحيث يمثل القسم العلوي من الكائن المركب رأس إنسان وجذعه، فيما يمثل القسم السفلي جذع حصان وقوائمه. هي حالة من التوحد بين

العقل والقوة في كيان واحد متكامل أو مخلوق جديد مركب من حصان أو فرس ومن رجل أو امرأة، ولعل هذا ما يربط هذه الرؤيا بفكرة «النموذج البدئي» لعالم النفس السويسري كارل جوستاف يونج الذي رأى أن السلوك الإنساني أو الشخصية الإنسانية تتحرك بدوافع من مجموعتي نماذج أصلية أو بدئية كالأساطير والأديان وغيرها. وقبل أن نرصد حركه تطور العلاقة وأبعادها بين «أحلام وحس» لا بد من الإشارة الى القواسم المشتركة بين الحصان والإنسان كما يمكن استخلاصها من الرواية أو من كتابات تناولت هذه السمات المشتركة.

- السمة الاجتماعية: كما الإنسان، الحصان مخلوق اجتماعي، مفطور على الوجود في جماعات ولا يحب الوحدة، وبتحوير بسيط لمقولة ابن خلدون يكون الحصان اجتماعياً بالطبع ولا يتنافر هذا مع العلم والواقع، وبذا يكون الحصان كائناً يتمتع بالذكاء الاجتماعي.

- السمة العاطفية: والحصان كما الإنسان مخلوق عاطفي ذو ذكاء عاطفي أيضاً، إذ إنه محب للعائلة متفهم لعواطف البشر بل إنه قادر على تطوير علاقة عاطفية عميقة مع الإنسان يتبادل معه الحب والاحترام وأحياناً يشعر بالغيرة فيثأر لكرامته بطريقته.

- السمة النفسية: وكلاهما يتمتعان بالكرامة وعزة النفس والثقة.

- حب الحرية: والإنسان والحصان مجبولان على الحرية؛ يمقتان القيود والأماكن الضيقة والمغلقة.

- الحاجات: وكما الإنسان، فإن للحصان/للفرس رغبات وحاجات روحية وعاطفية وفسيولوجية لا بد من الاستجابة لها.

مسار العلاقة بين «أحلام» و«حس»

تتمتع أحلام في الرواية بشخصية مختلفة عن الأديب المحتفى به في المؤتمر، فهو في الغالب متردد وخجول وخائف وحذر وقلق، أما هي، كمنسقة للمؤتمر وكمعجبة بالأديب، فهي منفتحة، نشطة في حركتها جيئة وذهاباً، كأن خيلاً في رأسها، وهي مولعة بالخيول، وهو ولع يتردد أحياناً على لسانها وأحياناً على ألسنة شخصيات أخرى. لأحلام -في ظاهر العلاقة- انجذاب روحي وعاطفي وجمالي نحو الخيول ولديها رؤى وتقدير ومحبة للخيول تشي بأن الخيول تعيش في عالمها أو أنها هي ذاتها تعيش في عالم الخيول، لكن قراءة معمقة للغة الشخصية «أحلام»، ومواقفها، وأفكارها وسلوكها، تشير إلى أن إحساسها بالحصان لا يتوقف عند استجابة روحية أو عاطفية فقط، بل يتعداه إلى ميل حسيّ أيضاً، وهي ذاتها التي أطلقت على ذلك الحصان الأسود اسم «حس»، وهو ما يوحي بظلال معينة للوصف.

واذا كانت أحلام قد وصفت المزرعة ذات مرة ببيت الروح، فإن إحساسها بحصانها تعدّى سقف الروح. لقد كان حصاناً من نار، جسده شعلة، وشعر عنقه شعلة، وغرته شعلة، عيناه شعلتان، رقبته الطويلة شعلة». (166)

اقتربت منه ذات يوم والتصقت به، «ومنذ ذلك اليوم تعيش ذلك الالتصاق ولا تقول تحسّ به، تعيش سريان الحصان في جسدها، تدفقه في روحها. منذ ذلك اليوم أصبحت جبهتها ثملة، ثملة حقاً وليس مجازاً، ثمله وتوزع خدرها اللذيذ على بقية أنحاء جسدها.» (169)، سيتوالى الحضور الفرويدي لحصان أحلام التي لم تخفِ انجذابها للكاتب المحتفى به، ولم تتحفظ في تلميحاتها وإشاراتها، لكنه شخصية حذرة، وجلة، قلقة. وإذ تصحبه ذات يوم إلى شاطئ البحر تقول له «هناك نار لا تطفأ إلا بالنار». قالت له هذه الجملة وتركته معلقاً فوق لهيبها.

وفي إحدى زياراتها للمزرعة، «ذهبت إلى «حس» ونامت في مأواه.. ضاربة عرض الحائط بكل المخاطر المحتملة، مسّدت عنقه، قبلته، مسدت ظهره ثم التصقت به» (255)

وحين تتجول في مزرعة الخيول تخطر في ذهنها تساؤلات وتأملات مثل:

«هل تحلم الخيول أم تتذكر؟ هل تنتظر شروق الشمس مثلنا أم أن جوعها لوجبة الفطور هو السبب؟ هل ينتظر الحصان فرساً أو امرأة وتنتظر الفرس حصانًا أو رجلاً، كما ينتظر البشر؟ وهل الرغبة التي تشتعل في أحشائها توقاً للشريك متشابهة؟(238)

وليست هذه التأملات ببعيدة عما أسماه يونج «الأنيما» و«الأنيموس» طالما أن أحلام تتأمل حالتَي الذكورة والأنوثة، الرجل والمرأة. ففي حالة الأنيما يتمثل النموذج الأصلي في الشخصية الأنثوية التي تقيم في لا وعي الرجل، أما الأنيموس فهو النموذج الأصلي لشخصية الرجل المقيم في لاوعي المرأة.

صحيح أن الموقف يمثل حالة أقرب إلى الحلم، أو حلم اليقظة، أو مجرد «سرحة» خيالية، إلا أن هذا الموقف في مجمل الأحوال تجربة تعيشها أحلام من خلال ذكور الخيل وإناثها في مزرعة الخيول حيث ينفتح اللاوعي على امتداده، ثم يتعين علينا ألا ننسى أن أحلام كطفله عاشت تجربة الولد والبنت متقلبة بين واقع البنت وصورة الولد الذي تمناه الأب، ما انعكس على شخصية الفتاة في حركاتها وتدفقها وتمردها على الأهل والمجتمع.

خلاصة

على الرغم من هذا الحضور المبهر للخيول في مصائد الرياح، إلا أنني أعتقد أن الرسائل التي يتضمنها الخطاب الروائي إنما هي موجهة للإنسان أولاً وأخيراً، ذلك أنّ الإنسان هو غاية الحياة والوجود والعلاقات الإنسانية، وما يعلق بها من روابط مع كائنات وكيانات أخرى، وأهم هذه الرسائل التأكيد على أن الإنسان ظاهرة مركَّبة في تكوينه، وليس مخلوقاً مستقلاً منعزلاً عن مملكة حيوانية أو نباتية أو عن ظواهر طبيعية تترك آثارها عليه. ثم إن الإنسان كحالة وجودية مركّب من قوى متضافرة مجدولة؛ قوى عقلية وروحية وعاطفية وجسدية ونفسية وجمالية. إن قيمة هذه المكونات الكونية والإنسانية تفتح لنا نوافذ للتعرّف من خلالها إلى ذواتنا، وإدراك طاقاتنا ومحدودياتها. والأهم من ذلك كله تكاملها في إطار علاقة نسبية تخلو من الإطلاق في الحياة اليومية العادية ومسارها الطبيعي، هذه الحياة التي لا بد أن تكون كريمة ولا بد للإنسان أن يكون حرًا. هذا ما قالته الخيول وما تغنّت به أحلام وأحياناً المزرعة، وما نطق بمعناه الرّاوي العليم الذي قفز من مكان مجهول إلى فضاء الرواية وشخصياتها وكتبها في نهاية المطاف إبراهيم نصر الله.

صور من ثقب باب موصد

جهاد الرنتيسي ـ كاتب وروائي فلسطيني - الأردن

مثل كل الحكايات التي ترويها الجدات لأحفادهن في المساءات، بدأت الحكاية بالبحث عن متعة المعرفة، ولم تنته بسؤال، تناسلت الأسئلة الأولى، وما زال نسلها يفرخ علامات استفهام، أعجز عن وقف انسيابها، ولا أرى نهاية للهاث وراء الأجوبة. قُذفت إلى الصحراء بفعل فاعل، قبل إتقان السمع، لم أعرف الجدات، وما عدمت الرواة، وجد المعدمون الكهول في حكاياتهم المبعثرة مجرى للأسى، وآخر لاجترار كرامة لا يدركونها، وغنمت من مجالسهم دهشة تكفي لقرون من الاستماع. كنا نترجم سذاجتنا إلى مشاريع قصص وقصائد، يلقي بنا إطراء المسؤولين عن صفحات القراء إلى حواف الغرور، نقرأ دون تمييز بين غث وسمين، ونستغرق في لذة شعور زائف بطرق أبواب التاريخ الموصدة حين فاجأني صديق بإشارته إلى إغفالنا كتابات غسان كنفاني، استغربت غفلتنا، وبات العثور عليها هدفاً يستحق السعي إليه.

لم يكن كنفاني مجهولاً، لكني لا أذكر ما كنا نعرفه عنه حين بحثنا عن قصصه في مكتبة شاءت الأقدار أن اسمها الأندلس، كل ما أذكره سخرية اكتشاف عجزنا عن توفير ثمن رواية رجال في الشمس، وجدنا الحل في بنك الدم، رفعنا أعمارنا لنقنعهم بدمنا، كانت مكافأة العشرة دنانير كافية للحصول على الرواية ومجلد القصص القصيرة، وما زلنا نتندر على الموقف: اشترينا «أبو فايز» بالدم. لخزان كنفاني وقع طروادة في وعي ذلك الزمن، أي مصير كان ينتظر الثلاثة لو وصلوا أحياء إلى المدينة، السؤال ثمرة تعاطف ساقتنا إليه أدوات عبقري الرواية الفلسطينية، لن يختلف مصيرهم عن مصائر الكهول الذين يغريني سماع صوت اجترارهم للمرارة، حسمت الإجابة بعد شيء من التفكير. رددنا عبارة الغوص في المقلاة التي قرأها أحد شخوص الرواية في رسالة، وشغلَنا غوصنا عن الاعتراف بأننا مشاريع مُجتري مرارات متوارثة، مثل قطط الشوارع التي تجد لذتها في لعق دمها على المبرد. لن أضيف جديداً إذا قلت إن الرواية ملغزة، ومحملة بالرموز، كانت رموزها طارحة للأسئلة، تلقفناها ورحنا نبحث عن تفسيرات، ونضيف أخرى، لا يخلو الأمر من الدروس، تعلمنا من القراءة الأولى «إمكانية» و«ضرورة» الكتابة عما نراه ونرصده في حياتنا اليومية، والكف عن ملاحقة المعروف والمتخيل من فعل المقاومة في لبنان وفلسطين. اجتهدنا في تطوير الأدوات الكتابية بإعادة توجيه بوصلة الاطلاع على أدب الآخر، انتقاء الحكايات التي نسمعها، المتابعة، وقراءة ما بين السطور، أطلقنا الخيال لنكتب قصصاً قصيرة بشيء من الاحتراف، وجدَت قصصنا مكانها على الصفحات الثقافية واسعة الانتشار بمقاييس ذلك الزمن، ووجدنا فيها ما يكفي لتفريغ القلق المزمن. أدركت من بين ما أدركته أن الروايات نتاج التحولات، واظبت على قراءتها لأطل على عوالم أجهلها، ووجدت ما يلح على كتابتها حين اصطدمت جباه الكهول

المضبوعين الذين اتحفتنا قصصهم بحافة المغارة، كانوا قد شارفوا على الشيخوخة حين استعادوا وعيهم واكتشفوا ذروة خيباتهم، وأيقنت أنهم باتوا بحاجة إلى الشفقة، نحن أمام تحول يا رفاق، قلت لشركاء هموم تلك اللحظة، ورحت اقتطع وقتاً لكتابة ما ظننت يومها بأنه رواية، أخرطش بقلم رصاص على ما توفر من ورق في زمن احتشاد الجيوش في الإمارة وما حولها، وألجأ إلى الممحاة بين حين وآخر، مستفيداً من طريقة إسماعيل فهد إسماعيل في المحو والكتابة، وحديثه عنهما حين يعطينا مخطوطات رواياته وينتشي بانبهارنا بها . تعلمت في تلك البلاد العيش مع المؤقت تحت خيمة الانتظار، لم أكترث يوماً بإبعاد محتمل إذا فتحوا ملفات الفصائل المغضوب عليها وكانت لي معها تجربة، أو شنوا حملة للتخلص من صحفيين لا يروقون لهم، ولم أتوقع رحيلاً جماعياً يسبقني إليه الذين اعتادوا السير تحت ظلال الجدران المائلة، تريثت عنه بعض الوقت لأسباب تحيرني، قد يكون الخجل من أن يقال بأننا تركنا الأهل في محنة، أو الإصرار على رؤية آخر مشاهد تلك الملهاة، وأرجح أنه العجز عن توفير أجرة شاحنة لنقل عفش البيت، حملت مخطوطي في نهاية ذلك المطاف، ويممت صوب الشمال، تحت سماء ألفتها ونجوم عرفتها. تفقدت قاع الحقيبة لحظة وصولي إلى غرفة مشتركة في فندق يطل على كراجات العبدلي، نحيت القصصَ المنشورة في الصحف جانباً، قلّبت المخطوط الذي ظننته في ذلك الزمن فصولاً لروايةٍ، وعامَلته معاملة البضائع المهربة على نقاط الحدود التي مررت بها، انشغلت في الأشهر اللاحقة بالإصغاء لنبض المدينة الخارجة من الزمن العرفي المعلن إلى آخر غير معلن، العائمة على الصدى المعيشي لعقوبات اقتصادية أنهكت البلاد والعباد، الميالة للهدوء كقرية لا يبلغها الصخب، والقلقة دوماً مما يخبئه الزمن. ظل إلحاح الانتهاء من الرواية طاغياً رغم الانغماس في ماراثون رغيف الخبز، أتحايل عليه بحجة صعوبة الجمع بين إبداعين، أبرر تحايلي بقدومي إلى الصحافة من بوابة الالتزام بقضايا عادلة، ليست "سرفيساً" للوصول إلى النيابة والوزارة، أقول للأصدقاء، أطلعهم على ما كتبته في ظروف غير عادية، وأطرب لإشاداتهم. كنت كالنائم في ظل جدار، فاجأني عبدالوهاب البياتي بتشبيهه ذات لقاء مسائي، يضم أطرافه حين تلامسها أشعة الشمس لكنه وجد نفسه مكشوفاً بلا ظلال في لحظة ما، مضى في شروحاته وأصغيت له حتى النهاية، قد يصح القولَ على الجيل الأول، حاولت تصويب

الفكرة، اختلفَت الأمور مع الأجيال اللاحقة، أكملت وفي ذهني لوم الأبناء للآباء على أخذهم إلى تلك البلاد، رأيت في تشبيهه ما يفتح هامشاً للحديث عن تفاصيل، ولم أتوقف عند ما سمعه من تضييقات على معيشة التعساء في بلاد الرخاء المفترض، حين تتراكم أوهام تسوية قضيتهم في أذهان زعاماتهم .

ثلاثون عاماً مضت قبل الرجوع إلى ما اعتقدت يوماً بانه فصول رواية، تراكمت خلالها معاينات ما جرى وتداعياته، عودة إلى ما قبل كتابة كنفاني لرائعته، وإيغال في ما بعد مغادرته تلك البلاد، لأجدني أمام خريطة متاهات، لا تخلو من المحطات والمنعطفات.

قرأت ما كتبت، لم أجد غير يوميات ومشاهدات ساذجة لزمن الكويت العراقي، رصد يكاد أن يكون دقيقاً، لكنه لا ينفذ بأي حال من الأحوال إلى عروق تجربة امتدت لنصف قرن أو يزيد، ولا يكفي لمعاينة عمق التحولات المفترضة عند كتابة الرواية، نحيتها جانباً وفي ذهني خوض المغامرة، استعنت بما أتاحه زمن العولمة من قدرة على الاتصال، اتسعت الرؤية مع شهادات الذين عاشوا أزمنة لا أعيها، ما جادت به أرشيفات الهندسة الاستعمارية من مراسلات، لم أهمل صورتنا في كتابات المستشرقين الذين جابوا البلاد، وضعت خطتي لرباعية الملح والسراب، وأبحرت في الخيال. انتهيت من ثلاث روايات، حرصت من خلالها على قراءة المشهد بعيون أكثر من جيل وشريحة، للوصول إلى أنماط تفكير مختلفة، تكوّن الأحاسيس، أنماط علاقات ذلك الزمن، تشكلها وانفلاشاتها، وجدت ضرورة لرصد محركات السياسة التي عبثت بمصائر البشر، وإيجاد التكنيك الملائم لتشظيات الكائنات التي أتناول حكاياتها، أتلمس في ما وصلتُ إليه مفاتيح فهم تاريخ سياسي ما زالت أبوابه موصدة، رغم اعتقادنا الساذج بمعرفة ماضينا، تسوقني ارتداداته إلى فهم مختلف لعذابات الناس وأوجاعهم، حيواتهم وخياراتهم. ماذا بعد، أنتظر صدور الرواية الرابعة، قد أقول بعدها إنني التقطت أطراف الخيوط التي ألقاها كنفاني بأصابع صياد خبرت إلقاء الشباك في محيط متلاطم الأمواج، وقد أدعي بأنني عثرتُ على النول الذي تركه بين صحراء وخليج ليبحث عن فضاءات أخرى، ويتيح لنا حرية غزل ذاكرة مختلفة لمن تنبأ بمصائرهم وعاشوا بعده، لم تعد الروايات لي، قد تكون بعض تاريخ الفلسطينيين المبعثر في أرجاء الأرض الأربعة، التشوهات التي لحقت بهم حين وجدوا أنفسهم في الفراغ، أو صور التقطت من ثقب باب موصد، مفاتيحه في أرشيفات ما وراء البحار. ألقي الحمولة عن ظهري، حالماً بأن تكون شريكاً في صياغة رؤية مختلفة، وأمضي إلى مشاريع كتابة أخرى، لم أعد قادراً على احتمال أرقها.

راية بطولة وزي عز وكرامة

د. نجلاء الخضراء ـ باحثة في التراث وكاتبة فلسطينية ـ سورية

روت الكوفية الفلسطينية بألوانها المعروفة وما حملته من رموز وشعارات مطرزة قصة معقدة لتاريخ طويل، وحكت عن أصالة شعب ناضل من أجل البقاء، وعن وحدة الأرض واللغة والتاريخ والمصير التي أرهبت الأعداء، ونيران أشعلت في ساحات الوغى، وأبطال خلد التاريخ بطولاتهم وتفانيهم وتضحياتهم.

هي لباس الرأس عند الرجال للمجتمعات العربية القديمة، انتشرت على البقعة الجغرافية التي شملت فلسطين والأردن وسوريا ولبنان والعراق والسعودية باستمرار أصحابها، وتنوع أرضهم واختلاف أنشطتهم وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وتلون عقائدهم ومعتقداتهم، فكانت لباس الفلاح والصياد، تحميه من لهيب الشمس وتمتص عرقه وتقيه من هواء الشتاء وبرودته. واستخدمها البدوي ليقي أنفه وعينيه من غبار الصحراء ورمالها وشمسها الحارقة، وتألق بها أصحاب المراكز والمناصب العليا، لترسم على ملامحهم ظلال الكرم والتعاون، وكان زياً مناسباً في الأعياد والمناسبات الدينية والاجتماعية.

أطلق عليه العديد من الأسماء فكانت الكوفية والشماخ والغترة والحطة.

فالشماغ كلمة سومرية: اش- ماخ وتعني غطاء الرأس.

والغترة تحوير لغطاء والحطة من حط يحط على الرأس.

وسميت الكوفية نسبة إلى الكوفة حيث كانت تصنع هناك إضافة إلى أنها زي لغالبية أهل الكوفة ومنتج لمدينتهم يتباهون به.

ترجع جذور الكوفية إلى فترات عميقة في التاريخ، استخدمها الإنسان عند

سفوح الأنهار وعلى شواطئ البحار، عندما وضعوا على رؤوسهم شباك الصيد، رمزاً لخطوط المياه والأصداف كتعويذة لطرد الشر. واستخدمها الكهنة قبل حوالي 5000عام، وعندما كان الكهنة والملوك يرتدون الملابس البيضاء، وضعوا فوقها شباك الصيد مصنوعة من صوف الغنم، وبعدها اندمجت الطبقتين بطبقة واحدة سميت الشماغ، الذي أصبح غطاء شعبياً للرأس بخيوطه القطنية، واستخدمه أصحاب المكانة والهيبة وأهل المناصب، فصنعت لهم من الحرير الخالص في حلب ودمشق والقاهرة

على امتداد المناطق التي سكنتها المجتمعات العربية من البحر المتوسط إلى بلاد ما بين النهرين،

إلا أن كل مجموعة عملت على تحريف الرموز وتغييرها بحسب هويتها وأساليب عملها وما يناسب فكرها ومعتقداتها.

فاستخدم سكان البوادي ومربو الماشية الزخارف ذات اللون الأحمر، وعبرت الخطوط الرفيعة عن الطرق التي يتنقلون عبرها ودلت العقد على تعاويذ لطرد الأذى والشر أما الخطوط العريضة فدلت على الطرق التجارية البرية، وصنعت الكوفية في تلك المناطق بالخيوط القطنية.

فأصبحت الكوفية تميز بين الصيادين ورعاة الماشية، وغدت موروثاً ثقافياً وشعبياً للعرب وأهل الشام وبلاد الرافدين ومصر، فكان خروج الرجل حاسراً عن رأسه من الأمور المستهجنة التي تنقص من هيبته، وفي الفترة العثمانية أثرت الثقافة العثمانية على المنطقة وخاصة المدن فاستبدل أهل المدن الكوفية بالطربوش الأحمر واستمر الفلاحون والفقراء بارتداء الكوفيات بأنواعها.

وبعد خسارة الدولة العثمانية نفوذها على المنطقة العربية وقيام الثورة العربية الكبرى، تحولت الكوفية لرمز ثوري نضالي وطني، عندما ارتداها أعمدة الثورة آنذاك ليغطوا بها وجوههم لإخفاء هويتهم، فتنبهت القوات البريطانية إلى أن من يقوم بالتصدي لهم من الملثمين فبدأت بملاحقة كل من يرتدي الكوفية على اختلاف ألوانها، إلى أن أطلقت قيادة الثورة في فلسطين بيانها في شهر أغسطس 1938م بمنع لبس الطربوش في المدن، وإلزام الذكور بلبس الكوفية، فبدأ الباعة بالترويج لها بنداءاتهم الرنانة (الحطة والعقال ب5 قروش والنذل لابس طربوش)، وأقلع الجميع عن لباس الطربوش واستبدلوه بالكوفية.

خرجت الكوفية البيضاء والسوداء كوفية الكنعانيين والفينيقيين، صيادي الأسماك، مع الفلسطينيين المهجرين من مدنهم وقراهم عام النكبة 1948م لتصبح رمزاً لهم يذكرهم بأرضهم ونضالهم وثوارهم، وفي الداخل الفلسطيني كانت هي نفسها غطاء الرأس للمناضلين والثوار الذين ظهروا على شاشات التلفاز يتلفحون بالكوفية البيضاء ويلقون الحجارة على عدوهم في انتفاضة الأولى1987م، والثانية 1993م، وتحولت لتصبح علماً غير رسمي لفلسطين عندما منع الاحتلال الإسرائيلي رفع العلم الفلسطيني (1967م1993-م).

وفي 2023م وبعد السابع من أكتوبر تحولت الكوفية لرمز فلسطيني عالمي طغى على مظاهر الاحتجاجات في أنحاء العالم دعماً للفلسطينيين ورفضاً لحرب الإبادة العسكرية ضدهم.

ومن خلال السرد التاريخي للكوفية طرح العديد من التأويلات لأنماطها وألوانها، وظهرت عليها الرموز الثقافية والحضارية، فقد مزجت ألوانها الحيادية بين السواد والبياض وكأنه تناغم بين الليل والنهار فيما دل الخط العريض على البحر والخطان الرفيعان على النهرين الكبيرين تتوسطهما كروم الزيتون وأوراقها وفي الوسط رسمت خطوط الصيد.

في حين دلت الكوفية الحمراء أو الشماخ إلى الشجاعة والقوة والتضحية وعكست البيئة الصحراوية فرمز اللون الأحمر لغروب الشمس في الصحراء ورمز اللون الأبيض للصفاء والنقاء والسلام، ورمزت الأنماط المعقدة لتعويذة أو تميمة شتت قوى الشر وأضعفتها. كما دلت على نسيج الحياة العربية المتشابكة والمتماسكة بمرونة في كل أنحائها.

أرهب هذا الارتباط التاريخي المتأصل القديم بين الفلسطيني والكوفية العدو، ولفته تمسكه الشديد بها، فوضعها ضمن مخطط سرقاته وأساليب التهويد لإثبات اتصال مزيف بها وإضافتها لقوائم سرقاته، فنشرت صحيفة جويش كورنيل اليهودية الصادرة في لندن عام 2006م صورة لفتاة إسرائيلية ترتدي كوفية للمصمم الإسرائيلي موشيه هاريل الذي غير لون الكوفية إلى الأزرق والأبيض وصمم تطريزها على شكل نجمة.

وفي عام 2015 م أقيم معرض في تل أبيب لمصمم الأزياء يارون مينوكوفسكي خلال ما أطلق عليه اسم أسبوع الموضة حيث ظهرت العارضات يرتدين فساتين مصنوعة من الكوفية بألوانها الأحمر والأبيض والأبيض والأسود كرمز للتعايش بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وقد أثارت هذه الخطوة غضباً شعبياً عارماً، في الأوساط الفلسطينية وعند أصحاب الضمير الحي.

واتخذت السلطات الفلسطينية وغيرها من المؤسسات المهتمة بالتراث والهوية الوطنية والتي حملت على عاتقها حفظ الهوية وتطويرها ونقلها عبر الأجيال، عدة تدابير هامة لحفظ عنصر الكوفية وإظهار أهميته رمزاً شعبياً فلسطينياً؛ فاتخذت وزارة التربية والتعليم الفلسطينية قراراً باعتبار يوم السادس عشر من نوفمبر يوماً للكوفية الفلسطينية وأصبح يوماً وطنياً يتوشح فيه الفلسطينيون كوفياتهم.

كما أعلنت وزارة الثقافة الفلسطينية الأحد الموافق للسابع من نوفمبر 2024م إدراج الكوفية على قوائم التراث الثقافي غير المادي التابعة لمنظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) ويعد هذا التسجيل إنجازاً وطنياً هاماً.

وبحلول القرن الحادي والعشرين أصبحت الكوفية قطعة من الأزياء الرائجة التي يتزين بها الشباب وحتى الشابات فظهرت على منصات عارضات الأزياء العالمية بتصاميم حديثة ومبتكرة.

فالكوفية ليست منتجاً جاهزاً رأى الشعب الفلسطيني به نفسه فقرر استخدامه، وليست عنصراً ثقافياً متأثراً بما مر على أرض فلسطين من ثقافات، ولم يتم تصديره وتحريفه عن أي من الشعوب، إنما هو نتاج تاريخ طويل بدأ مع المجتمعات التي عاشت على الأرض العربية وامتد إلى الشعوب الكنعانية والفينيقية، وتناقلته الأجيال ليحمل بصمة كل منها حتى وصل إلى ما هو عليه اليوم، لنضيف بصمتنا الثقافية والنضالية والوطنية ونرسلها لأجيال غدنا عنصراً تراثياً تاريخياً ورمزاً ثورياً وطنياً، ورسالة سياسية وعسكرية ونفسية تحمل معاني القوة والشجاعة والشرف والنضال والاعتزاز بالهوية والأجداد والانتماء.

هو الممتشق دمه.. ودمه الطريق

لماذا غسان كنفاني؟

أحمد علي هلال ـ ناقد أدبي فلسطيني - سورية

نستعيده لنتذكره أم نتذكره لنستعيده، ولعل الأمر هنا جدلي بامتياز، لأن ما ينطوي عليه هذا الاستذكار لن يتخفف من سياقات وأسئلة متواترة، أشعلها غسان في مدوناته المديدة قضية وصراعاً ومقاومة ووجوداً، لكنها مقاومة بالثقافة وحدها، وبالمجال المعرفي الحيوي الذي جعل غسان أكثر من شخصية بعينها، أي ليصبح فكرة تتعالق بمشروع وكثافة هذا المشروع هو استنبات الوعي في الوجدان الفلسطيني والعربي والإنساني، ومن ثم سيصبح غسان كنفاني في الأزمنة اللاحقة فكرة لا يطالها النسيان، ولا تندثر بمتعاليات الحروب لا سيما حروب الإبادة، وصنوف المقتلة التي تشهدها غزة، بل فلسطين كلها، وأبعد من استحضار يعني الذكرى هو استحضار ممكنات إبداعية طليقة، تحفز التفكير بأن يسائل ذاته فحصاً وكشفاً، لمكونات وعي وهوية وكيانية تنفتح على ما تعنيه سيرورات وصيرورات كثيرة، ستعني أيضاً قراءة تاريخ فلسطين الثقافي وبحساسية نقدية ومعرفية وأخلاقية أكثر منها محض توصيف واسترجاع لمحطات بعينها، ما لم تكن دالة بما يكفي.

غسان كنفاني هو العنوان الطليق لكثافة التراجيديا الفلسطينية، وبانفتاح أكثر على مستوى الأنواع الأدبية التي كشفت عمق رؤيته ونفاذ بصيرته العميقة والكاشفة، لما يعيق الوعي ويعطله، أي أن -كنفاني- حينما كشف الصهيونية الثقافية فكراً وممارسة، فقد أسس لمنهج وطريقة في التفكير والتحليل والاستقراء، فضلاً عن توطئته وتقديمه لشعراء الوطن المحتل، الذين شكلوا في ذاكرة الثقافة الفلسطينية الروافد الحقيقية لنهر الإبداع الفلسطيني الخالد، وليس محض تساؤل فلسفي انطوى عليه سؤال كبير، لماذا غسان كنفاني مجدداً الآن وهنا؟.

لأن غسان كنفاني كان هو السؤال الكبير مشخصاً بما يكفي أن يلهم الأسئلة منذ سؤاله الحارق: لماذا لم يقرعوا جدران الخزان؟ في روايته الأبهى (رجال في الشمس)، ومروراً بتصعيده لأسئلة مختلفة في رواية جاءت بلبوس بوليسي بعنوان (من قتل ليلى الحائك، أو الشيء الآخر).

والآن ماذا لو عاش غسان أكثر، فهل يلتقي مع شخصياته في الزمن الآخر، ليقول لنا كيف سيصل منصور إلى صفد، وبماذا ستحدثه أم سعد في خيمة مزقها قصف الطائرات، وفي المسافة الكاوية إلى كيس الطحين، كم من أم سعد أخرى ستروي حكاية غزة، فقد أصبحت كل الحكاية، وهل سنرى أحفاد ناديا التي بُترت قدمها من فوق الفخذ في ورقته إلى غزة، وهم يصرخون بملء أصواتهم نريد الرغيف.. نريد الرغيف، وهل سيعود غسان في مساءات غزة وقد تكاثفت أوراقها، ليرى الخيمة من جديد وبالكاد تحمي من يلوذون بها؟.

ناجي العلي
الحضور الدائم

محمد أبو شريفة ـ مدير تحرير مجلة الهدف الفلسطينية ـ سورية

كانت الريشةُ هي الأحبّ إلى قلبه والأقدر تعبيراً عن مكنون وجدانه الثوريّ، فرسم أكثر مما تحدث، ولا يعرف الناس عنه سوى حقيقتين: رسوماته، واستشهاده، أما ناجي العلي الإنسان البسيط اللاجئ والمبدع فلم يعرفه سوى قلّة، ومنهم حنظلة الذي كان لسان حاله حول الأحداث المختلفة.

غسان كنفاني في الأزمنة المختلفة عاد أكثر من فكرة وأقسى من جواب، فهو ضمير كتابة امتزجت بدمه، ليكون المشتبك والعضوي، كما وقر في أذهاننا، وليكون أجيالاً تتخاطف أكياس الطحين، وليكون ذلك الطبيب الذي يمزج الملح بالماء، ليستمر في حياة أقل، وليرى الموتى هناك بوصفه أكثر بكثير من موت أُعدَّ وأصبح طريقة في حياة أولئك المجوعين، فكم من سرير سيتعدى موت السرير 13.

وبعد، ماذا لو عاش غسان؟ ستكتبه كلماته كلها، وتمشي في إثره روايات أحببناها، وقصص حلمنا بها، ومسرح قرأ أزمتنا الوجودية، وهنا لن يضع ذلك الاستذكار أوزاره، بل لينعطف كما مخيلة غسان الأدبية، إلى الراهن الفادح والعصي على التوصيف، كما هو الموت، فهل الموت موتاً أم حياة أخرى، على الأرجح أن غسان كنفاني عاش بحيواته كلها، وأطلق شخصياته في فضاءات جديدة لنعثر نحن على الأجوبة التي تستمر في أزمنة لاحقة بوصفها أسئلة جديدة، فرمزيات غسان في مسرحياته على سبيل المثال هي واقع وأكثر، يناهض اليأس ويستشرف في المستقبل، فهو لا يستجدي الأمل بل يخترعه كما هو الأمل في أن يحمل أطفال فلسطين وأطفال غسان كنفاني، قناديلهم ليجلبوا الشمس ويدفعوها إلى أفق جديد، وبوسعنا هنا أن نقرأ أكثر دالة الاستشراف في مدرسة غسان كنفاني، فهي من تبعثه في وعينا فكرة ووطناً، وجسارة قضية مازالت تمتحن ضميرنا.

غسان كنفاني الضمير المسلح لأزمنة مفتوحة، ملهماً وسادناً لعبقرية الكلمة/ الوعي، أكثر منه محض تبشير هنا أوهناك، فمن نبذ الهزيمة زرع في الوعي فكرة المقاومة، والصلابة الثورية التي لا تحدها عوائق، ومتعاليات ظل نص كنفاني المفتوح يضارعها حدَّ الاشتباك، لينفي (خراب الدورة الدموية)، في أجساد مازالت هناك منتصبة كاسم فلسطين وأبجدية مقاومتها، إذن نستعيد غسان لنستعيدنا، وفي لحظة فلسطينية فارقة.

غسان كنفاني.. هو الفلسطيني جداً في انكشاف الأسماء والأفعال، هو الجملة المضارعة في سفر إبداع لن تغيب عنه الشمس.

فأصبح العلي بشخصية حنظلة ضمير الشعب، متمثلاً أديب الثورة الفلسطينية الشهيد غسان كنفاني في رؤيته لما سيكون عليه المستقبل المحفوف بالمصاعب والمخاطر في كل أحياء وأزقّة المخيمات الفلسطينية وفي كل مكان تواجد فيه الفلسطينيون، حيث رسم مشهدية اللاجئين بكل صدق ووضوح، وشدَّد على معاناتهم في مخيمات الشتات، فكانت أيقونات كاريكاتيرية شاهدة على زمن الظلم والاحتلال الذي ليس له حل حسب تعبيراته إلا المقاومة المسلحة وقد ترجمت أولى لوحاته هذا التعبير، حيث رسم خيمة على شكل هرم تخرج منها يدٌ قابضة على شعلة نارية كأنها راية تطالب بالثأر والتصميم على النصر والتي نُشِرت في مجلة «الحرية» (أيلول/1961) وهو ما جعل غسان كنفاني يكتب عنها: «صديقنا الفنان ناجي العلي لا يجد خيراً من الكاريكاتير ليعبّر عما يرتجف في نفسه، وقد لا يعلم أن الحدة التي تتسم بها خطوطه وأن قسوة اللون الراعبة وأن الانصباب في موضوع معين يدلل على كل ما يجيش في صدره بشكل أكثر من كافٍ وهو يحمل إلينا قصة فلسطين لا ما حدث منها ولكن ما يجب أن يحدث لكي يعود الذين شُرّدوا من ديارهم إلى خير الأرض والوطن».

تفرَّد ناجي العلي بإبداعه شكلاً مستجداً ومستحدثاً مع كل نتاج بشكل يختلف عن سابقه، حيث كان شكل كل لوحة ومضمونها يختلف عن غيرها بحسب ما يفترضه الموضوع والمعالجة من إبداع يتناسب وروح الواقع، فتختلط الخطوط المرسومة مع المفردات والمعاني مما يشكل حساً عميقاً ومنسجماً يؤثر بشكل مباشر في مستوى التفاعل التبادلي، حيث يربط خطوطه السرية بين المبدع والمتلقي، وكان هذا التفاعل المحسوس واللامرئي هو سرّ حضوره الدائم رغم الغياب وسر انشغال الدارسين ومتذوقي الفن والباحثين بنتاجه مما جعله أيقونة فريدة في نيل إعجاب البسطاء من الناس والنخب من أهل الفن والأدب والثقافة والنقاد، حيث خطَّ لوحة ركائزية في معادلة الفن العربي الثوري (فن الكاريكاتير) وجمع بين أصالة عميقة وشكل حداثوي ومضمون ثوريّ وعمق فني، وبما أن ناجي العلي قد فهم فحوى تداخلات كل ذلك وانصهارها في فهمه النقدي فقد شكَّل ذلك فرادة ليس فقط على اللوحة المنجزة إبداعياً وإنما على احتفائه بالمضمون ورؤيته للمستقبل مما أفرز رؤية فلسفية استشرافية عميقة لم يلحظها الكثيرون من معاصريه، لذلك لم تكن رسوماته خطابات سياسية بقدر ما كانت رسائل فريدة وربما غريبة كما في إحدى لوحاته، حيث تنظر فاطمة بعيون دامعة لزوجها الذي يقرأ الصحيفة التي تتحدث عن اقتتال الأخوة ودور النفط في المعركة: «حاجة تقولي الدم ما بيصير مية.. صار زفت» وفي لوحة أخرى حيث يتنازع طرفان على قطعة من قماش، أحدهما يتمثله بعض الرجال العرب المطبّعين الذين يريدون أن يصنعوا منها علماً أبيض للاستسلام، والطرف المقابل امرأة فلسطينية وحيدة تنازعهم القطعة القماشية لتصنع منها كفناً لأخيها الشهيد، وهذا ما يتجلى حالياً في حرب الإبادة الصهيونية في غزة والتي تتزامن والذكرى 38 لاستشهاد ناجي العلي.

رأى ناجي العلي المراحل القادمة كما هي، وأدرك أن الرفض يشكّل مقدمة لتجاوز المرفوض، وعلى الرغم من تمسكه بعروبته وفلسطينيته إلا أنه كان مختلفاً مع أغلب الأطر السياسية لا لكونه فناناً له خصوصية الرؤية وإنما رفضه للمراوغة والركون والخطاب الانبطاحي والخشبي اللفظي، ومن هنا كانت أعماله مميزة بأشكالها وتعبيراتها دون أن يكون متطرفاً يوماً بقصد الشتيمة لأحد دون الآخر وإنما تقديراته وما استشعره من خطورة الحالة الفلسطينية والعربية جعلتْه يلعنها ويشتمها، وقد كانت الموهبة الاستشرافية لديه بمثابة المدماك في البناء الذهني الذي انعكس فنياً وثورياً على نتاجه، وقد عاش تجربة غنية بهذا الشأن.

نجح العدو في اغتياله ولكن هل نجح في تغييبه؟

منذ رسوماته الأولى وحتى اللحظة الراهنة نشأت أجيال فلسطينية متعاقبة في مدرسة ناجي العلي شاهدوا وعاشوا تجربته المميزة وتشرّبوا روحه النضالية العالية ورددوا معه مقولته «الطريق إلى فلسطين ليست بعيدة ولا قريبة.. إنها مسافة الثورة».

نشرت المادة على:
موقع ma5tv الثقافي في المغرب .
بتاريخ 30-8-2025

يرونه بعيداً ونراه قريباً
بصمود شعبنا ومقاومتنا ننتصر
كتائب الشهيد أبو علي مصطفى

أبو علي مصطفى "سيزيف الفلسطيني"

مروان عبد العال

لأن غزة اليوم هي سيزيف العصر، تواجه آلة استعمارية كونية، تملك كل الأدوات الحديثة للقتل، وكلما رفعت رأسها تساقطت عليها حجارة الحرب، وكلما رمّمت بيتاً انهار بيت آخر، ومع ذلك تواصل دحرجة صخرتها: إعادة بناء الحياة، إنجاب الأطفال، دفن الشهداء، وتكرار القول: "نحن هنا"، التاريخ الإنساني يضعنا أمام نمطين من المواقف الوجودية في مواجهة القهر: الأول هو موقف العبث كما صاغه ألبير كامو في أسطورته عن سيزيف؛ والثاني هو موقف المقاومة كما جسّده قادة ثوريون مثل الشهيد أبو علي مصطفى، كلاهما يقف أمام سؤال المعنى: هل لنضالنا جدوى؟ وهل للفعل قيمة في عالم تهيمن عليه قوى القمع والموت؟

ألبير كامو رأى أن الإنسان يصطدم بعبث الكون "لا معنى موضوعياً للحياة، ولا إجابة كونية عن أسئلته"، لكن هذا الاصطدام لا يقود إلى الاستسلام، بل إلى التمرد، "سيزيف" في نظره، مثل الفلسطيني الذي يدحرج صخرته إلى أعلى الجبل، لأنه صنع معناه بنفسه، حتى وإن كان الجبل ثابتاً والصخرة لا تستقر، فالحرية هنا ليست في الانتصار النهائي، بل في الإصرار على الفعل.

أما أبو علي مصطفى فقد واجه عبثاً من نوع آخر: "عبث القوة الاستعمارية التي تملك طائرات ودبابات وتفرض الموت على شعب أعزل"، أمام هذا العبث الصهيوني الذي قصف مكتبه بطائرات الأباتشي، لأنه عاد ليجيب عن سؤال: هل للمقاومة جدوى؟ بل قلب السؤال رأساً على عقب: ما معنى أن نعيش بلا مقاومة؟ قائلا: "عدنا لنقاوم!"، هنا يتجاوز الموقف العبثي ليؤسس لمعنى تاريخي: "أن الفعل الثوري ليس مجرد مواجهة للعدم، بل هو تأسيس لهوية ووجود في التاريخ".

حين واجه الرفيق أبو علي خطاب الهزيمة «ما كان ينبغي حمل السلاح»، سخر من اللغة الاستسلامية اليائسة، والسخرية هنا موقف فلسفي يشبه لحظة الوعي العبثي عند "كامو" إدراك المفارقة بين ثقل السؤال وخفة الجواب، لكنها عند أبو علي لم تكن سخرية وجودية فقط، بل سخرية ثورية "تعرية لمنطق يبرر الاستسلام باسم العقلانية"، إنها تذكير بأن اللاجدوى الحقيقية ليست في القتال، بل في القبول بالعدم السّياسي الذي أوصل أصحابه إلى نهاية عبثية من الإذلال والهوان والإقصاء.

خطاب "ما كان ينبغي حمل السلاح" يشبه استسلام الإنسان العبثي حين يتوقف عن دحرجة الصخرة، لكنه نقيض فلسفة "كامو" الحقيقية التي تدعو إلى الاستمرار، أبو علي يذهب أبعد: "لا يكتفي بالفعل المستمر رغم اللاجدوى، بل يؤكد أن الفعل نفسه يخلق معنى تاريخياً يتجاوز الفرد، ويصوغ هوية شعب وأمة"، إنه انتقال من الجدوى الوجودية (معنى الحياة رغم عبثها) إلى الجدوى الثورية (معنى التاريخ رغم قسوته).

إن سخرية أبو علي مصطفى من مقولة «ما كان ينبغي حمل السلاح» ليست مجرد رد سياسي، بل هي فلسفة مضادة للعبث: "مضادة لدعاة السلاح الواحد ونزع القوة أو تقليم الأظافر وخلع أنياب أصحاب فلسفة تقول إن الفعل الثوري هو الذي يمنح الحياة معناها، وإن الوجود بلا مقاومة هو اللاجدوى الحقيقية".

هكذا ينتقل سيزيف من أسطورة إغريقية إلى واقعية فلسطينية: "الصخرة لم تعد حجراً، بل بندقية، والجبل لم يعد جبل الأوليمب، بل جبال فلسطين".

الهدف AL-HADAF